النص الكامل

أغاثا كريستي

اجاثا كريستي & كتاب رواية

facebook.com/groups/agathalovers/

كَلْبُ المَوْت

وقصص أخرى

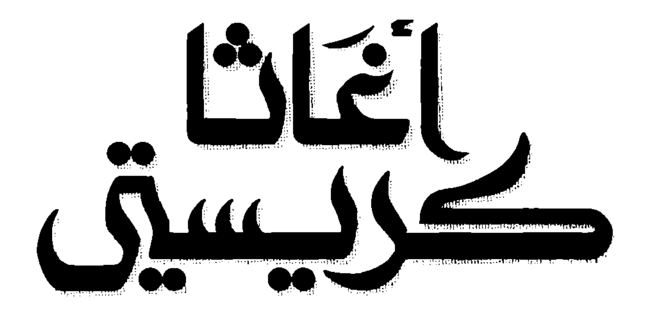




مكتبة الرمحي أحمد







كَلْبُ المَوْت

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٣

صورة الغلاف مستوحاة من قصة «قضية السير آرثر كارمايكل»

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون بدهشة واستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات المهمة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَيْ أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمِعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفّذ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمع مذكّر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خَجِلٌ»، وقولهم: «مُندهش» والصواب «دَهِشٌ» أو «مَدْهوش»، وقولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«الجِدّيّة» والصواب «الجِدّ»، ومنه: كان الأمر جِدّيّاً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جِدّاً، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن"

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاّ» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب" وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل ،وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها: «إنكليز» و«إنكليزية»؛ لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: ca̲t)، والألف المفخَّمة (كما في: ca̲r)، والألف الممالة (كما في: ca̲re)، والواو المشبعة (كما في: bo̲o̲t)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: bo̲ne)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: o̲range)، والياء المشبعة (كما في: me̲)، والياء الممالة (كما في: u̲rgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرضٍ ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟" أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين" عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في بلاد الرافدين». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها"

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

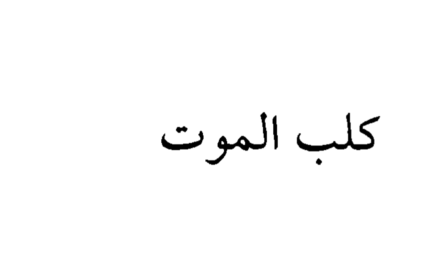
أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢، أي لأكثر من نصف قرن!

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *



كلب الموت

سمعت بالقضية لأول مرة من ويليام رايان، المراسل الصحفي الأميركي. كنت أتناول العشاء معه في لندن عشية عودته إلى نيويورك، وحدث أن ذكرتُ أنني ذاهب إلى فولبريدج في صباح اليوم التالي، فرفع بصره وقال بحدة: فولبريدج، في كورنوول؟

والحقيقة أنك لا تكاد تجد شخصاً واحداً من بين كل ألف يعرف أن في كورنوول بلدة اسمها فولبريدج. إنهم يأخذونها دائماً على أن المقصود بها هي فولبريدج التي في هامبشاير؛ ولذلك فقد أثارت معرفة رايان فضولي، فقلت: نعم، هل تعرفها؟

اكتفى بأن قال إن من الأفضل لي أن أراهن على ذلك، وبعد ذلك سألني إن كنت أعرف هناك منزلاً يدعى تريريني.

ازداد اهتمامي بالموضوع وقلتُ له: أعرفه جيداً. إنني ذاهب إلى تريريني في الواقع؛ إنه بيت شقيقتي.

قال ويليام رايان: حسناً، هذا أمر مفاجئ حقاً!

أخبرته أن عليه أن يكف عن إلقاء الملاحظات المبهمة ويوضح ما يقوله، فقال: حسناً، حتى أفعل ذلك عليّ العودة إلى تجربتي في بداية الحرب.

تنهدت؛ فالأحداث التي أرويها حدثت عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين، وآخر ما يمكن للمرء أن يرغب به أن يذكّره أحدٌ بالحرب (وأحمد الله على أننا كنّا بدأنا ننسى أمرها)، كما أنني كنتُ أعرف أن وليام رايان يميل إلى الإطالة الفظيعة عند رواية تجاربه في الحرب. ولكن لم يكن من مجال لوقفه الآن.

- في بداية الحرب كنت موجوداً في بلجيكا كما تعلم، أتجول فيها لصالح صحيفتي. وكانت هناك قرية صغيرة (سأسميها القرية س)، قرية صغيرة جداً بالفعل، ولكن كان فيها منتجع أشبه بالمشفى النفسي تقيم فيه مجموعة من السيدات اللاتي يقضين فترة من النقاهة بسبب أزمات أو مشكلات نفسية. وكانت هذه البلدة الصغيرة في طريق تقدم جحافل الألمان، ووصلت قوات الألمان...

تحركت متململاً، فرفع ويليام رايان يده يطمئنني وقال: لا بأس؛ هذه ليست قصة لفظاعة ارتكبها الألمان. ربما كان ممكناً أن تكون كذلك، ولكنها ليست هكذا. والحقيقة أن الأمر جرى بالعكس تماماً. جاء الجنود الألمان إلى المشفى... دخلوا هناك، وتفجر المكان كله.

قلت وقد جفلتُ قليلاً: آه!

- أليس هذا غريباً؟ أظن أن الجنود الألمان كانوا يحتفلون ويتجولون في المكان ومعهم أسلحتهم، ولكن لا أحسب أنه كان معهم متفجرات من ذلك النوع الخطير؛ فهم ما كانوا ليحملوا المتفجرات الشديدة. حسناً، ها أنا ذا أسألك: ماذا يمكن أن تعرف مجموعة من السيدات عن المتفجرات شديدة الانفجار؟

وافقته قائلاً: هذا غريب.

- كنت مهتماً بسماع رواية الفلاحين للمسألة. كانوا قد أعدوا قصة جاهزة قاطعة؛ فبالنسبة لهم كانت معجزة عصرية مدوية من الطراز الأول. ويبدو أن واحدة من المريضات قد حازت على سمعة كبيرة... كامرأة ذات قدرات خارقة. كانت تنتابها حالات غيبوبة وترى رؤىً، وهم يرون أنها هي التي قامت بهذه المعجزة المدوية. لقد استنزلت صاعقة لكي تقضي على الألماني الفاسق، وقد قضت عليه تماماً ودمرت كل شيء آخر في مرماها. كانت تلك معجزة كبيرة!

ثم أكمل رايان: لم أتبين بالفعل حقيقة الأمر؛ فلم يكن عندي وقت لذلك. ولكن المعجزات كانت مادة رائجة في ذلك الوقت، ولذا كتبتُ قصة الخبر وأضفتُ إليه شيئاً من العاطفية، ثم أرسلت التقرير إلى صحيفتي. وقد استُقبل بقبول حسن في الولايات المتحدة؛ إذ كانوا يحبون مثل هذه الأخبار في ذلك الوقت. ولكنني أخذت أهتم بالموضوع وأنا أكتب التقرير، ولا أعرف إن كنتَ ستفهم هذا أم لا أحسست أنني أرغب بمعرفة ما حدث حقيقة. ولم يكن في المكان نفسه ما يمكن رؤيته؛ فقد بقي حائطان كانا لا يزالان واقفَيْن وعلى أحدهما شيء من أثر البارود الأسود على شكل كلب كبير. وكان الفلاحون الذين يسكنون في المنطقة خائفين جداً من تلك العلامة، وقد سموها «كلب الموت» ، وما كانوا ليمروا من ذلك الطريق بعد حلول الظلام. إن الخرافات تثير الاهتمام دائماً. وقد أحسست برغبة في رؤية المرأة التي قامت بهذه الأعجوبة، ولم تكن قد ماتت، بل كانت قد ذهبت إلى إنكلترا مع مجموعة من اللاجئين الآخرين. وقد

تجشمتُ عناء تعقب آثارها لأكتشف أنها أُرسلت إلى منزل تريرني في فولبريدج في كورنوول.

أومأت برأسي وقلت: كانت أختي تؤوي في بيتها كثيراً من اللاجئين البلجيكيين في بداية الحرب... نحو عشرين لاجئاً.

- حسناً، لقد أردتُ دائماً زيارة المرأة لو توفر لديّ وقت؛ فقد أردتُ سماع روايتها الخاصة عن الكارثة. وبعد ذلك نسيت هذا الأمر بسبب مشاغلي الكثيرة، وكانت كورنوول مكاناً منعزلاً بعيداً بعض الشيء. والواقع أنني كنتُ قد نسيت الأمر كله إلى أن ذكرتني به عندما ذكرتَ فولبريدج قبل قليل.

قلت: يجب أن أسأل شقيقتي؛ فلعلها سمعت شيئاً عن الأمر. لقد أُعيد جميع اللاجئين البلجيكيين إلى بلادهم منذ مدة طويلة بالطبع.

- أمر طبيعي. ومع ذلك، إن كانت أختك تعرف أي شيء فسأكون مسروراً لو أبلغتني به.

قلت متحمساً: سأفعل بالطبع.

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

* * *

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي في اليوم التالي لوصولي إلى تريرني. كنت أشرب الشاي مع أختي على المصطبة الأمامية، فقلت

لها: كيتي، ألم يكن بين البلجيك الذين أقاموا عندك امرأة مصابة بمرض نفسي ما؟

- أتعني السيدة ماري أنجيليك؟

قلت بحذر: ربما هي. أخبريني عنها.

- آه، يا إلهي! كانت امرأة خارقة للطبيعة. إنها ما تزال هنا.

- ماذا؟! في البيت؟

- لا، لا؛ بل في القرية. الدكتور روز... هل تذكر الدكتور روز؟

هززت رأسي بالنفي وقلت: أذكر رجلاً عجوزاً في الثالثة والثمانين من عمره.

- ذاك هو الدكتور ليرد. آه، لقد مات. ولم يمر على وجود الدكتور روز هنا إلاّ بضع سنوات فقط. إنه صغير بالسن وهو متعلق جداً بالأفكار الجديدة، وقد أولى السيدة ماري أنجيليك جلّ اهتمامه. كانت تصاب بهلوسات وأشياء... وكان واضحاً أنها مثيرة جداً للاهتمام من وجهة النظر الطبية. مسكينة، لم يكن عندها مكان تذهب إليه. وكانت -برأيي- مخبولة تماماً، غير أنها تثير الإعجاب بطريقة ما. وكما قلت، لم يكن عندها مكان تذهب إليه، وكان الدكتور روز لطيفاً جداً عندما وجد لها مسكناً في القرية. أظن أنه يكتب رسالة علمية عنها.

سكتت ثم أضافت: ولكن ماذا تعرف عنها؟

- لقد سمعتُ قصة غريبة.

سردت لها القصة كما سمعتها من رايان. وقد اهتمت كيتي أشد الاهتمام وقالت: إنها تبدو من النوع الذي يمكن أن يدمرك، إذا كنتَ تدرك ما أعنيه!

قلت وقد ازداد فضولي: أظن أنني يجب أن أرى تلك المرأة.

- نعم، افعل؛ أريد أن أعرف رأيك بها. اذهب وقابل الدكتور روز أولاً لماذا لا تتمشى إلى القرية بعد تناول الشاي؟

قبلت هذا الاقتراح. وقد وجدت الدكتور روز في بيته وقدمت له نفسي، وبدا شاباً مرحاً، ومع ذلك كان في شخصيته شيء نفّرني. كانت شخصية أقوى من أن تكون محبوبة تماماً.

وفي اللحظة التي ذكرت فيها السيدة ماري أنجيليك تصلب منتبهاً، وكان واضحاً أنه مهتم كثيراً بالأمر. سردت له رواية رايان للحادث، فقال متأملاً: آه! هذا يوضح كثيراً من الأشياء.

رفع بصره نحوي بسرعة وأكمل قائلاً: إن القضية قضية مثيرة جداً بالفعل. لقد وصلت المرأة إلى هنا وكان واضحاً أنها تعاني من صدمة نفسية شديدة، وكانت أيضاً في حالة من الانفعال العقلي الكبير وتعاني من هلوسات مرعبة. إن شخصيتها غريبة جداً. لعلك ترغب في مرافقتي لزيارتها؟ إنها تستحق الزيارة فعلاً.

وافقته بكل ترحيب، وانطلقنا معاً.

كان هدفَنا بيت ريفي صغير على أطراف القرية. إن فولبريدج مكان ذو طبيعة خلابة، وهي تقع عند مصب نهر فول. وغالبيتها على الضفة الشرقية تقريباً، أما الضفة الغربية فهي منحدرة جداً ولا تصلح للبناء، رغم وجود قليل من البيوت المعلقة على جانب المنحدر الصخري هناك. وكان بيت الطبيب نفسه مبنياً عند طرف حافة المنحدر الصخري في الجانب الغربي، ومن ذلك البيت تنظر أسفل منك إلى الأمواج الكبيرة التي تصطدم بالصخور السوداء. أما البيت الذي نحن بصدد زيارته فيقع في منطقة داخلية لا يمكن رؤية البحر منه.

أوضح الدكتور روز: ممرضة المنطقة تعيش هنا. لقد رتبت إقامة السيدة ماري أنجيليك معها في البيت، والجيد في هذا أنه يجعلها أيضاً تحت إشراف طبي محترف.

سألته سؤالاً فضولياً: أهي طبيعية تماماً في سمتها؟

ردّ وهو يبتسم: يمكنك أن تحكم على ذلك بنفسك حالاً

كانت ممرضة المنطقة ذات جسم صغير ممتلئ، وكانت على وشك الخروج على دراجتها الهوائية عندما وصلنا.

صاح الطبيب: مساء الخير أيتها الممرضة، كيف مريضتك؟

- إنها كعادتها يا حضرة الطبيب؛ جالسة هناك وهي تلف يديها وذهنها شارد بعيداً. إنها لا تجيبني في أكثر المرات التي أتكلم فيها معها، مع أنها -بالنسبة لهذه النقطة- لا تفهم الكثير من الإنكليزية حتى الآن.

أومأ روز برأسه، وعندما انطلقت الممرضة بدراجتها بعيداً اتجه إلى باب البيت ودقّ بقوة ثم دخل.

كانت السيدة ماري أنجيليك تضطجع على مقعد طويل قرب النافذة، وعندما دخلنا التفتت برأسها إلينا. كان وجهها غريباً شاحباً وكأنه شفاف، بعينين واسعتين جداً، وقد بدا في تلكما العينين شيء من لانهائية المآسي.

قال الطبيب بالفرنسية: مساء الخير يا سيدتي. اسمحي لي أن أقدم لك صديقي السيد أنستروثر.

انحنيتُ لها فيما مالت هي برأسها بابتسامة باهتة.

سألها الطبيب وهو يجلس بجانبها: وكيف حالك اليوم؟

- كالمعتاد؛ بنفس الحال.

سكتت قليلاً ثم أكملت: لا شيء يبدو لي حقيقياً. هل هذه التي تمر عليّ أيامٌ أم أشهر أم... سنوات؟ لا أكاد أعرف. أحلامي وحدها هي التي تبدو حقيقية بالنسبة لي.

- أما زلت تحلمين كثيراً إذن؟

- دائماً، دائماً و... هل تفهم؟ الأحلام تبدو حقيقية أكثر من الحياة.

- هل تحلمين ببلدك... ببلجيكا؟

هزت رأسها نافية وقالت: لا، بل أحلم ببلد لم يوجد أبداً...

أبداً. أنت تعرف هذا أيها الطبيب؛ لقد أخبرتك بذلك مراراً.

سكتت، ثم قالت فجأة: ولكن لعل هذا الرجل الذي معك طبيب هو الآخر. أتراه طبيباً لأمراض الدماغ؟

قال روز يطمئنها وهو يبتسم: لا، لا

ولاحظتُ -عندما ابتسم- كيف كانت أنيابه مدببة طويلة بشكل غريب، وخطر لي أن في هذا الرجل شيئاً من صفات الذئب.

أكمل قائلاً: اعتقدت أنك ربما تكونين مهتمة بمقابلة السيد أنستروثر. إنه يعرف أشياء عن بلجيكا، وقد سمع -مؤخراً- بعض الأخبار عن المنتجع الذي كنت تعيشين فيه.

التفتت إليّ وقد احمر خدّاها قليلاً، فأسرعتُ في الإيضاح: لا يوجد شيء في الحقيقة، لكني كنت أتناول طعام العشاء قبل فترة مع صديق كان يصف لي الجدران المهدمة للمكان.

- فهي مهدمة إذن؟!

كانت صيحة تعجب هادئة، نطقتها لنفسها أكثر من نطقها لنا. ثم سألتني مترددة وهي تنظر إليّ مرة أخرى: أخبرني يا سيد، هل أخبرك صديقك كيف تهدمت؟

قلت: "لقد فُجِّرت" ثم أضفت: الفلاحون يخافون من المرور من ذلك الطريق في الليل.

- ولماذا يخافون؟

- بسبب علامة سوداء على حائط مهدم. لديهم خوف خرافي منها.

مالت إلى الأمام وقالت: أخبرني يا سيد، بسرعة... بسرعة... أخبرني! ما شكل تلك العلامة؟

- إنها على شكل كلب ضخم، والفلاحون يسمونه «كلب الموت».

- آه!

تفجرت من شفتيها صرخة حادة، ثم قالت: إذن هذا صحيح... صحيح. كل ما أتذكره صحيح. إنه ليس كابوساً مرعباً. لقد حدث فعلاً! لقد حدث!

سألها الطبيب بصوت منخفض: ما الذي حدث يا سيدتي؟

التفتت إليه متلهفة وقالت: **لقد تذكرت**. هناك على الدرج، تذكرت. تذكرت كيف حدث ذلك. لقد استخدمت القوّة التي كنت معتادة على استخدامها. وقفت على درج المبنى وأمرتهم ألاّ يتقدموا أكثر. قلت لهم أن يغادروا بسلام. لم يصغوا إليّ، تقدموا رغم أنني حذرتهم. وهكذا...

مالت إلى الأمام وأشارت بيدها إشارة غريبة وهي تقول: ولذلك أطلقت عليهم كلب الموت!

ثم استندت إلى ظهر المقعد وجسمها كله يرتعد وعيناها مغلقتان، فنهض الطبيب وأحضر كوباً من خزانة، فملأ نصفه بالماء

وأضاف إليه قطرة أو قطرتين من زجاجة صغيرة أخرجها من جيبه، ثم أخذ الكوب إليها وقال بلغة الآمر: اشربي هذا.

أطاعته كما لو كان ذلك آلياً. بدت عيناها بعيدتين وكأنهما تتأملان رؤىً داخلية خاصة بها، ثم قالت: إذن كل شيء صحيح، كل شيء. «مدينة الدوائر»، «شعب الكريستال»... كل شيء. كله صحيح.

قال روز: يبدو كذلك.

كان صوته منخفضاً ومهدئاً، وواضح أن القصد منه تشجيع حبل أفكارها وليس تعكير سيره. قال: أخبريني عن المدينة. أظنك قلت «مدينة الدوائر»؟

ردّت عليه وهي شاردة الذهن وبطريقة آلية: نعم... كانت هناك ثلاث دوائر.

- وفي المركز؟

سحبت نفسها بحدة وتحول صوتها إلى نبرة خوف يصعب وصفها وهي تقول: بيت الكريستال!

وهي تنفث هذه الكلمات رفعت يدها اليمنى إلى جبينها، ودار إصبعها وكأنه يتابع رسماً معيناً هناك. وبدا أن جسمها يزداد تصلباً، وعيناها مغمضتان، ثم ترنحت قليلاً. وفجأة انتصبت في جلستها مع اهتزازة في جسدها وكأنها قد استيقظت بغتة، ثم قالت مرتبكة: ما الأمر؟ ما الذي كنتُ أقوله؟

قال روز: لا شيء. أنت مرهقة وتحتاجين إلى الراحة؛ سوف نتركك.

بدت مبهورة قليلاً فيما كنّا نغادر بيتها. وقال روز ونحن في الخارج: حسناً، ما رأيك في هذا؟

ثم رشقني بنظرة جانبية حادة، فقلت ببطء: أظن أن عقلها مشوش تماماً.

- أهكذا بدا لك الأمر؟

- لا الحقيقة أنها كانت... مقنعة بطريقة غريبة. عندما كنت أستمع إليها كان لديّ انطباع بأنها قامت فعلاً بما زعمت أنها فعلته؛ أي أنها نفذت معجزة هائلة ما. إن إيمانها بأنها فعلت ذلك يبدو صادقاً بما فيه الكفاية. هذا هو سبب...

- هذا هو سبب قولك إن عقلها لا بد أن يكون مشوشاً. صحيح تماماً، ولكن ناقش المسألة الآن من زاوية أخرى. افترض أنها عملت تلك المعجزة فعلاً... افترض أنها دمّرت مبنى وقتلت عدة مئات من البشر.

قلت وأنا أبتسم: بمجرد ممارستها للإرادة وحدها؟

- ما كنتُ لأعبر عن الأمر بهذا النحو. سوف توافقني على أن شخصاً واحداً يمكنه إهلاك حشدٍ كبير من الناس بضغطة على مفتاح يتحكم بشبكة من الألغام.

- نعم، لكن هذا عمل آلي.

- صحيح؛ هذا عمل آلي، ولكنه في جوهره تسخير وتحكم بقوى طبيعية. إن العاصفة الرعدية ومحطة توليد الطاقة يعتبران أمراً واحداً من الناحية الجوهرية.

- نعم، ولكن حتى نتحكم بالعاصفة الرعدية علينا استخدام وسائل آلية.

ابتسم روز وقال: حسناً، توجد مواد كثيرة في الطبيعة على شكل نبات، ويمكن للإنسان أن يوجدها اصطناعياً وكيميائياً في المختبر.

- حسناً؟

- أريد أن أقول إن طريقتين يمكن أن توصلا إلى نفس النتيجة. إن طريقتنا هي الطريقة الصناعية، ولكن ربما وُجدت طريقة أخرى. النتائج غير العادية التي يصل إليها النسّاك الهنود -على سبيل المثال- لا يمكن تفسيرها بأي طريقة سهلة. الأشياء التي نسميها خارقة للطبيعة ما هي إلاّ أشياء طبيعية لم تفهمها القوانين بعد.

سألته وقد فتنني الحديث: ماذا تعني؟

- أقصد أنني لا أستطيع استبعاد احتمال أن يكون الكائن البشري قادراً على الاستفادة من قوة تدميرية واسعة لتحقيق أهدافه. وقد تبدو لنا الوسائل التي تم فيها تحقيق هذه الأهداف خارقة للطبيعة، لكنها ليست كذلك في الحقيقة.

حدقت إليه، فضحك وقال لاهياً: إنه تخمين، هذا كل ما في

الأمر. أخبرني، هل لاحظت إشارة عملتها بيدها عندما ذكرت بيت الكريستال؟

- لقد وضعت يدها على جبينها.

- بالضبط، ورسمت دائرة هناك. سأخبرك شيئاً مثيراً للاهتمام يا سيد أنستروثر عندما ترددت كلمة كريستال كثيراً في تفكير مريضتي قمت بعمل تجربة. استعرتُ كرة كريستال من أحد الحواة وأظهرتها لها ذات يوم على نحو مفاجئ لأختبر رد فعل مريضتي عليها.

- حسناً؟

- حسناً. كانت النتيجة غريبة جداً وموحية. لقد تصلب جسدها كله. حدقت إلى الكرة وكأنها لا تصدق ما تراه عيناها، ثم جثت على ركبتيها أمامها وهمست ببضع كلمات... وأغمي عليها.

- غريب!

- نعم، أليس كذلك؟ والآن إلى الشيء الغريب الثاني. عندما استيقظت من غيبوبتها كانت قد نسيت الأمر كله. أظهرتُ لها كرة الكريستال وسألتها إن كانت تعرف ما هي. ردّت بأنها تظن أنها كرة كتلك التي يستخدمها العرافون. سألتها إن كانت قد رأت مثلها من قبل، فردّت قائلة: "أبداً أيها الطبيب" لكني رأيت الحيرة في عينيها، فسألتها: "ما الذي يزعجك يا سيدتي؟" فردّت قائلة: "أمر غريب جداً. لم أرَ كرة كريستال من قبل... ومع ذلك يبدو لي أنني أعرفها جيداً. هناك شيء... لو أنني أستطيع فقط أن أتذكره... بدا واضحاً أن بذلها الجهد في محاولة للتذكر كان مسألة مرهقة جداً لها، ولذلك منعتها

من الاستمرار في التفكير. كان ذلك قبل أسبوعين، وقد كنت أنتظر فرصتي الملائمة. غداً سأباشر تجربة أخرى.

- باستخدام الكريستال؟

- باستخدام الكريستال. سأجعلها تتفرس فيها، وأعتقد أن النتيجة ستكون مثيرة للاهتمام.

سألته بفضول: ما الذي تتوقع الحصول عليه؟

كانت الكلمات عادية لاهية، ولكنها أحدثت نتيجة غير متوقعة. تصلب روز واحمرّ وجهه وتغير سمته بشكل غير معقول عندما تكلم. فقد غدا سمتُه أكثر رسمية وأكثر مهنية. قال: إنني أهتم بإلقاء الضوء على أمراض عقلية معينة لم تُفهَم تمام الفهم، والسيدة ماري أنجيليك موضوع دراسة مثيرة لأشد الاهتمام.

أيعني ذلك أن اهتمام روز مجرد اهتمام مهني؟ نقطة تثير التساؤل.

سألته: هل تمانع لو جئت معك مرة أخرى؟

ربما كان ذلك محض خيال مني، ولكن يُخيل إليّ أنني لمحتُ بعض التردد منه قبل أن يجيبني. وانتابني حدس مفاجئ بأنه لم يكن يريدني.

قال: "بالتأكيد؛ لا أرى وجود أي مانع" ثم أضاف: أظن أنك لن تبقى هنا مدة طويلة، أليس كذلك؟

- حتى بعد غدٍ فقط.

أتصور أن إجابتي هذه أرضته؛ إذ انفرجت أساريره وبدأ يتحدث عن بعض التجارب الحديثة التي أجريت على الخنازير الغينية.

* * *

التقيت بالطبيب بعد ظهر اليوم التالي بناء على موعد، وذهبنا معاً إلى السيدة ماري أنجيليك. كان الطبيب هذا اليوم في منتهى الود، وحسبتُ أنه كان حريصاً على إزالة الانطباع الذي تركه بالأمس.

قال ضاحكاً: يجب ألاّ تأخذ كلامي الذي قلته على محمل الجد. لا أحب أن تحسبني من هواة العلوم الغريبة الغامضة؛ فإن أسوأ ما فيّ هو أن لديّ ضعفاً شديداً يدفعني دوماً لمحاولة إثبات وجود قضية ما.

- حقاً؟

قال: "نعم، وكلما كانت القضية غريبة أكثر كلما أحببتها أكثر ثم ضحك كرجل يضحك بسبب نقطة ضعف محببة لديه.

عندما وصلنا إلى البيت الريفي كانت الممرضة تريد استشارة روز في شيء، لذلك بقيت وحدي مع السيدة ماري أنجيليك.

رأيتها تنظر إليّ نظرة إمعان، ثم ما لبثت أن قالت: أخبرتني الممرضة الطيبة أنك أخو السيدة اللطيفة التي تسكن في البيت الكبير الذي أحضروني إليه عندما جئت من بلجيكا.

- نعم.

- كانت كريمة جداً معي؛ إنها طيبة.

سكتت وكأنها تلاحق قطار أفكارها، ثم قالت: السيد الطبيب... أهو طيب هو الآخر؟

ارتبكتُ قليلاً وقلت: نعم. أعني... أظنه كذلك.

- آه!

سكتت ثم قالت: من المؤكد أنه كان لطيفاً جداً معي.

- أنا واثق من ذلك.

رفعت بصرها إليّ بحدة وقالت: يا سيد... أنت... أنت الذي تتكلم معي الآن... هل تعتقد أنني مجنونة؟

- يا سيدتي، إن مثل هذه الفكرة لم...

هزت رأسها ببطء وهي تقاطع احتجاجي: هل أنا مجنونة؟ لا أعرف. الأشياء التي أتذكرها... الأشياء التي أنساها...

ثم تنهدَتْ، وفي تلك اللحظة دخل روز الغرفة. حيّاها بابتهاج وأوضح لها ما يريد منها فعله. قال: إن لبعض الناس موهبة في رؤية أشياء في كرة الكريستال، وأظن أنك تملكين هذه الموهبة يا سيدتي.

بدت حزينة وقالت: كلا، كلا... لا أستطيع ذلك؛ إن محاولة معرفة المستقبل لا تجوز.

فوجئ روز؛ فقد كانت تلك وجهة نظر دينية لم يحسب لها حساباً. غيّر موضوع الحديث بطريقة ذكية وقال: يجب ألاّ يركز المرء نظره على المستقبل؛ أنت محقة في ذلك. أما النظر إلى الماضي فأمر مختلف.

- الماضي؟

- نعم؛ في الماضي أشياء كثيرة غريبة: ومضات من الذكرى تعود للمرء... تُشاهَد لحظة واحدة ثم تذهب ثانية. لا تسعي لرؤية شيء في كرة الكريستال طالما أن هذا غير مسموح به بالنسبة لك، إنما خذيها في يديك وأمعني النظر إليها. انظري إليها نظرة عميقة، نعم... أكثر عمقاً... أكثر عمقاً أيضاً. هل تتذكرين؟ أنت تتذكرين. إنك تسمعينني وأنا أتحدث إليك ويمكنك الرد على أسئلتي. هل تسمعينني؟

كانت السيدة ماري أنجيليك قد أخذت كرة الكريستال كما طلب منها وحملتها بمهابة غريبة، وعندما حدقت إليها أصبحت عيناها خاليتين من التعبير وتدلى رأسها، وبدت وكأنها نائمة.

أخذ الطبيب الكرة منها بلطف ووضعها على الطاولة. ورفع طرف جفن السيدة النائمة ثم جاء وجلس بجانبي قائلاً: يجب أن ننتظر حتى تستيقظ. لن يطول ذلك كثيراً حسبما أتصور.

كان محقاً؛ فبعد انقضاء خمس دقائق تحركت السيدة ماري أنجيليك ففتحت عينيها بطريقة حالمة وقالت: أين أنا؟

- أنت هنا... في بيتك. لقد نمتِ قليلاً فحلمت، أليس كذلك؟

أومأت برأسها وقالت: بلى؛ لقد حلمت.

- هل حلمت بالكريستال؟

- نعم.

- أخبرينا عنه.

- ستعتقد أنني مجنونة يا حضرة الطبيب؛ فلقد تخيلت وجود حارس للكريستال مات من أجل الدفاع عنه، وتمت مطاردة أعوانه واضطهادهم، لكن السر بقي مَصوناً.

- نعم؟

- لمدة خمسة عشر ألف اكتمال للقمر... أقصد مدة خمسة عشر ألف عام.

- كم كانت مدة اكتمال القمر؟

- كانت ثلاثة عشر قمراً عادياً. نعم، وكنتُ أنا حارسة «العلامة الخامسة» في «بيت الكريستال» في اكتمال القمر رقم خمسة عشر ألفاً... كان ذلك في الأيام الأولى لمجيء «العلامة السادسة»!

تقطب حاجباها، وعبرت وجهها نظرة خوف، ثم تمتمت قائلة: بل أقرب بكثير... أقرب بكثير. خطأ... آه! نعم، تذكرت! «العلامة السادسة»...

ثم كادت تقفز واقفة، ولكنها سقطت ثانية وهي تمرر يدها على وجهها وتتمتم: ما الذي أقوله؟ إنني أهذي. هذه الأشياء لم تحدث أبداً.

قال الطبيب: لا تتعبي نفسك.

لكنها مضت تنظر إليه في حيرة مُعذَّبة، ثم قالت: لا أفهم يا حضرة الطبيب؛ لماذا تنتابني هذه الأحلام... هذه الخيالات؟ كنت في سن السادسة عشرة فقط عندما بدأ هذا معي. وأنا لم أسافر أبداً، ومع ذلك أحلم بالمدن وبشعوب غريبة وعادات غريبة. لماذا؟

ضغطت على رأسها بكلتا يديها، فسألها الدكتور روز: هل سبق أن خضعتِ لتنويم مغنطيسي من قبل أو كنت في حالة غيبوبة؟

- لم أخضع لأي تنويم مغنطيسي أبداً أيها الطبيب، أما بالنسبة للأمر الآخر فإنني أبقى أحياناً كالميتة لساعات طويلة. آه! نعم.

تكلم روز بصوت واقعي قائلاً: أريد أن أقوم بتجربة يا سيدتي، وقد تطرد عنك هذه الذكريات المؤلمة. سأطلب منك أن تحدقي في الكريستال مرة أخرى، ثم سأقول -عندها- كلمة معينة لك وتجيبين بكلمة أخرى، وسوف نستمر على هذه الطريقة إلى أن تتعبي. ركزي تفكيرك على الكريستال، لا على الكلمات.

وعندما كشفتُ عن كرة الكريستال ثانيةً وأعطيتها للسيدة ماري أنجيليك لاحظتُ التوقير الذي تمسكها به. كانت كرة الكريستال موضوعة على مخمل أسود وهي تحملها بين كفيها النحيلتين. وقد حدقت إلى الكرة بعينيها العميقتين الرائعتين، وتلت ذلك فترة صمت، ثم قال الطبيب: **كلب**.

وعلى الفور أجابته السيدة ماري أنجيليك: **موت**.

* * *

لا أريد إعطاء سرد كامل للتجربة، فقد ألقى الطبيب -متعمداً- كثيراً من الكلمات غير المهمة والتي لا معنى لها، كما كرر كلمات أخرى عدة مرات، وأحياناً كان يحصل على نفس الإجابة عليها وأحياناً تكون الإجابة مختلفة.

ناقشنا أنا والطبيب في ذلك المساء نتيجة التجربة في بيته الصغير على المنحدر الصخري.

تنحنح وقرّب إليه دفتر ملاحظاته وقال: هذه النتائج تثير الاهتمام كثيراً، إنها غريبة جداً. ففي ردّها على عبارة «العلامة السادسة» نحصل على ردود مختلفة مثل «تدمير»، «أرجواني»، «كلب»، «قوة»، ثم «تدمير» مرة أخرى، وأخيراً «قوة». وبعد ذلك -كما لاحظتَ- فقد عكستُ الطريقة وكانت النتائج التالية: في إجابتها على كلمة «تدمير» حصلنا على «كلب»، وعلى كلمة «أرجواني» حصلنا على «قوة»، وعلى «كلب» حصلنا على «موت» مرة أخرى، وعلى «قوة» أجابت: «كلب». هذا كله ينسجم بعضه مع بعض، ولكن عند التكرار الثاني لكلمة «تدمير» أجابت بكلمة «بحر»، وهو ما يبدو غير ذي صلة بتاتاً. وإجابةً على عبارة «العلامة الخامسة» قالت: «أزرق»، «طائر»، ثم «أزرق» مرة أخرى، وأخيراً العبارة المثيرة: «انفتاح العقل على العقل». ومن حقيقة أنها أجابت على «العلامة الرابعة» بكلمة «أصفر» ثم بعد ذلك «ضوء» وعلى «العلامة الأولى» أجابت بكلمة «دم»، فإنني أستنتج أن لكل علامة لوناً معيناً وربما رمزاً معيناً. وهذا يعني أن رمز العلامة الخامسة هو الطائر، والكلب رمز العلامة السادسة. ولكني أظن أن العلامة الخامسة تمثّل ما يُعرف بالتخاطر... أي انفتاح العقل على العقل. ولا شك أن العلامة السادسة

تعني قوة التدمير.

- وما معنى البحر؟

- أعترف أنني لا أستطيع تفسير هذا. ذكرت لها الكلمة بعد ذلك وحصلت على إجابة عادية وهي «قارب». وبالنسبة لكلمة «العلامة السابعة» حصلت أولاً على كلمة «حياة»، وفي المرة الثانية على كلمة «حب». وبالنسبة للعلامة الثامنة كانت إجابتها لا شيء، ولذلك أفهم أن مجموع عدد العلامات هو سبعة.

قلت من وحي اللحظة: لكن السابعة لم تتحقق، لأن التدمير جاء في السادسة!

- آه! أتظن ذلك؟ ولكننا نأخذ هذه الأفكار المجنونة على محمل الجد. إنها لا تثير الاهتمام إلاّ من وجهة النظر الطبية فقط.

- سوف تجذب انتباه الباحثين النفسيين دون شك.

ضاقت عينا الطبيب وقال: يا سيدي العزيز، ليست عندي نية لإعلان ذلك للناس.

- إذن ما هي مصلحتك؟

- إنها شخصية محضة؛ سأكتب ملاحظات على الحالة بالطبع.

قلت: فهمت.

ولكني أحسست لأول مرة أنني لم أفهم على الإطلاق. نهضت وقلت: حسناً، طابت ليلتك أيها الطبيب. سأعود إلى البلدة غداً.

- آه!

خُيِّل إليّ وجود شيء من الرضا، بل من الارتياح في كلمته.

أكملتُ كلامي لاهياً: أتمنى لك حظاً جيداً في تحقيقاتك. لا تطلق كلب الموت ورائي عندما نلتقي ثانية!

كانت يده تصافحني وأنا أقول ذلك، وأحسست بما سببتْه كلماتي من جفلة لديه. ولكنه استعاد ذاته بسرعة، وتكشفت شفتاه عن أسنانه المدببة الطويلة بابتسامة وقال: بالنسبة لرجل يحب القوة ماذا تعني له هذه القوة؟ أن تمسك بحياة كل إنسان داخل قبضتك!

ثم اتسعت ابتسامته.

* * *

كانت تلك نهاية علاقتي المباشرة مع القضية.

بعد ذلك وقعت في يدي مفكرة الطبيب ودفتر ملاحظاته، وسوف أظهر الملاحظات القليلة التي كانت فيها هنا رغم أنك ستدرك أنني لم أحصل عليها إلاّ بعد ذلك بوقت طويل.

السابع من آب (أغسطس): أقنعت السيدة «م. أ.» بأن أنومها. نجحت في تنويمها مغنطيسياً وإدخالها في غشية روحية، ولكن لم يحصل أي اتصال روحي.

التاسع من آب (أغسطس): أكانت توجد في الماضي حضارات لا تُعتبر حضارتنا شيئاً مقارنة بها؟ سيكون غريباً أن يكون الأمر كذلك، وسأكون أنا الرجل الوحيد الذي يملك ما يشير إلى ذلك.

الثاني عشر من آب: السيدة «م. أ.» لا تستجيب للإيحاء إطلاقاً عندما تخضع للتنويم المغنطيسي، ومع ذلك من السهل إحداث غشية لها. لا أستطيع فهمها.

الثالث عشر من آب: ذكرت السيدة «م. أ.» اليوم أنه يجب «إغلاق البوابة خشية أن يسيطر أحد آخر على الجسد». وهو أمر مثير للاهتمام، ولكنه محيّر.

الثامن عشر من آب: إذن فإن العلامة الأولى ليست إلاّ (الكلمات ممسوحة هنا) إذن كم قرناً سيستغرقه الوصول إلى العلامة السادسة؟ ولكن لو أن هناك طريقاً مختصراً إلى القوة...

العشرون من آب: رتبتُ الأمر بحيث تأتي «م. أ.» مع الممرضة، وقد أخبرتها أن من الضروري إبقاء المريضة تحت تأثير المخدر. هل أنا مجنون؟ أم أنني سأكون السوبرمان الذي بيده قوة الموت؟

(إلى هنا انتهت الملاحظات).

* * *

في اليوم التاسع والعشرين من آب (أغسطس) فيما أظن تلقيت الرسالة. كانت مرسلة إليّ بواسطة أخت زوجتي بخط أجنبي مائل. فتحتها ببعض الفضول، وكانت الرسالة كالتالي:

سيدي العزيز،

لم أرك إلاّ مرتين فقط، لكني شعرت بأن بإمكاني الوثوق بك. وسواء أكانت أحلامي حقيقية أم لا، فإنها

أخذت تزداد وضوحاً مؤخراً... ويبقى أمر واحد مؤكد رغم كل شيء، وهو أن كلب الموت ليس حلماً! ففي الأيام التي أخبرتك عنها (لا أعرف إن كانت حقيقية أم لا) فإن الذي كان حارساً للكريستال كشف «العلامة السادسة» للناس في وقت مبكر... ودخل الشر إلى قلوبهم. امتلكوا قوة الذبح وقتما يشاؤون... وقد ذبحوا دون عدالة... بدافع الغضب، وكانوا غارقين في شهوة القوة. عندما رأينا هذا، نحن الذين كنّا ما نزال أطهاراً، عرفنا أننا يجب ألاّ نكمل الدائرة ونأتي إلى «علامة الحياة الأبدية». وقد صدر الأمر إلى ذلك الذي كان من شأنه أن يكون «حارس الكريستال» التالي بالتصرف؛ وذلك بأن يموت القديم وأن يأتي الجديد بعد عصور لامتناهية، **ولذلك أطلق كلب الموت على البحر** (حرصاً كيلا تغلق الدائرة)، ونهض البحر على شكل كلب وابتلع الأرض كلها...

في مناسبة سابقة تذكرتُ ما يلي: على دَرَج مبنى المنتجع في بلجيكا...

إن الدكتور روز يعرف العلامة الأولى وشكل الثانية، رغم أن معناها مخفي عن الجميع باستثناء قلة مختارة. **سيتعلم مني العلامة السادسة**. لقد قاومته حتى الآن... لكنني أزداد ضعفاً يا سيدي، وليس جيداً أن يحصل الإنسان على القوة قبل أوانه، إذ يجب أن تنقضي عدة قرون قبل أن يصبح العالم مستعداً لتسلّم قوة الموت في يديه... أتوسل إليك يا سيد، أنت الذي تحب الخير

والحقيقة، أن تساعدني... قبل أن يفوت الأوان.

المخلصة: ماري أنجيليك

تركت الورقة تسقط. كانت الأرض الصلبة تحتي تبدو أقل صلابة من المعتاد، ثم بدأت أستجمع قوتي. لقد كاد اليقين الكامل للمرأة المسكينة أن يؤثر علي أنا! شيء واحد كان واضحاً؛ وهو أن الدكتور روز في حماسته للخروج بقضية يسيء كثيراً إلى مكانته المهنية. سأسرع و...

فجأة لاحظت رسالة من كيتي بين رسائلي الأخرى، ففتحتها. كانت تقول:

حدث شيء فظيع. أتذكُرُ بيت الدكتور روز على المنحدر الصخري؟ لقد جرفه انهيار صخري الليلةَ الماضية، وقد قُتل الطبيب وتلك المريضة المسكينة السيدة ماري أنجيليك. إن الركام على الشاطئ رهيب جداً. كله مُكوَّم على شكل كتلة غريبة... تبدو عن بعد وكأنها كلب ضخم!

سقطت الرسالة من يدي.

ربما تكون الحقائق الأخرى مجرد صدفة، فقد توفي فجأة شخص يدعى روز، واكتشفتُ أنه عمٌّ ثري للطبيب، وقد توفي في نفس الليلة أيضاً... وقيل إن صاعقة قد ضربته. ولكن الثابت أن أية عاصفة رعدية لم تحدث في المنطقة، وإن كان بعض الأشخاص قد أعلنوا أنهم سمعوا دوي الرعد. كان على جسده حرق كهربائي

«ذو شكل غريب»، وقد نصت وصيته على ترك كل ثروته لابن أخيه الدكتور روز.

حسناً! ماذا لو أن الدكتور روز نجح في معرفة سر العلامة السادسة من السيدة ماري أنجيليك؟ لقد شعرت دائماً أنه رجل لا وازع لديه، وما كان ليتردد في قتل عمه إذا تأكد أن الشبهات لن تدور حوله. ولكن جملة واحدة في رسالة السيدة ماري أنجيليك بقيت ترن في رأسي: «حرصاً كيلا تغلق الدائرة...». لعل الدكتور روز لم يأخذ بهذا الحرص... ربما لم يكن يدرك الخطوات التي عليه أن يتخذها أو هو لم يدرك أصلاً الحاجة لهذه الخطوات، ولذلك عادت القوة التي وظفها وأكملت دائرتها...

لكن هذا كله هراء بالطبع! كل شيء يمكن تفسيره بصورة طبيعية تماماً. أي أن إيمان الطبيب بهلوسات ماري أنجيليك ليس إلاّ دليلاً على أن عقله هو الآخر كان مضطرباً قليلاً.

ومع ذلك أحلم أحياناً بقارة تحت البحار عاش فيها الناس ذات مرة وبلغوا درجة من الحضارة متقدمة عنّا بكثير...

أم أن ماري أنجيليك تتذكر رجوعاً... وهو ما يقول البعض إنه ممكن. وهل تكون «مدينة الدوائر» هذه في المستقبل وليست في الماضي؟

هراء! الأمر كله لا يعدو كونه هلوسة بالطبع!

* * *

الإشارة الحمراء

فتحت السيدة إيفرسلي عينيها الخاليتين من التعبير وقالت: كم هو مثير هذا الأمر! يقولون دائماً إن النساء يملكن حاسة سادسة، أتظن ذلك صحيحاً يا سير ألينغتُن؟

ابتسم طبيب الأمراض العقلية الشهير ابتسامة ساخرة. كان يحس بازدراء لا حدود له لذلك النوع الجميل التافه من النساء، كنوع ضيفته هذه. كان ألينغتُن وست المرجع الأعلى في الأمراض العقلية، وهو يدرك تماماً موقعه وأهميته، وقد كان مغروراً قليلاً بشخصيته. قال: أعرف أن الناس يتحدثون بأشياء تافهة كثيرة يا سيدة إيفرسلي. ماذا يعني هذا الاصطلاح: الحاسة السادسة؟

- إنكم -أيها العلماء- قاسون دائماً. الحقيقة أن الطريقة التي يبدو فيها المرء واثقاً من معرفة الأشياء أحياناً طريقة غريبة؛ إذ تراه يعرفها هكذا ببساطة، ويشعر بها. أقصد أن ذلك غريب جداً. إن كلير تعرف ما أعنيه، أليس صحيحاً يا كلير؟

كانت تلك استغاثة بمضيفتها، ولكن كلير ترنت لم تردّ عليها على الفور.

كانت المناسبة حفل عشاء صغيراً أقامته كلير وزوجها جاك، وكان المدعوون هم فيوليت إيفرسلي، والسير ألينغتُن وست، وابن

أخيه ديرموت وست الذي كان صديقاً قديماً لجاك ترنت. كان جاك ترنت نفسه رجلاً ثقيل الجسم، متورد الوجه، ذا ابتسامة بهيجة وضحكة جميلة لاهية. وقد أمسك بطرف الحديث وقال: هذا هراء يا فيوليت! تُقتل أفضل صديقاتك في حادث قطار فتذكرين فوراً أنك حلمت بقطة سوداء يوم الثلاثاء الماضي... رائع. عندها تقولين إنك شعرتِ دائماً أن شيئاً كان سيحدث!

- آه، لا يا جاك! أنت تخلط الآن بين الإحساس بالنُّذُر وبين الحدس. هيا يا سير أليغتُن، يجب أن تقر بأن الإحساس بالنذر حقيقة؟

اعترف الطبيب بحذر: قد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ما، لكن الصدفة هي المسؤولة عن كثير من الأشياء، ثم هناك الميل الثابت لاختلاق غالبية القصة بعد ذلك! يجب أن تأخذي هذا بعين الاعتبار دائماً.

قالت كلير على نحو مفاجئ: لا أظن أنه يوجد شيء من قبيل النذر أو الحدس أو الحاسة السادسة أو أي من الأمور التي نتحدث عنها بكل هذه السذاجة. إننا ندخل في الحياة كقطار يندفع داخل الظلام إلى وجهة مجهولة.

قال ديرموت وست وهو يرفع رأسه ويشارك في النقاش لأول مرة: هذا ليس تشبيهاً جيداً يا سيدة ترنت.

كان في عينيه الرماديتين بريق غريب يشع ليملأ وجهه المسفوع، وأكمل قائلاً: لقد نسيتِ الإشارات.

- الإشارات؟

- نعم؛ الأخضر إن كان الأمر طبيعياً والأحمر للخطر!

قالت السيدة إيفرسلي بصوت خافت: الأحمر للخطر؟ كم هو مثير!

أدار ديرموت بصره عنها بنفاد صبر وقال: هذه مجرد طريقة لوصف اللون بالطبع. أمامك خطر، الإشارة الحمراء! احذر!

حدق جاك ترنت به مستغرباً وقال: إنك تتكلم وكأنها تجربة فعلية يا ديرموت.

- إنها كذلك... أقصد أنها كانت كذلك.

- قُصّ علينا القصة.

- يمكنني أن أعطيكم مثالاً واحداً. كنت مرة في العراق بعد الهدنة مباشرة، وقد دخلت إلى خيمتي ذات مساء وفي داخلي إحساس قوي بالخوف: خطر! احذر! ولم أعرف سبب كل هذا أبداً، فقمت بجولة حول المخيم حيث كنت قلقاً من دون ضرورة، وأخذت جميع الاحتياطات ضد هجوم من بعض الأعداء، ثم عدت إلى خيمتي. وحالما دخلت فيها انتابني نفس الإحساس ثانية، ولكن بصورة أقوى من قبل... خطر! وفي النهاية أخذت بطانية إلى الخارج فتدثرت بها ونمت هناك.

- حسناً؟

- في صباح اليوم التالي، عندما دخلت الخيمة، كان أول شيء رأيته هو آثار طعنات سكين ضخمة في سريري... تمتد لنصف متر

تقريباً، في المكان الذي كنت سأنام فيه. وفي الحال اكتشفت الأمر؛ حيث كان الفاعل واحداً من الخدم كان ابنه قد قُتل لأنه جاسوس. ماذا تقول في هذا يا عم ألينغتُن كمثال على ما أسميه إشارة الخطر الحمراء؟

ابتسم الطبيب ابتسامة لا تشي بموقف وقال: قصة مثيرة جداً يا عزيزي ديرموت.

- ولكنها ليست قصة يمكنك قبولها دون تحفظ؟

- نعم، نعم. ليس عندي شك في أنك أحسستَ بنذر الخطر كما قلتَ تماماً، ولكن ما أجادل فيه هو أصل النُذر. إنك تقول إنها جاءت من الخارج، أي إنك تأثرتَ بمصدر خارجي انطبع على عقلك. ولكننا نجد هذه الأيام أن كل شيء يأتي من الداخل، من العقل الباطن.

صاح جاك ترنت: آه، ها قد عدنا إلى تلك العبارة القديمة؛ العقل الباطن. إنها الشماعة التي نعلّق عليها كل تحليلاتنا هذه الأيام.

أكمل السير ألينغتُن حديثه غيرَ مبالٍ بالمقاطعة: أرى أن ذلك الخادم ربما فضح نفسه بنظرة أو لمحة منه. إن عقلك الواعي لم يلحظ أو يتذكر ولكن عقلك الباطن كان على غير ذلك؛ فالعقل الباطن لا ينسى أبداً. نعتقد أيضاً أنه يستطيع أن يحاكم عقلياً وأن يستنبط بشكل مستقل عن الإرادة الواعية. وهكذا رأى عقلك الباطن أن محاولة قد ترتكب لاغتيالك ونجح في فرض خوفه على إدراكك الواعي.

قال ديرموت مبتسماً: هذا يبدو مقنعاً جداً، أعترف بذلك.

قالت السيدة إيفرسلي متجهمة: ولكن ليست فيه إثارة التحليل الأول.

- من الممكن أيضاً أنك ربما كنت مدركاً بعقلك الباطن للكراهية التي يشعر بها الرجل نحوك. إن ما اعتاد الناس على تسميته في الماضي بالتخاطر موجود بالتأكيد رغم أن الظروف التي تتحكم به غير مفهومة كثيراً.

قالت كلير وهي تسأل ديرموت: هل مررتَ بأية حالات أخرى مشابهة؟

قال ديرموت: آه، نعم، ولكن أياً منها لم تكن حالة متميزة زاهية، وأظن أن كل تلك الحالات يمكن تفسيرها تحت باب الصدفة. رفضتُ دعوة لزيارة بيت في الريف ذات مرة، لا لسبب سوى لارتفاع «الإشارة الحمراء». وقد احترق البيت خلال ذلك الأسبوع. على فكرة يا عم ألينغتُن، ما علاقة العقل الباطن بهذا؟

قال ألينغتُن مبتسماً: أخشى ألاّ تكون له علاقة.

- ولكنك تملك تفسيراً جيداً مع ذلك. هيا، قله... لا داعي للإفراط في اللباقة مع أقاربك المقربين.

- حسنٌ إذن يا ابن أخي، إنني أتجرأ وأقول إنك رفضت الدعوة لسبب عادي وهو أنك لم تكن ترغب بالذهاب، وإنك بعد حدوث الحريق أوحيت إلى نفسك أنك أحسستَ بتحذير من الخطر، وهو التفسير الذي تؤمن به الآن ضمنياً.

ضحك ديرموت وقال: لن أستطيع مجاراتك، فسوف تغلبني في كل مرة.

صاحت فيوليت إيفرسلي: لا بأس يا سيد وست. إنني أصدق ضمنياً موضوع إشارتك الحمراء هذا. أكانت حادثة ما بين النهرين آخر حادثة من هذا النوع؟

- نعم، حتى...

- ماذا قلت؟

- لا شيء؟

جلس ديرموت صامتاً؛ فالكلمات التي كانت على وشك الخروج من بين شفتيه هي: "نعم، حتى هذه الليلة" لقد وصلت العبارة إلى طرف لسانه بطريقة عفوية لتعبر عن فكرة لم يكن يدركها حتى الآن، لكنه أدرك -على الفور- أن العبارة كانت صحيحة. كانت الإشارة الحمراء تُخيم بظلها فوقه في الظلام. خطر! خطر قريب!

ولكن لماذا؟ أي خطر يمكن أن يكون هنا في بيت أصدقائه؟ ولكن، نعم! كان يحس بذلك النوع من الخطر. نظر إلى كلير ترنت الناحلة ذات الشعر الذهبي... لكن ذلك الخطر كان موجوداً منذ بعض الوقت، ولم يكن مرجحاً أن يشتد لأن جاك ترنت كان أفضل أصدقائه، والأكثر من ذلك أنه كان الرجل الذي أنقذ حياته في معركة فلاندرز، وقد تمت تزكيته لنيل وسام فكتوريا لعمله هذا. إن جاك زميل رائع، بل من أفضل الأصدقاء. تباً لهذا الحظ السيئ الذي أوقعه في حب زوجة جاك. رأى أنه سيتغلب على ذلك يوماً ما؛ فلا يمكن لشيء أن يستمر في الإيذاء هكذا إلى الأبد. يمكن للمرء أن يحرم

نفسه هذا الحب حتى يموت! نعم، هذا أفضل حل... أن يُميت حبه بحرمانه، وهي لن تخمن شيئاً من أحاسيسه أبداً. وحتى لو خمّنت فعلاً، فلا يوجد خطر من اهتمامها بذلك. إنها تمثال، تمثال جميل، وليست امرأة حقيقية!

كلير... إن مجرد التفكير في اسمها ونطقه بصمت كان يؤلمه. يجب أن يتخلص من ذلك! لقد أحب نساءً من قبل، ولكن ليس هكذا، ليس هكذا! حسناً، هذا هو الحال. لا وجود للخطر. قد يوجد ألم في القلب، نعم، ولكن ليس خطراً. ليس خطر الإشارة الحمراء. كانت تلك الإشارة من أجل شيء آخر.

نظر حوله على الطاولة وخطر له، لأول مرة، أن هذا الاجتماع الصغير كان غير عادي؛ فعمه -على سبيل المثال- كان نادراً ما يتناول عشاءه في الخارج بهذه الطريقة البسيطة غير الرسمية. كما لم يكن السيد ترنت وزوجته صديقين حميمين إلى هذا الحد، فحتى هذه الليلة لم يكن ديرموت يدرك أن عمه كان يعرفهما أصلاً.

من المؤكد أن العشاء كان عذراً لكي يحضر الطبيب. نعم، كان ذلك عذراً بالتأكيد.

فرضت الكلمة نفسها على انتباهه... عذر. هل كانت دعوة العشاء مجرد عذر لجعل حضور الطبيب هذا الاجتماع أمراً طبيعياً؟ إن كان كذلك فماذا كان الهدف الحقيقي من وجوده هنا؟ تدافعت في ذهن ديرموت مجموعة من التفصيلات، وكانت في ذلك الوقت تفصيلات تافهة وغير ملاحظة أو -كما قال عمه- لم يلاحظها العقل الواعي.

كان الطبيب العظيم قد نظر إلى كلير نظرة غريبة، غريبة جداً، ولأكثر من مرة. بدا وكأنه يراقبها، وكانت هي تتململ من مراقبته. قامت ببعض الحركات المرتعشة بيديها، وكانت مرتبكة وعصبية جداً. أيمكن القول -أيضاً- إنها كانت خائفة؟ لماذا كانت خائفة؟

عاد إلى الحديث الدائر حول الطاولة. كان الرجل العظيم يتحدث إلى السيدة إيفرسلي حديثاً يقع في مجال اختصاصه. كان يقول: سيدتي العزيزة، ما هو الجنون؟ يمكنني أن أؤكد لك أننا كلما درسنا الموضوع أكثر كلما وجدنا أن الحكم عليه أصبح أكثر صعوبة. إننا نمارس كلنا مقداراً معيناً من خداع النفس، وعندما نتمادى في ذلك كثيراً (كأن يعتقد أحدنا أنه قيصر روسيا) فإنهم يسكتوننا أو يعتقلوننا. ولكن الطريق طويل قبل أن نصل إلى تلك النقطة. عند أية نقطة محددة يمكننا أن ننصب عموداً ونقول: "على هذا الجانب سلامة العقل وعلى الجانب الآخر الجنون؟" لا يمكن فعل ذلك بالطبع، وسأخبرك بما يلي: إذا حدث أن استطاع رجل يعاني من الوهم كتمان أمره فالأغلب ألاّ نكون قادرين أبداً على تمييزه عن أي شخص عادي آخر. إن العقل غير العادي لدى المجنون موضوع مثير جداً للاهتمام.

رشف السير ألينغتُن من كأسه وابتسم للجميع.

قالت السيدة إيفرسلي: أسمع دائماً أنهم ماكرون جداً... أعني المجانين.

- إنهم كذلك فعلاً، وغالباً ما يكون لكبت الأوهام تأثير خطير. كل أنواع الكبت خطيرة كما علّمنا التحليل النفسي. إن الرجلَ الذي

يعاني من غرابة غير مؤذية في أطواره، والذي يمكنه الاعتراف بهذه الغرابة وإشباعها، نادراً ما يتجاوز الحدود. ولكن الرجل...

سكت ثم أضاف: أو المرأة التي تبدو عادية جداً في كل مظاهرها ربما تكون -في الحقيقة- مصدراً كبيراً للخطر على المجتمع.

ركز بصره على كلير ثم صرفه عنها ورشف من كأسه من جديد.

هز ديرموت خوفٌ رهيب. أكان هذا ما قصده؟ أكان هذا ما يرمي إليه؟ مستحيل، ولكن...

تنهدت السيدة إيفرسلي وقالت: وكل هذا من كبت النفس. أرى أن على المرء أن يكون حريصاً جداً دائماً على... على التعبير عن شخصيته، فأخطار الخيار الآخر مخيفة.

اعترض الطبيب كلامها: يا عزيزتي إيفرسلي، لقد أسأتِ فهمي تماماً. إن سبب الأذى موجود في المادة الطبيعية للدماغ، فأحياناً ينشأ عن عامل خارجي مثل ضربة وأحياناً يكون موروثاً للأسف.

تنهدت السيدة إيفرسلي بغموض وقالت: الوراثة أمر محزن جداً... السل وكل تلك الأمراض.

قال السير ألينغتُن بجفاء: السل ليس مرضاً وراثياً.

- أحقاً؟ ظننته دوماً وراثياً. ولكن الجنون وراثي! كم هو مخيف. أي شيء آخر؟

قال السير ألينغتُن مبتسماً: النقرس وعمى الألوان... وهذا الأخير مثير للاهتمام؛ إنه ينتقل إلى الذكور مباشرة لكنه كامن في الإناث. وهكذا نجد الكثير من الرجال المصابين بعمى الألوان، أما المرأة فلا بد من أن يكون هذا المرض كامناً في أمها بالإضافة إلى وجوده في أبيها لكي تصاب به، وهو أمر نادر الحدوث. هذا ما يسمى الوراثة التي تتأثر بجنس الإنسان.

- يا له من أمر مثير للاهتمام! لكن الجنون ليس هكذا، أليس كذلك؟

قال الطبيب بهدوء: يمكن أن ينتقل الجنون إلى الرجال أو النساء على نحو سواء.

نهضت كلير فجأة ودفعت كرسيها إلى الوراء بقوة حيث انقلب ووقع على الأرض. كانت شاحبة تماماً وكانت الحركات العصبية لأصابعها واضحة جداً. قالت متوسلة: إنكم... إنكم لن تتأخروا هنا، أليس كذلك؟ فالشاي سيكون جاهزاً في الصالة بعد بضع دقائق.

قال السير ألينغتُن: "بالنسبة لي، سأكمل كأس عصيري وأكون معك على الفور" ثم انحنى مجامَلة، فابتسمت كلير ابتسامة شكر باهتة، ثم خرجت من الغرفة ويدها على كتف السيدة إيفرسلي.

قال الطبيب بعد أن جلس في مقعده ثانية: أخشى أنني قد أزعجتكم بتفصيلات مهنتي. أرجو أن تعذرني يا عزيزي.

قال جاك ترنت بلا اكتراث: أبداً.

بدا متوتراً قلقاً، وللمرة الأولى أحس ديرموت بأنه غريب برفقة صديقه. فبين هذين الرجلين، ترنت والطبيب، سر لا يستطيع الاشتراك به حتى الصديق القديم. ومع ذلك كان الأمر كله غريباً ولا يصدق. ما الذي يمتلكه من دليل على ذلك؟ لا شيء سوى نظرتين وعصبية امرأة.

أمضوا وقتاً قصيراً في استكمال شرب العصير ثم انتقلوا إلى غرفة الاستقبال عندما أُعلن عن وصول الشاي. ومضى القوم في الحديث في أمور شتى، غير أن ديرموت بقي صامتاً وقد حلق بأفكاره بعيداً. لقد أحس بوخزة في قلبه وكان مقتنعاً بوجود الخطر بطريقة أو بأخرى؛ ففي هذه الغرفة الليلة جو غريب.

وأخيراً نهض الطبيب للانصراف، فتمتمت كلير: أرجو أن تكون قد استمتعت يا سير ألينغتُن.

- أكثر الليالي متعة يا سيدتي العزيزة. أشكرك كثيراً على هذه الفرصة وأتمنى لك ليلة سعيدة.

- ألن تبقى معنا؟

- لن أفعل؛ فالقاعدة لديّ هي أن أكون في فراشي في الساعة الحادية عشرة والنصف. تصبحون على خير وطابت ليلتك يا سيدة إيفرسلي. آه! ديرموت، أريد أن أتحدث إليك قليلاً. هل يمكنك أن تأتي معي الآن؟ يمكنك الالتحاق بالآخرين فيما بعد.

- بالتأكيد يا عم. إذن سأقابلكم بعد قليل يا ترنت.

تبادل العم وابن أخيه كلمات قليلة جداً أثناء رحلة السيارة القصيرة إلى شارع هارلي. وقد اعتذر السير ألينغتُن قليلاً لأنه سحب ديرموت من المجموعة وطمأنه إلى أنه لن يؤخره سوى بضع دقائق.

سأله عندما ترجلا من السيارة: هل أبقي السيارة معك يا ولدي؟

- آه، لا تتعب نفسك يا عم؛ سآخذ سيارة أجرة.

- جيد؛ فلا أحب إبقاء تشارلسُن سهران أكثر من اللازم. طابت ليلتك يا تشارلسُن. والآن أين تراني وضعت مفتاحي؟

انطلقت السيارة مبتعدة بينما وقف السير ألينغتُن على عتبات بيته يبحث عن المفتاح داخل جيوبه عبثاً. وأخيراً قال: لا بد من أنني تركته في جيب معطفي الثاني. هل نقرع الجرس؟ أظن أن جونسُن ما زال مستيقظاً.

فتح جونسن الهادئ الباب خلال دقيقة واحدة، وأوضح له السير ألينغتُن: لقد نسيتُ أخذ مفتاحي يا جونسُن. أحضر كوبين من الشاي إلى المكتبة.

- حاضر سير ألينغتُن.

ذهب الطبيب إلى المكتبة وأشعل الأنوار، وأشار إلى ديرموت بإغلاق الباب وراءه بعد الدخول.

- لن أؤخرك كثيراً يا ديرموت، ولكن عندي شيئاً واحداً فقط

أريد قوله لك. أهو مجرد خيال مني أم أن لديك بالفعل استلطافاً معيناً (إذا صح التعبير) تجاه زوجة جاك ترنت؟

تورد وجه ديرموت وقال: إن جاك ترنت هو أفضل صديق لدي.

- اسمح لي، ولكن هذا لا يكاد يُشكّل جواباً على سؤالي. أظن أنك تعتبر آرائي بخصوص الطلاق ومثل هذه الأمور آراء متزمتة جداً، ولكن يجب أن أذكّرك بأنك قريبي الوحيد وأنك وريثي.

قال ديرموت غاضباً: لا توجد مسألة طلاق.

- بالتأكيد لا توجد، وذلك لسبب لعلي أفهمه أفضل منك. ولا يمكنني كشف ذلك السبب الآن ولكني أريد تحذيرك: إن كلير ترنت ليست لك.

واجه الشاب نظرة عمه بثبات وقال: إنني أفهم ذلك فعلاً... واسمح لي أن أقول إنني قد أفهم ذلك أكثر ممّا تظن. إنني أعرف سبب حضورك العشاء هذه الليلة.

قال الطبيب وقد بدا -بوضوح- أنه جفل: إيه؟ وكيف عرفت؟

- سمِّهِ تخميناً يا سيدي، ولكني محق عندما أقول إنك كنت هناك بصفتك المهنية، أليس كذلك؟

سار السير ألينغتُن في الغرفة جيئة وذهاباً ثم قال: إنك محق تماماً يا ديرموت. لم يكن بإمكاني إخبارك بذلك بالطبع، رغم أني أخشى أن هذا سيعلن قريباً على الملأ.

انقبض قلب ديرموت وقال: أتعني أنك... حزمتَ أمرك؟

- نعم، يوجد جنون في العائلة... من جهة الأم. حالة محزنة... حالة محزنة جداً.

- لا أستطيع تصديق ذلك يا سيدي.

- لا أستغرب ذلك؛ فبالنسبة للشخص العادي لا توجد مؤشرات واضحة على ذلك.

- وبالنسبة للخبير؟

- الدليل حاسم؛ ففي مثل هذه الحالة يجب وضع المريض تحت التحفظ في أسرع وقت ممكن.

- يا إلهي! ولكنك لا تستطيع احتجاز أي شخص دون أي شيء يدينه.

- يا عزيزي ديرموت! إن صاحب حالة كهذه لا يوضع تحت التحفظ إلاّ إذا كان بقاؤه طليقاً يشكل خطراً على المجتمع، بل خطراً شديداً. والغالب أن يتخذ ذلك شكلاً غريباً من هوس القتل. وقد كان الأمر كذلك في حالة الأم.

ابتعد ديرموت وهو يئن وقد دفن وجهه في راحتيه. كلير... كلير البريئة المسكينة!

أكمل الطبيب حديثه بارتياح: في مثل هذه الظروف أحسستُ أن من واجبي تحذيرك.

تمتم ديرموت: كلير... كلير المسكينة.

- نعم؛ يجب أن نرثي جميعاً لحالها.

رفع ديرموت رأسه فجأة وقال: لا أصدق ذلك.

- ماذا؟

- قلت إنني لا أصدق ذلك؛ فالأطباء يخطئون والكل يعرف هذا، كما أنهم يكونون متحمسين جداً وهم يتكلمون في اختصاصهم.

صرخ السير ألينغتُن غاضباً: ديرموت، يا عزيزي!

- قلت لك إنني لا أصدق هذا. وعلى أية حال، حتى لو كان الأمر كذلك فهو لا يهمني. إنني أحب كلير، وإذا قبلت أن تأتي معي فسآخذها بعيداً... بعيداً عن متناول الأطباء المتطفلين. سوف أحرسها، وأهتم بها، وأحميها بحبي.

- لن تفعل شيئاً من ذلك. أأنت مجنون؟

ضحك ديرموت ضحكة ازدراء وقال: أحسب أنك ستقول ذلك.

قال السير ألينغتُن وقد احمرّ وجهه بانفعال مكبوت: افهمني يا ديرموت، إن فعلت هذا الشيء، هذا الشيء المخزي، فستكون النهاية. سوف أوقف الراتب الذي أدفعه لك الآن، وسوف أكتب وصية جديدة وأترك كل أملاكي للمستشفيات.

قال ديرموت بصوت منخفض: افعل ما بدا لك بمالك القذر. سوف آخذ المرأة التي أحبها.

- امرأةٌ هي...

صاح ديرموت: إن قلت كلمة واحدة بحقها فأقسم بالله أني سأقتلك!

سُمع صوت خافت فاستدارا. لم يُحسّا -وهما في حمأة الشجار- بدخول جونسُن حاملاً صينية الشاي. كان وجهه هو الوجه الهادئ لأي خادم جيد، ولكن ديرموت تساءل عن مقدار ما سمعه من شجارهما.

قال السير ألينغتُن باقتضاب: هذا يكفي يا جونْسن؛ يمكنك أن تذهب إلى النوم.

قال جونسن: "شكراً لك يا سيدي، طابت ليلتك يا سيدي" ثم انسحب.

تبادل الرجلان النظرات. كانت المقاطعة القصيرة قد هدّأت العاصفة، وقال ديرموت: يا عم، ما كان عليّ أن أتحدث إليك هكذا. يمكنني أن أفهم أنك على حق تماماً من وجهة نظرك الخاصة، لكني أحب كلير منذ وقت طويل. وإن كون جاك ترنت أفضل أصدقائي هو الذي منعني حتى الآن من البوح لكلير بحبي لها، ولكن في مثل هذه الظروف لم تعد هذه الحقيقة تهم. إن فكرة أن أية أحوال مالية يمكن أن تردعني عن حبها هي فكرة سخيفة. أعتقد أن كل واحد منا قال ما عنده. طابت ليلتك.

- ديرموت...

- لا فائدة فعلاً من مواصلة الجدال. طابت ليلتك يا عم ألينغتُن. أنا آسف، ولكن هذا ما لديّ.

خرج مسرعاً وأغلق الباب وراءه. وكانت الصالة مظلمة، فمرّ منها وفتح الباب الأمامي وخرج إلى الشارع بعد أن أغلق الباب بعنف.

كانت سيارة أجرة قد أنزلت راكباً عند أحد البيوت في الشارع، فأشار ديرموت للسائق، ثم ركب السيارة وعاد إلى اجتماع المساء في بيت صديقه جاك. وعند الباب وقف متحيراً بعض الوقت ورأسه يدور، وبدا وكأنه دخل إلى عالم آخر.

أكان يحلم بهذا كله؟ مستحيل أن يكون ذلك الحديث النكد مع عمه قد حدث بالفعل. كانت كلير هناك تهيم في المكان مثل زنبقة في ثوبها الأبيض والفضي الذي يناسب نحولها كغمد السيف، وابتسمت له بوجهها الهادئ. كل شيء كان حلماً بالتأكيد.

اقتربت منه وأحس بها ترتعد قليلاً فسألها: هل أنت متعبة؟

- هل يمكننا الذهاب إلى مكان نستطيع التحدث فيه؟ أريد أن أحدّثك بأمر.

لم يكن الأمر حلماً إذن. أعادته صدمة إلى الواقع. أتراه فكر من قبل أن وجهها هادئ صاف؟ ها هو ذا وجهها مسكون بالقلق والخوف. إلى أي مدى كانت تعرف؟

وجد زاوية هادئة وجلسا جنباً إلى جنب. قال وهو يتكلف نبرة عادية غير صادقة: حسناً. أقلتِ إن لديك شيئاً تودين قوله لي؟

- نعم.

خفضت عينيها وهي تعبث بطرف ثوبها بعصبية، ثم قالت: إنه لأمر صعب... بعض الشيء.

- أخبريني يا كلير

- كل ما في الأمر هو أنني أريدك أن... أن ترحل لبعض الوقت.

أصابه الذهول؛ فقد كان هذا آخر ما توقع سماعه.

- تريدينني أن أرحل؟ لماذا؟

- الأفضل أن نكون صادقين، أليس كذلك؟ إنني... إنني أعرف أنك... أنك رجل شهم، وأنك صديقي. أريد أن ترحل لأني... لأني سمحت لنفسي أن أحبك.

- كلير!

تركته كلماتها أبكم مربوط اللسان، ومضت قائلة: أرجو ألاّ تحسب أنني من الغرور بحيث أتخيل أنك... أنك يمكن أن تقع في حبي أبداً. كل ما في الأمر أنني... أنني لست سعيدة أبداً، و... آه! أفضّل أن تذهب بعيداً.

- كلير! ألا تعرفين أنني أحببتك منذ أن التقيت بك؟

رفعت إليه عينين مذعورتين وقالت: أكنت تحبني؟ أكنت تحبني منذ وقت طويل؟

- منذ البداية.

صاحت: آه! لماذا لم تخبرني؟ وقتها؟ عندما كان بإمكاني أن آتي إليك! لماذا تقول لي هذا الآن بعد أن فات الوقت. كلا، أنا مجنونة... لا أعرف ما أقوله. ما كنتُ لأستطيع القدوم إليك أبداً.

- كلير، ماذا قصدتِ بقولك: "لقد فات الوقت الآن"؟ أهذا... أهذا بسبب عمي؟ بسبب ما يعرفه أو ما يظنه؟

أومأت بالإيجاب دون كلام والدموع تنهمر على خديها، فقال: اسمعي يا كلير، عليك ألاّ تصدقي كل هذا وألاّ تفكري فيه، وبدلاً من ذلك ستأتين معي، وسنذهب إلى البحار الجنوبية، إلى جزر كالجواهر الخضراء. ستكونين سعيدة هناك وسوف أعتني بك... سأبقيك في مأمن دائماً.

ولكنها قاطعته قائلة: آه، لا، أرجوك. ألا يمكنك أن تفهم؟ لا أستطيع ذلك الآن. سيكون بشعاً... بشعاً... بشعاً. أردتُ -دوماً- أن أكون صالحة، وهذا سوف يكون بشعاً.

تردد وقد حيرته كلماتها. نظرت إليه متوسلة وقالت: أرجوك، أريد أن أكون صالحة.

نهض ديرموت وتركها دون أن يتفوه بكلمة واحدة. في لحظته تلك لمست كلماتها مشاعره وهزته دون شك، وذهب ليأخذ قبعته ومعطفه فاصطدم بجاك ترنت.

- مرحباً يا ديرموت، أراك تذهب مبكراً.

- نعم؛ فلستُ في مزاج مناسب الليلة.

قال جاك ترنت عابساً: إنها ليلة سيئة... ولكنك لا تمتلك ما أمتلكه من هموم.

انتاب ديرموت ذعر مفاجئ من أن يكون ترنت في صدد إطلاعه على همومه. كلا... كل شيء إلاّ هذا! قال بسرعة: حسناً، وداعاً. أنا ذاهب إلى البيت.

* * *

لم تكن شقة ديرموت بعيدة. ذهب إليها مشياً وهو يشعر بحاجته إلى هواء الليل البارد ليهدئ عقله المحموم. ثم دخل الشقة مستخدماً مفتاحه، وأضاء النور في غرفة النوم.

وفجأة، وللمرة الثانية في تلك الليلة، داهمه ذلِك الإحساس الذي سمّاه الإشارة الحمراء. كان إحساساً طاغياً بحيث طرد عنه -في تلك اللحظة- حتى تفكيره في كلير.

خطر! كان في خطر. في هذه اللحظة ذاتها، وهذه الغرفة ذاتها كان في خطر!

حاول -عبثاً- أن يتخلص من الخوف بالسخرية من نفسه. ربما كانت محاولاته فاترة، فحتى الآن كانت الإشارة الحمراء قد أعطته تحذيراً في الوقت المناسب يمكنه فيه أن يتجنب الكوارث. قام بجولة

حذرة داخل الشقة وهو يبتسم من إيمانه بالخرافات. ربما استطاع مجرم أن يدخل إلى الشقة ويختبئ فيها، لكن بحثه لم يسفر عن شيء. كان خادمه ميلسون قد خرج وكانت الشقة فارغة بالتأكيد.

عاد إلى غرفة نومه وخلع ملابسه ببطء وهو يعبس، كان الإحساس بالخطر ما يزال حاداً. ذهب إلى أحد الأدراج ليخرج منديلاً، وفجأة وقف جامداً. كانت في وسط الدُرج حدبة غير مألوفة... شيء صلب.

أزاح بيده المرتبكة المناديل جانباً وأخرج الشيء الذي كان مخفياً تحتها. كان مسدساً، وتفحصه ديرموت بإمعان وهو ذاهل. كان مسدساً من طراز غريب نوعاً ما، وكان واضحاً أن طلقة واحدة فقط قد أُطلقت منه حديثاً، وما عدا ذلك لم يستطع أن يفهم أي شيء. لقد وضعه شخص في هذا الدُّرج في هذه الليلة بالتحديد. لم يكن موجوداً هنا عندما لبس ملابسه قبل ذهابه للعشاء... كان واثقاً من ذلك.

كان على وشك أن يعيده إلى مكانه في الدُّرج عندما أجفله قرع جرس الشقة. راح الجرس يُقرع ويُقرع، وبدا أعلى كثيراً من المعتاد في هدوء الشقة الخالية.

من يمكن أن يكون هذا الذي جاء إلى الشقة في هذه الساعة؟ وجاءته إجابة واحدة على هذا السؤال... إجابة غريزية ومُلحّة: خطر... خطر... خطر!

أطفأ ديرموت النور بدافع غريزة لم يفهمها، ولبس معطفاً كان

ملقى على كرسي وفتح باب الصالة. كان رجلان يقفان في الخارج، ورأى ديرموت الزي الأزرق؛ الشرطة!

سأله الرجل المتقدم منهما: السيد وست؟

بدا لديرموت أن أزمنة طويلة قد انقضت قبل أن يجيبهما، وفي الحقيقة مرت بضع ثوان فقط قبل أن يرد عليهما بصوت خال من التعبير مقلداً صوت خادمه: السيد وست لم يأتِ حتى الآن. ما الذي تريدانه منه في هذه الساعة من الليل؟

- لم يأتِ حتى الآن، إيه؟ حسناً إذن، أعتقد أنه من الأفضل أن ندخل وننتظره.

- كلا، لن تدخلوا.

- اسمع أيها الرجل، أنا المفتش فيرول من سكوتلانديارد، ومعي إذن باعتقال سيدك. يمكنك أن تراه إن شئت.

قرأ ديرموت الورقة المقدمة إليه، أو تظاهر بفعل ذلك، ثم سأل بصوت مبهور: لماذا؟ ما الذي فعله؟

- جريمة قتل، ضحيتها السير ألينغتُن وست في شارع هارلي.

تراجع ديرموت إلى الوراء وقد دار دماغه ليفتح الطريق لزواره المهيبين، ثم ذهب إلى غرفة الجلوس وأضاء النور فيما تبعه المفتش.

قال المفتش للرجل الآخر: فتش المكان.

ثم التفت إلى ديرموت وقال: ابقَ هنا يا صاحبي ولا تحاول أن تتسلل لتحذر سيدك. على فكرة، ما اسمك؟

- ميلسون، يا سيدي.

- متى تظن أن سيدك سيأتي يا ميلسون؟

- لا أعرف يا سيدي، أظنه ذهب لزيارة صديقه السيد ترنت.

- لقد غادر منزل مضيفه قبل أقل من ساعة. أأنت واثق من أنه لم يعد إلى هنا؟

- لا أعتقد يا سيدي. أحسبني كنت سأسمعه وهو داخل.

في تلك اللحظة جاء الرجل الثاني من الغرفة المجاورة وهو يحمل المسدس بيده وأعطاه إلى المفتش بشيء من الانفعال. ظهرت على وجه المفتش علامات الرضا وقال: هذا يحل المسألة. لا بد أنه دخل ثم خرج دون أن تسمعه. لقد هرب الآن... من الأفضل أن أذهب. كاولي، ابقَ هنا لتنتظره إذا عاد ثانية وراقب هذا الرجل؛ فلعله يعرف عن سيده أكثر مما يدّعي.

خرج المفتش مسرعاً، وحاول ديرموت الحصول على تفصيلات القضية من كاولي الذي كان على استعداد للحديث، حيث تبرع قائلاً: قضية واضحة جداً. تم اكتشاف جريمة القتل على الفور. كان جونسن الخادم قد صعد للنوم لتوه عندما تخيل أنه سمع صوت طلقة فنزل ثانية ليجد السير ألينغتُن ميتاً وقد اخترقت رصاصة قلبه، فاتصل بنا بالهاتف على الفور وجئنا مباشرة وسمعنا روايته.

جازف ديرموت قائلاً: وهذا يجعلها قضية واضحة جداً؟

- بلا شك. لقد جاء وست الشاب هذا مع عمه إلى البيت وكانا يتشاجران عندما أحضر جونسن لهما الشاي. كان العجوز يهدد بكتابة وصية جديدة وكان سيدك يتكلم عن قتله، وبعد ذلك بأقل من خمس دقائق سُمع صوت الرصاصة. آه! نعم، قضية واضحة تماماً. شاب أحمق.

إنها لواضحة حقاً! خفق قلب ديرموت وقد أدرك الطبيعة الكاسحة للدليل الذي يدينه. كان خطراً بالفعل... خطراً رهيباً! كما لا يوجد منفذ إلاّ بالهروب. أطلق العنان لذكائه، وسرعان ما اقترح إعداد كوب من الشاي. وافق كاولي تماماً، فقد فتش الشقة من قبل وكان يعرف أنه لا يوجد مخرج خلفي.

سمح لديرموت بأن يغادر إلى المطبخ، وفي الحال وضع الإبريق على الموقد وأسمع الشرطي رنين الأكواب والصحون، ثم انسلّ بخفة إلى النافذة وفتحها. كانت الشقة بالطابق الثاني وكان خارج النافذة مصعد سلكي صغير يستخدمه الباعة، يصعد وينزل على حبل معدني.

وبلمح البرق كان ديرموت خارج النافذة يتأرجح وهو ينزل على الحبلِ السلكي. وقد نال السلك من كفيه وجعلهما ينزفان، لكنه أكمل طريقه بإلحاح.

بعد بضع دقائق كان يخرج من خلف المجمع السكني بحذر. وعندما انعطف عند الزاوية اصطدم بشخص يقف قرب رصيف

المشاة، ولشدة دهشته ميز في ذلك الشخص صديقه جاك ترنت. وكان ترنت مدركاً تماماً لخطورة الموقف فهتف: يا إلهي! ديرموت! هيا بسرعة، لا تتسكع هنا.

أخذ بذراعه وقاده إلى شارع فرعي ثم إلى شارع آخر. وشاهدا سيارة أجرة وحيدة فأشارا إليها ثم ركباها بسرعة، وأعطى ترنت السائق عنوانه قائلاً: إنه آمنُ مكان في الوقت الحالي. هناك يمكننا أن نقرر ما سنفعله بعد ذلك حتى نضلل هؤلاء الحمقى. لقد جئتُ إلى هنا وأنا آمل أن أتمكن من تحذيرك قبل أن يصل الشرطة، ولكني وصلت متأخراً.

- لم أعرف أنك سمعت بالحادث. جاك، لا أحسبك تصدق...

- كلا بالطبع يا رفيقي القديم... ولا للحظة واحدة؛ فأنا أعرفك جيداً. ومع ذلك فموقفك صعب تماماً؛ لقد جاؤوا يسألون أسئلة: كم كانت الساعة عندما وصلت إلى البيت، متى غادرت، إلخ... ديرموت، من تُراه قتل العجوز؟

- لا يمكنني تخيل ذلك، ولكني أحسب أن مَن قتله هو الذي وضع المسدس في درجي. لابد أنه كان يراقبنا عن كثب.

قال ترنت بعد برهة: حسناً، ها قد وصلنا.

دفع الأجرة لسائق السيارة، ثم فتح الباب بمفتاحه وأرشد ديرموت لكي يصعد الدرج المظلم إلى غرفة نومه، والتي كانت غرفة صغيرة في الطابق الأول.

فتح ترنت الباب ليدخل ديرموت، ثم أضاء النور وجاء ليجلس معه قائلاً: المكان هنا آمن جداً في الوقت الحالي. والآن نستطيع أن نفكر معاً ونقرر أفضل طريقة للعمل.

قال ديرموت فجأة: لقد جعلتُ من نفسي مغفلاً؛ فقد كان يجب أن أواجه الأمر دون تهرب منه. إنني أفهم بوضوح أكثر الآن؛ إن الأمر كله مؤامرة... ما الذي تضحك منه؟

ذلك أن ترنت كان يستند إلى ظهر كرسيه وهو يهتز من الضحك المفرط. كان في صوته شيء فظيع... وفي تصرفه أيضاً شيء فظيع، وكان في عينيه بريق غريب.

قال لاهثاً: مؤامرة ذكية جداً. لقد قُضي عليك يا ديرموت!

ثم سحب الهاتف نحوه، فسأله ديرموت: ما الذي ستفعله؟

- سأتصل بالشرطة لأخبرهم أن طيرهم هنا... آمنٌ خلف باب مقفل. نعم، لقد أقفلتُ الباب بالمفتاح عندما دخلت والمفتاح موجود في جيبي. لا فائدة من أن تنظر إلى الباب الآخر ورائي؛ فذاك الباب يؤدي إلى غرفة كلير وهي تغلقه بالمفتاح من ناحيتها دائماً. إنها تخاف مني كما تعرف... إنها تخاف مني منذ وقت طويل. إنها تعرف دائماً متى أفكر في أمر تلك السكين... السكين الطويلة الحادة... كلا، توقف!

كان ديرموت على وشك أن يقذف نفسه عليه لكن الآخر أخرج مسدساً قبيح الشكل فجأة وقال ضاحكاً: هذا هو المسدس الثاني منهما. لقد وضعت الأول في دُرجك بعد أن قتلت به العجوز

وست... ما الذي تنظر إليه فوق رأسي؟ ذلك الباب؟ لا فائدة، حتى لو كانت كلير ستفتحه (وقد تفتحه لك أنت) فإنني سأطلق عليك النار قبل أن تصل إليه. ليس في القلب... وليس لقتلك، بل لجرحك فقط؛ حتى لا تستطيع الهروب. إنني رام ممتاز كما تعرف. لقد أنقذت حياتك ذات مرة؛ فقد كنت مغفلاً جداً. نعم، أريدهم أن يشنقوك... أريدهم أن يشنقوك! لم تكن السكين من أجلك أنت، بل من أجل كلير... كلير الجميلة الرقيقة. لقد عرف العجوز وست ذلك. وهذا ما جاء من أجله هذه الليلة، لكي يرى إن كنتُ مجنوناً أم لا كان يريد أن يحتجزني... حتى لا أقتل كلير بالسكين. ولكني كنت ماكراً جداً؛ فأخذت مفتاح بيته ومفتاح بيتك أنت أيضاً. وقد انسللتُ من البيت من دون أن يحس بي أحد. ورأيتك تخرج من بيته فدخلت وقتلته وهربت على الفور، ثم ذهبت إلى شقتك وتركت المسدس فيها، وعدتُ إلى بيتي ثانية في الوقت الذي وصلتَ إليه أنت تقريباً، فأعدت المفتاح إلى جيب معطفك ثانية عندما كنت أودعك. لا يهمني أن أخبرك بكل هذا؛ فلا أحد آخر يسمعنا، وعندما يتم شنقك أريدك أن تعرف أنني أنا الذي فعلتها... يا إلهي! كم يضحكني هذا الأمر! ما الذي تفكر فيه؟ ما الذي تنظر إليه؟

- كان من الأفضل لك ألاّ تأتي إلى البيت يا ترنت.

- ما الذي تقصده؟

- انظر خلفك!

التفت ترنت وراءه بسرعة. كانت كلير تقف عند مدخل باب الغرفة... ومعها المفتش فيرول!

كان جاك ترنت سريعاً. تكلم المسدس مرة واحدة فقط، وأعطى مفعوله! فقد سقط ترنت إلى الأمام على الطاولة، وقفز المفتش إلى جانبه بينما كان ديرموت يحدق في كلير حالماً. ولمعت في ذهنه الأفكار بطريقة مفككة: عمه... شجارهما... سوء التفاهم العميق... قوانين الطلاق في إنكلترا التي لم تكن لتُطلق سراح كلير أبداً من أسر زوج مجنون... "يجب أن نرثي لحالها جميعاً" المؤامرة بينها وبين السير ألينغتُن والتي أدركها جاك بمكره... صرختها له: "بشع، بشع"! نعم، أما الآن...

انتصب المفتش واقفاً وقال بغيظ: لقد مات.

سمع ديرموت نفسه يقول: نعم، كان دائماً رامياً بارعاً...

* * *

الرجل الرابع

لهث الكاهن بارفيت قليلاً ؛ إذ لم يكن الركض خلف القطارات يناسب رجلاً في مثل سنه، فجسمه لم يعد كما كان، ومع زيادة النحول في جسمه النحيل أصلاً صارت أنفاسه تميل لأن تكون أقصر. وكان الكاهن نفسه يشير إلى هذا الأمر دائماً قائلاً: "إنه القلب"

جلس في كرسي الزاوية في عربة الدرجة الأولى وهو يتنهد بارتياح. كان دفء العربة المكيفة مناسباً جداً بالنسبة له؛ فقد كان الثلج يتساقط في الخارج، ومن حُسن الحظ أن يجد المرء مقعداً في الزاوية في رحلة ليلية طويلة، أما إذا لم يجد مثل هذا المقعد فيا لبؤسه! كان يجب أن تكون في هذا القطار عربة نوم!

كانت الزوايا الثلاث الأخرى في العربة مشغولة أصلاً، ومع ملاحظة الكاهن بارفيت لهذه الحقيقة أدرك أيضاً أن الرجل الجالس في الزاوية البعيدة كان يبتسم له وكأنه يعرفه. كان رجلاً حليق اللحية ذا وجه غريب لا يخلو من مسحة الهزل، وقد بدأ شعره يشيب عند صدغيه. وكان واضحاً أن مهنته كانت في مجال القانون، بحيث لا يمكن لأحد أن يخطئها ولو للحظة واحدة... وقد كان السير جورج دوراند -بالفعل- محامياً مشهوراً جداً.

قال بلطف: حسناً يا بارفيت، لقد ركضتَ للحاق بالقطار، أليس كذلك؟

قال الكاهن: هذا يضر بقلبي كثيراً. يا لها من صدفة أن ألتقي بك يا سير جورج! أأنت موغل في سفرك شمالاً؟

قال السير جورج موجزاً: "نيوكاسيل ثم أضاف: على فكرة، هل تعرف الدكتور كامبل كلارك؟

أومأ الرجل الجالس في نفس جهة الكاهن برأسه محيياً بفرح، فيما أكمل المحامي قائلاً: لقد التقينا على الرصيف. صدفة أخرى!

نظر الكاهن بارفيت إلى الدكتور كامبل كلارك باهتمام كبير. كان قد سمع بهذا الاسم كثيراً، فقد كان الدكتور كلارك في طليعة الأطباء والأخصائيين النفسيين، وكان كتابه الأخير، «مشكلة العقل اللاواعي»، أكثر الكتب التي أثارت نقاشاً هذا العام.

رأى الكاهن بارفيت في الدكتور كلارك فكاً عريضاً وعينين زرقاوين ثابتتين وشعراً ضارباً للحمرة لم يصل الشيب إليه ولكنه يتساقط بسرعة، وأخذ انطباعاً عنه بأنه شخصية قوية جداً.

وفي ترابط طبيعي تماماً للأفكار نظر الكاهن إلى المقعد المواجه له، وهو يكاد يتوقع أن يلمح شخصاً يعرفه أيضاً، ولكن ثبت أن الراكب الرابع غريب تماماً، وخُيّل للكاهن أنه أجنبي. كان رجلاً أسمر قليلاً لا يُؤبَه لمظهره كثيراً، وبدا وكأنه نام بسرعة وهو غارق في معطف كبير.

تساءل الدكتور كامبل كلارك بصوت مرح: الكاهن بارفيت من برادشيستر؟

بدا الكاهن وكأن هذا السؤال كان إطراء له. إن تلك «الخُطب العلمية» التي ألقاها قد ذاع صيتها كثيراً بالفعل، وخصوصاً بعد أن تناقلتها الصحافة. قال: لقد قرأت كتابك باهتمام كبير يا دكتور كامبل، رغم أنه يغدو تقنياً في بعض مواضعه بحيث لا يمكنني متابعته.

تدخل دوراند وسأل: أتميل إلى الحديث أم إلى النوم يا حضرة الكاهن؟ أعترف أنني أعاني من الأرق ولذلك أؤيد الخيار الأول.

قال الكاهن: آه، بالتأكيد؛ فأنا نادراً ما أنام في هذه الرحلات الليلية، والكتاب الذي أحمله معي ممل جداً.

قال الطبيب مبتسماً: إننا نمثل جهات مختلفة في جمعنا هذا؛ الدين، والقانون، والعلم.

قال دوراند ضاحكاً: لا يوجد الكثير مما لا نستطيع إبداء الرأي فيه، أليس كذلك؟ فالكاهن لوجهة النظر الروحية، وأنا لوجهة النظر القانونية المحضة، وأنت -أيها الطبيب- أوسعنا اختصاصاً، إذ يمتد حقلك بين علم الأمراض البحتة وتفرعات الطب النفسي! وأحسب أننا نحن الثلاثة نستطيع أن نغطي أي موضوع تغطية شاملة.

قال الدكتور كلارك: ليس تغطية شاملة كما تتصور. توجد وجهة نظر أخرى أغفلتَها، وهي مهمة.

سأله المحامي: وما هي؟

- إنها وجهة نظر رجل الشارع.

- هل هذه مهمة جداً؟ أليس رجل الشارع على خطأ عادة؟

- يكاد يكون كذلك، ولكن لديه الشيء الذي ينقص كل آراء الخبراء؛ وهو وجهة النظر الشخصية. أنت لا تستطيع -في نهاية الأمر- أن تتجنب العلاقات الشخصية... لقد اكتشفت هذا في مهنتي؛ فمقابل كل مريض يأتي إليّ مريضاً فعلياً يوجد على الأقل خمسة مرضى ليس فيهم أي مرض سوى عدم قدرتهم على العيش سعداء مع الذين يعيشون معهم في نفس البيت، وهم يُطلقون على أمراضهم مختلف التسميات؛ من التهاب المفاصل إلى تشنج الأصابع الذي يصيب الكُتّاب... ولكن الحقيقة هي أن كل ذلك مظهر لمشكلة واحدة، وهي المنطقة الملتهبة الناتجة عن احتكاك العقل بالعقل.

قال الكاهن باستخفاف: أظن أن لديك كثيراً من مرضى الأعصاب.

كانت أعصابه هو رائعة، والتفت الآخر إليه بسرعة البرق قائلاً: آه! وماذا تقصد بهذا؟ أعصاب! الناس يستخدمون الكلمة ويضحكون منها (كما فعلت أنت تماماً) فيقولون: "لا يعاني فلان من شيء، مجرد أعصاب" ولكنك -أيها الرجل- قد وضعت يدك على لب المشكلة المحيرة هنا! قد تعاني من اعتلال جسدي وتبرأ منه، ولكن معرفتنا اليوم عن الأسباب الغامضة لعشرات الأشكال من الأمراض العصبية لم تزدد كثيراً عن معرفتنا أيام... أيام الملكة إليزابيث!

قال الكاهن بارفيت وقد تحير قليلاً من هذا الهجوم: يا إلهي! هل الأمر كذلك؟

أكمل الدكتور كامبل كلارك حديثه: ولكن اعلم أن ذلك علامة

رحمة. ففي الأيام السالفة كنا نعتبر الإنسان حيواناً بسيطاً؛ عبارة عن جسد ونفس، مع إيلاء الأهمية للجسد.

صحح رجل الدين العبارة: جسد ونفس وروح.

ابتسم الطبيب ابتسامة غريبة وقال: نعم، وروح. ولكن ما الذي نعرفه عن الروح بالضبط؟ نحن لم نعرف أبداً شيئاً بخصوصها.

تنحنح الكاهن استعداداً للحديث، ولكنه لم يُعطَ أية فرصة لذلك، إذ أكمل الطبيب: إنني لا أتحدث عن تقلبات الجسد، فهذه مفهومة، ولكن ما الذي يسبب تغير الأمزجة التي تسيطر عليك وتجعلك «رجلاً مختلفاً» بشكل مؤقت؟

تدخل المحامي قائلاً وكأنه يجر كلماته جراً: كلارك، يا عزيزي...

ولكن الدكتور كامبل كلارك كان قد استند بظهره إلى مقعده وبدأ حديثه بأسلوب مهني جاف: إن ما يأخذني إلى نيوكاسيل هذه الليلة هو في الواقع قضية ازدواج في الشخصية... قضية مثيرة تماماً للاهتمام. موضوع يتعلق بالعُصاب بالطبع، لكنها حالة حقيقية تماماً.

قال السير جورج دوراند متأملاً: ازدواج الشخصية؟ لا أحسبها حالة نادرة جداً، أليس كذلك؟ أعرف أن هذه المسألة قد برزت قبل أيام في قضية تُنظر أمام محكمة إثبات الوصايا والمواريث.

أومأ الدكتور كلارك برأسه وقال: إن الحالة المثالية الكلاسيكية لذلك هي حالة فيليسي بولت بالطبع. ربما سمعتما عنها؟

قال الكاهن بارفيت: بالطبع، أتذكّر أنني قرأت عنها في الصحف، ولكن هذا كان منذ وقت طويل جداً... منذ سبع سنوات على الأقل.

أومأ الدكتور كلارك وقال: صارت تلك الفتاة من أكثر الناس شهرة في فرنسا وجاء علماء من جميع أنحاء العالم لرؤيتها. لقد كان لها أكثر من أربع شخصيات مميزة، وكانت تعرف بفيليسي١، وفيليسي٢، وفيليسي٣، إلخ...

سأله السير جورج بحذر: ألم يوجد أي شك بوجود خداع متعمد؟

اعترف الطبيب قائلاً: كانت شخصيتا «فيليسي٣» و«فيليسي٤» عرضة للشك قليلاً، ولكن الحقائق الأساسية تبقى صحيحة. كانت فيليسي بولت ابنة عائلة فلاحية في مقاطعة بريتاني الفرنسية، وكانت الثالثةَ ضمن عائلة من خمسة أفراد، ابنة رجل مدمن على الشراب وامرأة مريضة عقلياً. وذات مرة عندما كان الأب ثملاً خنق الأم وتم نفيه من البلاد مدى الحياة حسبما أذكر، وكانت فيليسي في الخامسة من عمرها في ذلك الوقت. وقد تبرع بعض المحسنين بالعناية بالأطفال فنشأت فيليسي وتعلمت عند سيدة إنكليزية عانس كان عندها بيت للأطفال المهجورين. ولكن السيدة الإنكليزية لم تستطع فهم فيليس كثيراً. لقد وصفت الفتاة بأنها شديدة البطء والغباء، لم تتعلم القراءة والكتابة إلاّ بمنتهى الصعوبة، وكانت خرقاء في العمل اليدوي. وقد حاولت هذه السيدة (واسمها الآنسة سلاتر) أن تؤهل الفتاة للعمل في خدمة المنازل ووجدت لها بالفعل عدة أماكن لتعمل

بها بعد أن كبرت بالسن، لكنها لم تكن لتمكث فترة طويلة في أي مكان بسبب غبائها وكسلها الشديدين.

سكت الطبيب لحظة، ولاحظ الكاهن وهو يضع ساقاً على ساق ويشد الدثار حول جسده، لاحظ فجأة أن الرجل الجالس قبالته قد تحرك حركة خفيفة. فتح عينيه اللتين كانتا مغمضتين، وكان فيهما شيء... شيء ساخر يتعذر تحديده، مما أجفل الكاهن الوقور. بدا وكأن الرجل كان منصتاً يطيل التفكير فيما يسمعه من حديث.

ثم أكمل الطبيب: لدينا صورة أُخذت لفيليس بولت عندما كانت في سن السابعة عشرة، وهي تظهرها فتاة فلاحة فظة متينة الجسم. لم يكن في تلك الصورة ما يشير إلى أن صاحبتها ستصبح عمّا قريب من أشهر الناس في فرنسا. ولكن بعد ذلك بخمس سنين، عندما أصبحت في الثانية والعشرين من عمرها، مرضت فيليس بولت مرضاً عصبياً شديداً، وعندما شفيت بدأت تظهر عليها أعراض غريبة. وقد شهد الكثير من العلماء البارزين على الحقائق التالية: الشخصية التي تُدعى «فيليس١» لم تكن تتميز عن فيليس بولت كما كانت طوال سني عمرها؛ فكانت تكتب الفرنسية بطريقة سيئة وضعيفة ولا تتكلم أية لغة أجنبية ولم تكن تتقن العزف على البيانو. وبالمقابل، كانت «فيليس٢» تتكلم الإيطالية بطلاقة والألمانية بطريقة معقولة، وكان خطها في الكتابة مختلفاً تماماً عن خط «فيليس١» وكانت تكتب لغة فرنسية جيدة ومعبّرة، وكانت قادرة على مناقشة الموضوعات السياسية والفنية وكانت مولعة بالعزف على البيانو. أما «فيليس٣» فكانت لها عدة صفات مشتركة مع «فيليس٢». كانت ذكية ومثقفة، ولكنها كانت على العكس تماماً من الناحية الاجتماعية، وكانت

تعرف كل لغو أهل باريس وتعبيرات النساء اللاتي يعشن على هامش الطبقات العليا. وأخيراً كانت هناك «فيليس ٤»... فتاة حالمة بنصف عقل وتتمتع بقوى الاستبصار، لكن هذه الشخصية الرابعة كانت غير مقنعة كثيراً وعصية على الفهم، وكان يُعتقَد -أحياناً- أنها شخصية تنتحلها «فيليس٣» عمداً لتخدع بها البسطاء. ويمكنني القول إن كل واحدة من تلك الشخصيات (باستثناء الأخيرة) كانت شخصية مميزة ومنفصلة عن الأخرى ولا تعرف عن الشخصيات الأخرى شيئاً. كانت «فيليس٢» أكثر الشخصيات بروزاً وسيطرة بلا شك، وكانت تستمر أحياناً لأسبوعين متواصلين في المرة الواحدة، ثم تظهر بعدها « فيليس١ » فجأة ليوم أو يومين، وبعد ذلك ربما « فيليس٣» أو «٤» (لكن الأخيرتين نادراً ما كانتا تمكثان لأكثر من بضع ساعات). وكان يصاحب كل تغيير في الشخصية صداع شديد ونوم ثقيل، وفي كل حالة كان هناك فقدان كامل للذاكرة فيما يتعلق بالشخصيات الأخرى، حيث تبدأ الشخصية الجديدة بمتابعة حياتها من حيث انتهت آخر مرة، دون وعي لمرور الوقت.

تمتم الكاهن قائلاً: هذا أمر عجيب... عجيب جداً. إننا لا نكاد نعرف حتى الآن شيئاً عن عجائب هذا الكون.

قال المحامي بجفاء: نعرف أن فيه بعض المحتالين الأذكياء جداً.

قال الدكتور كامبل بسرعة: لقد حقق المحامون في قضية فيليس بولت كما حقق الأطباء والعلماء، ولعلك تذكر أن المحامي كيمبلييه قام بتحقيق معمق وشامل وأكد وجهات نظر العلماء. ومع ذلك،

لماذا نستغرب كثيراً من هذا الأمر؟ ألسنا نصادف بيضة بصفارين؟ ألا نرى توأماً لموزتين؟ فلماذا نستغرب ازدواج الروح في الجسد الواحد؟

عارضه الكاهن قائلاً: ازدواج الروح؟

التفت الدكتور كلارك بعينيه الزرقاوين الخارقتين وقال: وماذا نسمي هذا الأمر غير ذلك؟ إذا اعتبرنا الشخصية بمثابة الروح؟

قال السير جورج: شيء جيد أن مثل هذه الأمور لا تكون إلاّ شاذة، فلو كانت شائعة لنشأ عنها الكثير من التعقيدات.

وافقه الطبيب قائلاً: إن الحالة شاذة تماماً بالطبع. كان من المؤسف كثيراً عدم المضي في إجراء دراسة أكثر تفصيلاً على هذه الحالة، إذ جاءت وفاة فيليس غير المتوقعة لتضع حداً لذلك.

قال المحامي ببطء: كان في وفاتها أمر غريب إن لم تَخُنّي الذاكرة.

أومأ الدكتور كلارك برأسه موافقاً وقال: كانت أمراً لا يمكن تفسيره. وُجدت الفتاة ميتة في سريرها ذات صباح، وكان واضحاً أنها خُنقت. ولكنّ ما أذهل الجميع أنه سرعان ما ثبت بالدليل القاطع أنها خنقت نفسها عملياً؛ فالعلامات الموجودة على رقبتها كانت بفعل أصابعها نفسها. ورغم أنها ليست طريقة مستحيلة للانتحار من الناحية المادية إلاّ أنها تطلبت -بلا ريب- قوة عضلية رهيبة وقوة إرادة تكاد تكون خارقة. ولم يتم اكتشاف الدوافع التي دفعت الفتاة لهذا العمل. لا بد أن توازنها العقلي كان مختلاً دائماً بالطبع! هذا

ما حدث، وأُسدلت الستارة إلى الأبد على لغز فيليس بولت.

عند هذه النقطة ضحك الرجل الجالس في الزاوية البعيدة.

جفل الثلاثة الآخرون وكأنهم قد تعرضوا لطلق ناري. كانوا قد نسوا تماماً وجود رجل رابع بينهم، وعندما حدقوا إلى المكان الذي كان يجلس فيه وهو ما يزال متدثراً بمعطفه ضحك ثانية، ثم قال بلغة إنكليزية ممتازة رغم لكنتها الأجنبية: يجب أن تعذروني أيها السادة.

ثم اعتدل في جلسته وقد أظهر وجهاً شاحباً بشارب صغير أسود، وقال وهو ينحني لهم بشيء من السخرية: نعم؛ يجب أن تعذروني، ولكن هل قال العلم كلمته الأخيرة حقاً؟

سأله الطبيب بأدب: هل تعرف شيئاً عن القضية التي كنّا نناقشها؟

- عن القضية؟ لا، ولكني كنت أعرفها.

- فيليس بولت؟

- نعم، وأنيت رافيل أيضاً. أرى أنكم لم تسمعوا عن أنيت رافيل؟ ومع ذلك فحكاية إحداهما هي حكاية الأخرى. صدقوني أنكم لن تعرفوا شيئاً عن فيليس بولت إن لم تعرفوا أيضاً ماضي أنيت رافيل.

ثم أخرج ساعته فنظر إليها وقال: أمامنا نصف ساعة فقط قبل أن نصل إلى المحطة التالية. لديّ وقت لأخبركم فيه بالقصة... هذا

إذا كنتم مهتمين بسماعها؟

قال الطبيب بهدوء: أرجوك أن تخبرنا بها.

وقال الكاهن: يسرنا ذلك.

وجلس السير جورج دوراند في وضع انتباه تام، فيما بدأ رفيق السفر الغريب حديثه:

اسمي -أيها السادة- هو راؤول ليتاردو. لقد تحدثتم الآن عن سيدة إنكليزية هي الآنسة سلاتر المهتمة بالأعمال الخيرية. ولدتُ أنا في قرية تعيش على صيد الأسماك في مقاطعة بريتاني الفرنسية، وعندما قُتل والداي في حادث قطار كانت الآنسة سلاتر هي التي جاءت لإنقاذي وخلصتني ممّا تسمونه أنتم في إنكلترا «الإصلاحيات». كانت تقوم على رعاية نحو عشرين طفلاً من الجنسين، وبين هؤلاء الأطفال كانت فيليس بولت وأنيت رافيل. ولئن لم أستطع جعلكم تفهمون شخصية أنيت أيها السادة فلن تفهموا شيئاً. لقد كانت ابنة راقصة ماتت بمرض السل بعد أن هجرها عشيقها، وكما كانت الأم راقصة كانت لدى أنيت أيضاً رغبة بالرقص. عندما رأيتها أول مرة كان عمرها أحد عشر عاماً... فتاة نحيلة الجسم ذات عينين تتناوب عليهما السخرية الماكرة والوعود الكبيرة... كانت مخلوقة صغيرة ممتلئة بالحيوية والنشاط. وعلى الفور... نعم، على الفور، جعلتني عبداً لها. كانت تقول: "راؤول، نفّذ لي هذا الأمر"، "راؤول، اعمل لي ذاك الشيء"، وكنت أطيعها. لقد همتُ بها، وكانت تعرف ذلك.

وكنّا نذهب إلى الشاطئ نحن الثلاثة (لأن فيليس كانت تذهب

معنا) وهناك كانت أنيت تخلع حذاءها وجواربها وترقص على الرمال، وبعد ذلك عندما كانت ترتمي على الأرض لاهثة كانت تخبرنا عمّا تنوي فعله وما تريد أن تُصبح. كانت تقول: اسمعا، سأكون مشهورة. نعم، مشهورة جداً، وسيكون عندي مئات وآلاف الجوارب الحريرية، وسأعيش في شقة فارهة. وعندما أرقص ستأتي كل باريس لرؤيتي، وسوف يهتفون ويصرخون ويصيحون ويصابون بالجنون من رقصي. وفي وقت الشتاء لن أرقص، بل سأذهب إلى الجنوب حيث الشمس المشرقة. توجد بيوت جميلة في الجنوب فيها أشجار البرتقال، وسوف أشتري واحدة منها. سوف أستلقي تحت الشمس على وسائد الحرير وآكل البرتقال. وبالنسبة لك -يا راؤول- لن أنساك أبداً مهما كنتُ غنية ومشهورة، سوف أحميك وأدفعُ حياتك المهنية قدماً. أما فيليس هذه فستكون خادمتي... لا؛ ليس في يديها شيء من الرشاقة والمهارة. انظر إليهما، إلى ضخامتهما وخشونتهما.

كانت فيليس تغضب من ذلك. وكانت أنيت تستمر في إغاظتها. كأن تقول: "إن فيليس أنيقة جداً، ورائعة جداً، ومهذبة جداً، إنها أميرة متنكرة... ها، ها" وكانت فيليس تدمدم بغيظ قائلة: "لقد كان أبي وأمي متزوجين، ولم يكن والداك كذلك" فتجيبها أنيت: "نعم، وقد قتل أبوك أمك. شيء جميل أن تكوني ابنة قاتل!" فتقول لها فيليس: "لقد ترك أبوك أمك تتعفن وحدها" وكانت أنيت تفكر وتقول: "آه. نعم، أمي المسكينة. يجب أن يبقى المرء قوياً ومعافى؛ فالقوة والعافية هما كل شيء" وعندها تتباهى فيليس قائلة: "أنا قوية كالحصان"

وقد كانت كذلك بالفعل. كانت قوتها ضعف قوة أية فتاة أخرى في الدار، ولم تكن تمرض أبداً. لكنها كانت غبية، غبية جداً. وكنت أتساءل دوماً لماذا تلحق فيليس بأنيت أينما ذهبت. كانت كأنها مسحورة بها. وأظن أنها كانت تكره أنيت أحياناً، والحقيقة أن أنيت لم تكن لطيفة معها. كانت تسخر من بطء تفكيرها وغبائها وكانت تسخر منها أمام الآخرين، وكنت أرى فيليس تستشيط غضباً. كنت أحسب -أحياناً- أنها ستغرس أصابعها في رقبة أنيت وتخنقها حتى الموت. لم تكن سريعة الذكاء حتى ترد على توبيخات أنيت الساخرة، ولكنها تعلمت -مع الوقت- كيف ترد رداً واحداً ينجح في كل مرة، وكان ذلك الرد هو الإشارة إلى حالتها الصحية وقوتها. لقد عرفتْ أمراً كنتُ أعرفه دائماً؛ وهو أن أنيت تحسدها على قوتها الجسمية، فكانت تضرب على نقطة الضعف هذه عند خصمها.

وذات يوم جاءتني أنيت في حالة مرح بالغ وقالت: "راؤول، سنضحك اليوم من هذه الغبية فيليس.. سنموت من الضحك" فسألتها: "وما الذي ستفعلينه؟"، فقالت: "تعال وراء السقيفة الصغيرة وسوف أخبرك"

بدا أن يد أنيت قد وقعت على كتاب ما. كان هناك جزء منه لم تفهمه، والواقع أن الكتاب كله كان فوق مستواها، وكان أحد الأعمال القديمة حول التنويم المغنطيسي. قالت: قالوا إن على المرء استخدام شيء لامع، والكرة النحاسية فوق قائمة سريري تدور عادة. لقد جعلت فيليس تنظر إليها الليلة الماضية وقلت لها: "انظري إليها بثبات، لا تبعدي عينيك عنها"، ثم أدرتها. كنت خائفة يا راؤول. بدت عيناها غريبتين... غريبتين جداً. قلت لها: "فيليس، ستفعلين

ما أقوله لك دائماً"، فأجابتني: "سأفعل ما تقولينه دائماً يا أنيت" وبعد ذلك... وبعد ذلك قلت: "غداً ستحضرين الشمعة إلى الملعب في الساعة الثانية عشرة وتبدئين بأكلها، وإذا سألك أحد فستقولين إن هذه أفضل فطيرة ذُقتِها في حياتك" آه! راؤول، فكّر في هذا!

عارضتها قائلاً: "ولكنها لن تفعل هذا الشيء أبداً"، فقالت: الكتاب يقول هذا، رغم أنني لا أكاد أصدقه. ولكن، آه! راؤول، إذا كان الكتاب صحيحاً كله فسوف نستمتع كثيراً!

أنا أيضاً اعتقدت أن الفكرة مسلية كثيراً. أخبرنا رفاقنا عن الأمر، وفي الساعة الثانية عشرة كنّا جميعاً في الملعب، ثم خرجت فيليس في موعدها بالضبط وهي تحمل عقب شمعة بيدها. هل تصدقونني -يا سادة- إذا قلت لكم إنها بدأت تقضمها بهدوء؟ وقعنا جميعاً في حالة فظيعة من الضحك، ومن وقت لآخر كان أحد الأطفال يذهب إليها ويقول بجدية: "حسناً، ما هذا الذي تأكلينه يا فيليس؟"، وكانت ترد عليه: "نعم، إنه ألذ فطيرة تذوقتها" وأخيراً ضحكنا بصوت عال جداً بدا أنه أيقظ فيليس فأدركت ما كانت تفعله. طرفت عيناها متحيرة، ونظرت إلى الشمعة ثم إلينا، ثم وضعت يدها على جبينها وتمتمت قائلة: ما هذا الذي أفعله هنا؟

صحنا جميعاً: "إنك تأكلين الشمعة"، وصاحت أنيت وهي ترقص: "أنا جعلتك تفعلين ذلك... أنا جعلتك تفعلين ذلك"، فحدقت فيليس لحظة، ثم ذهبت إلى أنيت ببطء وقالت لها: أنت إذن من فعل ذلك... أنت التي جعلتِني مضحكة؟ يبدو أنني أتذكّر. آه! سأقتلك لهذا.

كانت تتكلم بنبرة هادئة جداً، ولكن أنيت هربت فجأة واختبأت ورائي قائلة: "أنقذني يا راؤول؛ إنني خائفة من فيليس. لقد كانت مجرد مزحة يا فيليس... مجرد مزحة"، فقالت فيليس: "لا أحب هذا المزاح. هل تفهمين؟ إنني أكرهك... إنني أكرهكم جميعاً" وفجأة انفجرت في نوبة من البكاء وأسرعت ذاهبة.

أظن أن أنيت ذُعرت نتيجة تجربتها ولم تحاول تكرارها، ولكن منذ ذلك اليوم بدا أن هيمنتها على فيليس تقوى أكثر فأكثر. وإني لأرى الآن أن فيليس كانت دائماً تكرهها، ولكنها -مع ذلك- لم تستطع البقاء بعيدة عنها. كانت دائماً تتبع أنيت أينما ذهبت كالكلب.

وبعد ذلك بوقت قريب -يا سادة- عثروا لي على وظيفة، ولم أعد آتي إلى الدار إلاّ لقضاء بعض العطل. ولم تكن أنيت جادة في أن تصبح راقصة لكنها طورت صوتها في الغناء عندما كبرت وأصبح جميلاً ووافقت الآنسة سلاتر على أن تتدرب لتصبح مغنية. لم تكن أنيت كسولة، وكانت تعمل بحماسة شديدة دون كلل، مما دفع الآنسة سلاتر إلى منعها من العمل الكثير. وقد كلمتني مرة عنها قائلة: كنتَ دائماً تحب أنيت، فأقنعها بألاّ تجهد نفسها في العمل، فقد أخذت تسعلُ في الفترة الأخيرة سعالاً لا أرتاح له.

وقد أخذني عملي بعيداً خارج الوطن بعد ذلك، وتسلمت رسالة أو رسالتين من أنيت في البداية، ولكن بعد ذلك انقطع بيننا الاتصال. وبقيت في الخارج مدة خمس سنين، وعندما عدت إلى باريس لفت انتباهي -بالصدفة المحضة- ملصق يروّج لأنيت رافيلي مع صورة لها. وعرفتها على الفور، فذهبت إلى المسرح المعني في

تلك الليلة. وقد غنّت أنيت بالفرنسية والإيطالية وكانت رائعة على خشبة المسرح، وبعد ذلك ذهبتُ إلى غرفتها فاستقبلتني على الفور وصاحت وهي تمد يدها ناحيتي: راؤول، هذا رائع. أين كنت طوال هذه السنوات؟

كنت سأخبرها، ولكنها لم تشأ الإصغاء في الحقيقة، بل قالت: "أترى، لقد أوشكتُ على الوصول إلى ما أريده تماماً" ثم لوحت بيد مزهوة حول الغرفة المليئة بباقات الزهور، فقلت لها: "لا بد من أن الآنسة سلاتر الطيبة فخورة بنجاحك"، فقالت: تلك العجوز؟ لا؛ بل كانت تريد مني الالتحاق بمعهد الموسيقى حيث غناء الكونشيرتو. ولكنني فنانة ومكاني هنا، في مسرح المنوعات، حيث أستطيع التعبير عن ذاتي.

وعندما نهضتُ كي أذهب نظرَتْ إليّ نظرة فرح وقالت هامسة: "لقد وصلتُ، أليس كذلك؟ أترى؟ الدنيا كلها أمامي ولكني سمعتُها تسعل وأنا أغادر الغرفة، وكان سعالها جافاً وحاداً. وعرفت ماذا يعنيه ذلك السعال... إنه إرثُ أمها التي كانت مصابة بالسل!

رأيتها بعد ذلك بسنتين، وكانت قد لجأت إلى الآنسة سلاتر بعد أن انهارت حياتها العملية، وكانت في حالة متقدمة من مرض السل لم يرَ الأطباء أملاً في علاجه. آه! لن أنسى تلك الحالة التي رأيتها فيها في ذلك الوقت أبداً! كانت مستلقية في ركن خاص في الحديقة حيث كانوا يبقونها خارج الدار ليلاً ونهاراً، وكان خدّاها مجوفين ومتوردين وعيناها لامعتين محمومتين، وكانت تسعل باستمرار.

حيّتني بنوع من اليأس الذي أجفلني. قالت: جميل أن أراك يا راؤول. هل تعرف ما يقولونه؟ يقولون إنني لن أشفى من مرضي. يقولون هذا من وراء ظهري، أما أمامي فيهدؤونني لأسلو. ولكن هذا ليس صحيحاً يا راؤول، ليس صحيحاً! لن أسمح لنفسي بأن أموت. أموت؟! والحياة الجميلة أمامي طويلة؟ إن ما يهم هو إرادة الحياة... جميع الأطباء العظام يقولون ذلك هذه الأيام. لست من عامة الناس الذين يذهبون هكذا. إنني أشعر أنني أفضل دون شك، أفضل بالتأكيد، هل تسمع؟

رفعت نفسها قليلاً مستندة إلى مرفقها كأنما تريد التأكد من وصول كلماتها إلى مبتغاها، ثم سقطت على ظهرها وقد هاجمتها نوبة من السعال أرهقت جسدها النحيل. قالت لاهثة: السعال... إنه لا شيء. كما أن بصق الدم لا يخيفني. سأدهش الأطباء. إن الإرادة هي الأساس، تذكّر يا راؤول، سوف أحيا.

كان ذلك محزناً، محزناً تماماً. وفي تلك اللحظة خرجت فيليس بولت تحمل صينية عليها كأس من الحليب الحار فأعطته لأنيت التي بدأت تشربه بينما راقبتها فيليس بملامح لم أستطع فهم كنهها. كان في تعبيرات وجهها شيء من الرضا والارتياح، وقد لاحظت أنيت أيضاً تلك النظرة فألقت بالكأس على الأرض غاضبة فتحطم، ثم قالت: أتراها؟ هكذا تنظر إليّ دائماً. إنها مسرورة لأنني سأموت! نعم، إنها مرتاحة من هذا. هي القوية التي تتمتع بصحة جيدة. انظر إليها؛ لم تمرض يوماً واحداً تلك الفتاة! وهذا كله لا ينفعها. ما نفع تلك الجثة الضخمة بالنسبة لها؟ ما الذي تستفيده منها؟

انحنت فيليس والتقطت شظايا الكأس وهي تقول بصوت رتيب: "لا يهمني ما تقوله. ولماذا أهتم؟ إنني فتاة محترمة، أما هي فلن تلبث أن تتلظى بنيران العذاب" فصاحت أنيت: "أنت تكرهينني. لقد كرهتِني دائماً. آه! ولكن، مع ذلك، أستطيع أن أسحرك... أستطيع جعلك تفعلين ما أريده. انظري الآن، إذا أمرتك أن تركعي على ركبتيك على العشب أمامي الآن فسوف تفعلين" قالت فيليس بتململ: "أنت سخيفة" فقالت أنيت: "نعم؛ سوف تفعلين ذلك. ستفعلين لكي ترضيني. اركعي على ركبتيك. أنا أنيت أطلب ذلك منك... على ركبتيك يا فيليس

وسواء أكان ذلك بسبب الالتماس الرائع في صوتها أم بفعل دافع أعمق، فقد أذعنت فيليس للأمر. جثت على ركبتيها ببطء وقد فردت ذراعيها بعيداً ووجهها جامد متبلد، فرفعت أنيت رأسها إلى الوراء وضحكت... ضحكة وراء ضحكة، ثم قالت: "انظر إلى وجهها الغبي. كم تبدو سخيفة! يمكنك أن تنهضي الآن يا فيليس، شكراً لك! لا فائدة من أن تعبسي في وجهي؛ فأنا سيدتك. يجب أن تفعلي ما أقوله" ثم استلقت على وسادتها مجهدة فيما أخذت فيليس الصينية وابتعدت ببطء، وبعد ذلك أدارت رأسها للوراء فأجفلني السخط المدمر في عينيها.

لم أكن هناك عندما ماتت أنيت، ولكن يبدو أن ذلك كان رهيباً؛ فقد تعلقت بالحياة وقاتلت ضد الموت كامرأة مجنونة. كانت تقول لاهثة وتكرر: لن أموت... هل تسمعونني؟ لن أموت؛ سأعيش... أعيش!

أخبرتني الآنسة سلاتر بكل هذا عندما جئت لرؤيتها بعد ذلك بستة أشهر. قالت بلطف: "يا فتاي المسكين راؤول! لقد أحببتها، أليس كذلك؟"، فقلت لها: "دائماً، دائماً. ولكن ماذا كنت سأفيدها؟ دعينا لا نتحدث عن هذا الأمر. لقد ماتت، وهي الذكية جداً والمليئة بالحيوية" وكانت الآنسة سلاتر امرأة شديدة التعاطف مع الآخرين؛ ولذا فقد واصلت حديثها عن أمور أخرى، فأخبرتني أنها قلقة جداً على فيليس. كانت الفتاة قد تعرضت لانهيار عصبي غريب، ومنذ ذلك الوقت أصبح سلوكها غريباً جداً.

قالت الآنسة سلاتر بعد تردد قصير: هل تعلم أنها تتعلم عزف البيانو؟

لم أكن أعرف هذا، وقد دهشت كثيراً عند سماعه. فيليس تتعلم عزف البيانو! قلت للآنسة سلاتر إن الفتاة لم تكن تعرف شيئاً عن الموسيقى، فأكملت: يقولون إن لديها موهبة. لا يمكنني فهمها؛ فقد كنت دائماً أعتبرها... أعتبرها... حسناً يا راؤول، أنت تعرف هذا. كانت دوماً فتاة غبية.

أومأت برأسي موافقاً فيما أضافت تقول: "إنها تكون غريبة جداً في سلوكها أحياناً... إنني لا أعرف كيف أفهمها أبداً" وبعد ذلك بدقائق معدودة ذهبتُ إلى غرفة الموسيقى حيث كانت فيليس تعزف البيانو. كانت تعزف اللحن الذي سمعت أنيت تغنيه في باريس، وتأكّدوا -يا سادتي- أن هذا فاجأني تماماً. وبعد ذلك سمعتني فتوقفت فجأة ونظرت إليّ وعيناها مليئتان بالسخرية والذكاء. وللحظات فكرتُ بأنها... حسناً، لن أخبركم بما فكرت فيه. قالت:

عجباً! أهذا أنت يا سيد راؤول؟

لا أستطيع وصف الطريقة التي قالتها بها. كانت أنيت تناديني دائماً باسم راؤول، ولكن فيليس كانت تناديني دائماً بالسيد راؤول منذ أن كبرنا. لكن الطريقة التي قالتها بها في تلك اللحظة كانت مختلفة... وقد بدت كلمة «سيد» المُشدّدة قليلاً مفرحة على نحو ما. قلت متلعثماً: عجباً يا فيليس، تبدين مختلفة تماماً اليوم.

قالت متأملة: "أحقاً؟ هذا غريب. ولكن لا تحزن يا راؤول... سأناديك راؤول قصداً. ألم نلعب معاً ونحن أطفال؟ إن الحياة خُلقت للضحك. دعنا نتحدث عن المسكينة أنيت... تلك التي ماتت ودفنت. إني لأتساءل، أهي في العذاب الآن؟" ثم همهمت بمقطع من أغنية لم يكن اللحن فيها صحيحاً تماماً، ولكن الكلمات لفتت انتباهي فصحت قائلاً: فيليس، أتتكلمين الإيطالية؟!

قالت: "ولِمَ لا يا راؤول؟ ربما لا أكون غبية بالقدر الذي أتظاهر به" ثم ضحكت من حيرتي، فبدأتُ أقول لها: "لا أفهم كيف..."، لكنها قاطعتني قائلة: "سوف أخبرك. إنني ممثلة رائعة جداً، مع أن أحداً لا يعلم ذلك. يمكنني تمثيل عدة أدوار... وتمثيلها جيداً" ثم ضحكت ثانية وخرجت من الغرفة مسرعة قبل أن أستطيع إيقافها.

ثم رأيتها ثانية قبل أن أغادر. كانت نائمة على أحد المقاعد، وكانت تشخر بصوت عال. وقفت وراقبتها مسحوراً رغم نفوري، وفجأة استيقظت جفلة والتقت عيناها الجامدتان الفاقدتان للحياة بعينيّ، فتمتمت بطريقة آلية: سيد راؤول؟

قلت: "نعم يا فيليس. أنا راحل الآن. هلاّ عزفت لي ثانية قبل أن أذهب؟"، فقالت: "أنا؟ أعزف؟! إنك تسخر مني يا سيد راؤول" قلت: "ألا تتذكرين أنك عزفت لي في ذلك الصباح؟"، فهزت رأسها بالنفي وقالت: أنا أعزف؟! كيف يمكن لفتاة مسكينة مثلي أن تعزف؟

وسكتت دقيقة وكأنها تفكر، ثم أشارت بيدها كي أقترب منها وقالت: سيد راؤول، إن أشياء غريبة تحدث في هذا البيت! إنهم يخدعونك... إنهم يغيرون الساعات. نعم، نعم... أنا واثقة مما أقوله، وهذا كله من فعلها هي.

سألتها بدهشة: "فعْل من؟"، فقالت: فعل أنيت... تلك الشريرة. عندما كانت حيّة كانت تعذبني دائماً، والآن بعد أن ماتت تعود من موتها لكي تعذبني.

حدقت إلى فيليس. يمكنني أن أفهم الآن أنها كانت في رعب شديد. كادت عيناها تبرزان من محجريهما وقالت: "إن تلك الفتاة سيئة... أقول لك إنها سيئة. إنها مستعدة لأخذ الخبز من فمك والملابس عن ظهرك والروح من بدنك..."! ثم أمسكت بي فجأة وقالت: "إنني خائفة، أقول لك إني خائفة. إنني أسمع صوتها... ليس في أذني، كلا، ليس في أذني، بل هنا؛ في رأسي!" وضربت على جبينها ثم أضافت: "سوف تأخذني بعيداً... تأخذني بعيداً تماماً، وماذا سأفعل وقتها؟ ماذا سيحدث لي؟" ارتفع صوتها بحيث كاد يكون صراخاً، وكانت في عينيها نظرة الرعب التي تتملك حيواناً متوحشاً حوصر من كل جانب، ثم ابتسمت فجأة ابتسامة فلاحة،

مليئة بالمكر، فيها شيء جعلني أرتعد، وقالت: إذا وصل الأمر إلى هذا الحد -يا سيد راؤول- فأنا قوية اليدين كثيراً... قوية جداً.

لم أكن قد تعمدتُ ملاحظة يديها تحديداً من قبل، فنظرت إليهما وارتعدت رغماً عني. أصابع قاسية غليظة وقصيرة، ومثلما قالت فيليس عنها تماماً: قوية جداً! لا أستطيع وصف الاشمئزاز الذي أصابني؛ فلا بد أن والدها قد خنق أمها بيدين كهاتين!

وكانت تلك آخر مرة رأيت فيها فيليس بولت؛ فقد سافرتُ بعد ذلك مباشرة إلى أميركا الجنوبية، ثم عدت من هناك بعد سنتين من وفاتها. وقد قرأت شيئاً عن حياتها وموتها المفاجئ في الصحف، ثم سمعت هذه الليلة تفصيلات كاملة منكم أيها السادة. وإني لأتساءل عن حقيقة «فيليس٣» و«فيليس٤»، فقد كانت ممثلة بارعة!

خفف القطار سرعته فجأة، فانتصب الرجل القابع في الزاوية في جلسته وزرّر معطفه. سأله المحامي وهو يميل إلى الأمام: ما هو رأيك؟

بدأ الكاهن مارفيت القول: "لا أكاد أصدق..."، ثم سكت.

ولم يقل الطبيب شيئاً. كان يحدق براؤول لبيارديو بثبات، واقتبس الرجل الفرنسي بلهجة لا تخلو من السخرية: "**الملابس من ظهرك. والروح من بدنك**"!

ثم وقف وقال: قلت لكم -يا سادة- إن تاريخ فيليس بولت هو تاريخ أنيت رافيل. لم تكونوا تعرفونها يا سادة، أما أنا فقد عرفتها، **ولقد كانت تحب الحياة كثيراً!**

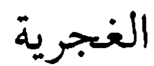
وبينما يده على الباب وهو يستعد للخروج التفت فجأة وانحنى، ثم ربّت على كتف الكاهن بارفيت قائلاً: والآن قل لي: إذا وجدت سارقاً في بيتك فماذا تفعل؟ إنك تقتله، أليس كذلك؟

صاح الكاهن: لا يمكن... أقصد، ليس في هذا البلد.

لكن كلماته لم تبلغ أذن الراكب الفرنسي؛ فقد ذهب وضرب الباب وراءه بقوة.

وعاد رجل الدين والمحامي والطبيب بمفردهم؛ إذ كانت الزاوية الرابعة خالية!

* * *


الغجرية

كثيراً ما لاحظ ماكفرلين أن صديقه ديكي كاربنتر يكره الغجر كرهاً غريباً، ولم يكن يعرف سبباً لذلك أبداً. ولكن عندما فُسخت الخطوبة بين ديكي وإيستر لوز حدث تهدم مؤقت لجدار التحفظات بين الرجلين.

كان ماكفرلين نفسه قد خطب الأخت الصغرى، راشيل، مدة عام تقريباً. وقد كان يعرف ابنتي لوز منذ أن كانتا طفلتين، ولأنه كان دوماً بطيئاً وحذراً في كل الأمور، فإنه لم يرغب بالاعتراف مع نفسه بذلك الانجذاب المتزايد الذي يكنه لوجه راشيل الطفولي ولعينيها البنيتين الصادقتين. لم يكن جمالاً كجمال أختها إيستر، ولكنه جمال أعذب وأصدق بصورة يعجز عنها الوصف. وحين خطب ديكي الأخت الكبرى بدا أن العلاقة بين الرجلين أصبحت أوثق.

والآن، بعد بضعة أسابيع، انتهت الخطوبة. وانتكس ديكي، ديكي البسيط، انتكاسة صعبة. في حياته التي سبقت ذلك كان كل شيء يجري بشكل سلس، وكانت وظيفته في سلاح البحرية اختياراً موفقاً؛ إذ كان حبه للبحر موروثاً. كان فيه شيء من بدائية وصراحة الفايكنغ... طبيعة لا تنفع معها دقائق الفكر ولطائفه. كان ينتمي لتلك الجماعة من الشباب الإنكليز غير القادرين على التعبير عن أنفسهم والكارهين لأي شكل من أشكال العاطفة، والذين يجدون صعوبة

بالغة في شرح انفعالاتهم الذهنية في كلمات.

والآن ها هو ذا ماكفرلين (ذلك الإسكتلندي الصارم النكد ذو الخيال المختبئ في مكان ما لديه) ينصت ويدخن بينما كان صديقه ديكي يتخبط في بحر من الكلمات. كان يعرف أن المكاشفة قادمة، ولكنه توقع أن يكون موضوع المكاشفة مختلفاً. فبدايةً لم تُذكر في القصة إيستر لوز، بل بدت قصة رعب طفولي فقط.

قال ديكي: بدأ كل شيء بحلم حلمته عندما كنت طفلاً. ولم يكن كابوساً بالضبط؛ فقد كانت المرأة الغجرية تظهر في أي حلم قديم... حتى الحلم الجميل، أو ما يحسبه الطفل جميلاً إذ يرى حفلة ومفرقعات وغير ذلك. كنت أستمتع إلى أقصى الحدود، ثم أشعر (بل أعرف) بأنني لو رفعت بصري فسوف تكون هناك، تقف كما كانت دائماً تقف تراقبني... بعينين حزينتين، وكأنها تعرف شيئاً لا أعرفه. لا يمكنني أن أوضح لماذا كان ذلك يقلقني كثيراً، ولكنه أقلقني فعلاً! وفي كل مرة! وكنت أستيقظ وأنا أصرخ من الرعب، وكانت مربيتي العجوز تقول: لقد داهم السيد ديكي أحد أحلامه الغجرية ثانية!

- ألم يسبق أن خفتَ من غجر حقيقيين؟

- لم أكن قد رأيتُ أحداً منهم أبداً إلى ما بعد ذلك اليوم. كان ذلك غريباً أيضاً، فقد كنت أطارد كلباً صغيراً لي كان قد هرب منّي، فخرجت من بوابة الحديقة ثم سرت في أحد طرق الغابة. كنّا، وقتَها، نعيش في منطقة «الغابة الجديدة». ووصلت أخيراً إلى منطقة مكشوفة قليلاً، وكان هناك جسر خشبي فوق نهر، وكانت

امرأة غجرية تقف إلى جانبه وعلى رأسها منديل أحمر... تماماً كما كنت أراها في حلمي. وقد خفت على الفور! نظرَتْ إليّ... نفس النظرة بالضبط، وكأنها كانت تعرف شيئاً لا أعرفه وتأسف له. ثم قالت بهدوء تام وهي تومئ لي برأسها: «**لو كنت مكانك لما ذهبت من ذلك الطريق!**». لا أستطيع تفسير ذلك، ولكن كلماتها أرعبتني لدرجة الموت، فتجاوزتها بسرعة لأعبر الجسر، وأظن أن الجسر كان بالياً، فقد انهار بي وسقط في النهر. وكان النهر يجري سريعاً جداً وكنت على وشك الغرق. أمر مخيف أن تكون على وشك الغرق... لن أنسى ذلك أبداً! وقد أحسست أن كل هذا كان له علاقة بالغجرية!

- رغم أنها حذرتك من ذلك عملياً؟

- أظن أن بوسعك أن تقول ذلك.

سكت ديكي ثم أكمل: لقد أخبرتك عن حلمي هذا ليس لأن له أية علاقة بما حدث بعد ذلك (فأنا -على الأقل- لا أظن أن ثمة علاقة) ولكن لأنه كان نقطة الانطلاق. ستفهم الآن ما أقصده بعبارة «الإحساس الغجري»، ولذلك سأحدثك عن تلك الليلة الأولى في بيت لوز. كنت قد عدت وقتها لتوي من الخارج، وكان غريباً جداً أن أعود إلى إنكلترا ثانية. كانت عائلة لوز على صلة صداقة قديمة بأهلي. ولم أكن قد رأيت الفتيات منذ أن كنت في نحو السابعة من عمري، لكن آرثر الصغير كان صديقي المقرب، وبعد وفاته كانت إيستر تكتب لي وترسل إلي الصحف إلى الخارج، وكانت تكتب رسائل رائعة جداً! كانت رسائلها تبهجني كثيراً، ولطالما تمنيتُ لو

أنني أكتب جيداً حتى أرد على رسائلها، وكنت حريصاً جداً على رؤيتها. بدا غريباً أن تعرف فتاة معرفة جيدة من خلال الرسائل وليس بطريقة أخرى. وهكذا ذهبت إلى بيت لوز مباشرة، وعندما وصلت كانت إيستر خارج البيت، ولكن عودتها كانت متوقعة تلك الليلة. جلست إلى جانب راشيل على العشاء، وعندما سرحت بنظري على المائدة الطويلة اجتاحني إحساس غريب. أحسست بأن شخصاً كان يراقبني مما جعلني متململاً، ثم رأيتها...

- رأيت مَن؟

- السيدة هاورث... التي أخبرك عنها.

كانت عبارة "ظننتُ أنك تخبرني عن إيستر لوز" على طرف لسان ماكفرلين، ولكنه بقي صامتاً، وأكمل ديكي حديثه.

- كان فيها شيء مختلف تماماً عن البقية. كانت تجلس إلى جانب العجوز لوز... تصغي إليه بجدية بالغة ورأسها مائل قليلاً. وكانت تلف حول رقبتها وشاحاً من الحرير الأحمر. أظنه كان ممزقاً، وكان طرفاه مرفوعين وراء رأسها إلى أعلى كأنهما لسانان من اللهب. قلت لراشيل: "من تكون تلك المرأة الجالسة هناك، السمراء ذات الوشاح الأحمر؟"، فأجابتني بقولها: أتقصد ألستير هاورث؟ إنها تضع وشاحاً أحمر بالفعل، ولكنها بيضاء... بيضاء جداً!

وكانت بيضاء فعلاً، وكان شعرها أصفر ذا لمعة فاتحة جميلة، ومع ذلك كان من شأني أن أُقسم أنها سمراء. غريبة تلك الخدع التي تمارسها العين مع صاحبها! وبعد العشاء عرّفتني راشيل

بها وتمشينا في الحديقة... وتحدثنا عن تناسخ الأرواح.

قال ماكفرلين: وهو موضوع خارج نطاق اهتمامك يا ديكي.

- أظن ذلك. أذكر أنني قلت إن التناسخ طريقة معقولة لتفسير الشعور الذي ينتاب المرء أحياناً بأنه يعرف أشخاصاً حالما يراهم، وكأنه قد التقى بهم من قبل. وقد ذكّرني هذا الحديث بشيء، ولكني لم أستطع تذكّره. ثم واصلنا الحديث قليلاً حتى نادانا العجوز لوز من المصطبة الخارجية قائلاً إن إيستر قد وصلت وإنها تودّ رؤيتي. وضعت السيدة هاوَرث يدها على ذراعي وقالت: "أأنت ذاهب إلى الداخل؟" قلت: "نعم"، فقالت: "أظن أن من الأفضل..."، وبعد ذلك، وبعدها...

- ماذا حدث؟

- يبدو ذلك سخيفاً؛ فقد قالت لي السيدة هاورث: "**لو كنت مكانك لما دخلت**"! لقد أخافتني كلماتها... أخافتني كثيراً. هذا هو السبب الذي حدثتك من أجله عن الحلم... لأنها قالتها بنفس الطريقة؛ بهدوء، وكأنها كانت تعرف شيئاً لا أعرفه. كان صوتها لطيفاً وفيه نبرة أسف شديد، وكأنها كانت تعرف تقريباً ماذا سيحدث! وأظنني قمتُ بتصرف فظ؛ فقد التفتُّ وتركتها وأنا أوشك أن أركض ركضاً إلى البيت. لقد بدا البيت وكأنه الأمان. وعرفت وقتها أنني كنت خائفاً منها منذ البداية، وقد ارتحت عندما رأيت العجوز لوز، وكانت إيستر هناك بجانبه.

تردد قليلاً ثم تمتم بشيء من الغموض: ولم يكن في الأمر شك؛ ففي اللحظة التي رأيتها فيها عرفت أنها أصابت مني مقتلاً!

طاف الخيال بماكفرلين إلى إيستر لوز. لقد سمع ذات مرة وصفاً موجزاً لها يقول: «فتاة طولها ستة أقدام، ذات كمال أنثوي». ورأى أن هذا الوصف قد صوّرها أفضل تصوير، فيما كان يتذكر طولها غير العادي ونحولها والبياض الرخامي لوجهها بأنفها الدقيق والألق الأسود لشعرها وعينيها. نعم، لم يعجب لوقوع ديكي ببساطته الصبيانية في حبها. أما هو فما كان لإيستر أن تزيد من نبضات قلبه هو نبضة واحدة، ولكنه اعترف بروعتها.

أكمل ديكي: وبعد ذلك تمت خطوبتنا.

- فوراً؟

- بل بعد نحو أسبوع. وقد استغرق الأمر منها نحو أسبوعين بعد ذلك حتى تكتشف أنها لم تكن تكترث بأمر الخطوبة.

ضحك ضحكة مريرة قصيرة وأكمل قائلاً: كان ذلك في الليلة الأخيرة التي سبقت عودتي إلى السفينة القديمة. كنت عائداً من القرية عبر الغابة، ثم رأيتها... أقصد السيدة هاورث. كانت تلبس قلنسوة صوفية حمراء، وقد أجفلتني تماماً! لقد أخبرتك عن حلمي، ولذلك سوف تفهم. بعد ذلك سرنا معاً قليلاً وتحدثنا في أمور شتى. وأخيراً، فيما كنت أنعطف لأعود إلى البيت أوقفتني وقالت: "ستكون في البيت بعد وقت قصير. لو كنت مكانك لما ذهبت إلى البيت بسرعة"! وعند ذلك عرفت... عرفتُ أن شيئاً سيّئاً ينتظرني هناك. وحالما دخلت البيت قابلتني إيستر وأخبرتني؛ قالت إنها اكتشفت أنها لم تكن تهتم حقيقة بعلاقتنا!

دمدم ماكفرلين متعاطفاً وسأل: والسيدة هاورث؟

- لم أرها ثانية أبداً... حتى هذه الليلة.

- هذه الليلة؟

- نعم، في عيادة الطبيب. فقد فحص الطبيب ساقي، الساق التي تأثرت منذ حادث الطوربيد. لقد أقلقتني قليلاً في الآونة الأخيرة، وقد نصحني الطبيب العجوز بإجراء عملية قائلاً إنها ستكون عملية بسيطة. وفيما كنت أغادر العيادة اصطدمتُ بفتاة تلبس سترة حمراء فوق ملابس التمريض التي تلبسها، وفجأة قالت: "**لو كنت مكانك لما أجريت تلك العملية**"! ثم أدركت أنها كانت السيدة هاورث، وقد ذهبتْ بسرعة بحيث لم أستطِع إيقافها. وقابلت ممرضة أخرى وسألتها عنها، لكنها نفت أن توجد أي ممرضة بذلك الاسم تعمل في العيادة... غريب!

- أأنت متأكد من أنها هي؟

- آه! نعم، وهي جميلة جداً في الواقع.

سكت قليلاً ثم أضاف: سوف أجري العملية بالطبع، ولكن... ولكن في حال حدوث شيء...

قلت: هراء!

- إنه هراء بالطبع، ولكن -مع ذلك- فأنا مسرور لأنني أخبرتك عن أمر هذه الغجرية. هناك المزيد من هذا، لو أنني أستطيع أن أتذكر...

* * *

صعد ماكفرلين الطريق السهلي المنحدر، ثم انعطف عند بوابة بيت قريب من قمة التل وقرع الجرس متجهماً.

- هل السيدة هاورث موجودة؟

- نعم يا سيدي، سأخبرها.

تركته الخادمة في غرفة طويلة منخفضة السقف ذات نوافذ تطل على السهول. قطب جبينه. أتراه سيجعل من نفسه أضحوكة؟

ثم جفل إذ سمع صوتاً خافتاً يغني فوق رأسه: «المرأة الغجرية... تعيش في السهول...».

انقطع الصوت، وازداد خفقان قلب ماكفرلين قليلاً، ثم فُتح الباب.

رأى المرأة، وجاءه بياضها الذي يكاد يكون إسكندنافياً صدمة له، فرغم وصف ديكي لها كان قد تصورها سمراء سمرة الغجر. وتذكر -فجأة- كلمات ديكي والنبرة الغريبة فيها عندما قال: "وهي جميلة جداً في الواقع" إن الجمال التام الذي لا شك فيه أمر نادر، وهو ما كانت ألستير هاورث تمتلكه.

تمالك نفسه وتقدم نحوها قائلاً: أخشى أنك لا تعرفينني. لقد حصلت على عنوانك من عائلة لوز. أنا صديق ديكي كاربنتر.

نظرت إليه بإمعان لبعض الوقت ثم قالت: لقد كنت في طريقي للخروج إلى السهل. هل تأتي معي؟

فتحت الباب الزجاجي بقوة وخرجت منه إلى سفح التل وهو

يتبعها. كان رجل بدين بادي الحمق يجلس على كرسي من القش ويدخن. قالت: "إنه زوجي"، ثم التفتت إليه وقالت: نحن خارجان إلى السهل يا موريس، وسوف يعود السيد ماكفرلين ليتناول الغداء معنا. ستتغدى معنا، أليس كذلك؟

قال ماكفرلين: "أشكرك كثيراً"، وتبعها وهي تصعد التل بخفة وهو يفكر في نفسه: "لماذا؟ لماذا تزوجت هذا الرجل يا ترى؟"

شقت ألستير طريقها إلى بعض الصخور ثم قالت: سنجلس هنا، وسوف تخبرني بما جئت إليّ من أجله.

- أكنت تعرفين؟

- أنا دائماً أعرف عندما توشك أمور سيئة أن تقع. إنه أمر سيئ، أليس كذلك؟ أعني ديكي.

- لقد أجرى عملية بسيطة... ناجحة تماماً. ولكن لا بد من أن قلبه كان ضعيفاً؛ فقد مات تحت التخدير.

لم يتوقع ما الذي يمكن أن يراه على وجهها، ولكنه ما كان ليتوقع نظرة السأم الأبدي الكامل تلك. وسمعها تتمتم قائلة: "مرة أخرى... أن ننتظر... إلى هذا الحد، إلى هذا الحد..."! ثم رفعت بصرها وقالت: نعم، ما الذي كنت تريد قوله؟

- أريد قول ما يلي فقط: لقد حذره شخص ما من إجراء هذه العملية. حذرته ممرضة، وكان يعتقد أنها أنت. أكُنتِ أنت؟

هزت رأسها نافية وقالت: لا؛ لستُ أنا. ولكن لي ابنة عم

ممرضة. إنها تشبهني قليلاً عندما تكون الإضاءة ضعيفة، ولعلها هي.

رفعت بصرها إليه ثانية وقالت: هذا لا يهم، أليس كذلك؟

وفجأة اتسعت عيناها، وسحبت نفساً عميقاً وقالت: آه، كم هو غريب! إنك لا تدرك...

وشعر ماكفرلين بالحيرة. كانت ما زالت تحدق إليه، ثم قالت: اعتقدت أنك قد أدركت... يجب أن تدرك. يبدو وكأنك تتمتع بها أيضاً!

- أتمتع بماذا؟

- بالموهبة، أو باللعنة... سمِّها ما تشاء. أظن أنك تملكها. انظر إلى تلك الفجوة في الصخور نظرة إمعان. لا تفكر في أي شيء، وإنما انظر فقط... آه!

لاحظت خوفه البسيط فقالت: حسناً، هل رأيت شيئاً؟

- لا بد من أن ذلك كان خيالاً. لقد رأيتُ الفجوة للحظة واحدة فقط مليئةً بالدم!

أومأت برأسها وقالت: كنتُ أعرف أنك تتمتع بها. ذلك هو المكان الذي كان يقدم فيه عبدة الشمس القدامى قرابينهم. لقد عرفت ذلك قبل أن يخبرني أحد، وأحياناً أعرف كيف كانوا يشعرون تجاه هذا الأمر... وكأنني كنت موجودة هناك تقريباً!

- أتقصدين بالموهبة القوةَ التي تجعلك قادرة على معرفة الأمور قبل حدوثها؟

- نعم؛ سواء أتعلق الأمر بالمستقبل أم بالماضي... نفس الشيء. على سبيل المثال رأيتك تعجب من زواجي بموريس. آه، نعم؛ لقد تعجبتَ من ذلك! السبب -ببساطة- أنني كنت أعرف أن شيئاً مخيفاً يُحْدِق به، وأردت إنقاذه منه. فالنساء هكذا! وبموهبتي كان يجب عليّ أن أمنع حدوث ذلك... إن كان بوسع أحد في هذا العالم أن يمنعه! لكني لم أستطع مساعدة ديكي، ولم يكن ديكي ليفهم... لقد كان خائفاً؛ كان صغيراً جداً.

- في الثانية والعشرين.

- وأنا في الثلاثين، لكني لم أقصد هذا. توجد طرق كثيرة جداً لتقسيم الأمور، حسب الطول أو الارتفاع أو العرض... ولكن التقسيم حسب الزمن هو أسوأ هذه الطرق جميعاً.

ثم سكتت طويلاً وهي تفكر بتجهم. ودق الجرس من البيت في الأسفل ليشعرهما بموعد الغداء.

وعلى الغداء راقب ماكفرلين موريس هاورث. لا شك في أنه يحب زوجته حباً جنونياً؛ فقد بدت في عينيه سعادة حبٍ مستسلم مخلص كحب الكلاب. كما لاحظ ماكفرلين -أيضاً- لطف استجابتها بما توحي به من أمومة.

وبعد الغداء نهض مودعاً وقال لها: إنني مقيم في الفندق ليوم أو يومين. أيمكنني الحضور لرؤيتك ثانية؟ غداً مثلاً.

- بالطبع. ولكن...

- ولكن ماذا؟

مسحت عينيها بيدها بسرعة وقالت: لا أعرف. إنني... إنني رأيتُ أن علينا ألاّ نلتقي ثانية. هذا كل ما في الأمر... وداعاً.

مشى في الطريق ببطء، ورغماً عنه أحس وكأن يداً باردة تلتف حول قلبه. لم يكن ذلك لشيء في كلماتها بالطبع، ولكن...

انعطفت سيارة فجأة عند الزاوية، وتراجع هو مُسنِداً ظهره إلى السياج لتجنبها، وجاءت حركته في الوقت المناسب تماماً.

زحف إلى وجهه شحوب غريب!

* * *

تمتم ماكفرلين عندما استيقظ صبيحة اليوم التالي: يا إلهي! إن أعصابي في حالة مزرية.

استعرض -بموضوعية- الأحداث التي جرت له عصر أمس. السيارة، الطريق المختصر إلى الفندق والضباب المفاجئ الذي جعله يضل الطريق مع علمه بوجود مستنقع خطير لم يكن بعيداً عنه كثيراً، ثم أنبوب المدخنة الذي سقط عن سطح الفندق، ورائحة الاحتراق في الليل التي تتبّعها ليجد أنها بقية جمرة على السجادة أمام مدفأته. وما كان لذلك كله أن يعني شيئاً، لم يكن ليعني شيئاً أبداً... لولا كلماتها، ولولا ما يستقر في قلبه من يقين عميق لا يريد الاعتراف به من أنها عرفت!

ألقى عنه ثياب نومه بنشاط مفاجئ. لا بد من أن يذهب ويراها قبل كل شيء. من شأن هذا أن يفك السحر عنه، هذا إن وصل إلى هناك بأمان! يا الله، يا له من مغفل!

تناول القليل من طعام الإفطار، وفي الساعة العاشرة انطلق في الطريق. وفي العاشرة والنصف كانت يده على الجرس، وعندها فقط سمح لنفسه بأن يتنهد بارتياح.

- هل السيدة هاورث موجودة؟

كانت هي نفس المرأة العجوز التي فتحت له الباب من قبل، لكن وجهها كان مختلفاً... مليئاً بالحزن. قالت بانفعال: آه، يا سيدي، آه! ألم تسمع إذن يا سيدي؟

- أسمع ماذا؟

- السيدة هاورث، الوديعة الجميلة! والسبب دواؤها الذي تتناوله كل ليلة. الكابتن المسكين في حالة يُرثى لها ويكاد يكون مجنوناً. لقد تناول الزجاجة الخطأ عن الرف في الظلام وأعطاها لزوجته المسكينة... وقد أرسلوا في طلب الطبيب، ولكن الوقت كان قد فات!

وبسرعة تذكر ماكفرلين الكلمات: "كنت أعرف أن شيئاً مخيفاً يُحْدِق به، وبموهبتي كان يجب عليّ أن أمنع حدوث ذلك... إن كان بوسع أحد في هذا العالم أن يمنعه"

آه! ولكن المرء لا يستطيع مصادمة القدر. وإنه لقدر محتوم غريب لهذه الرؤية التي قادت إلى الموت في الوقت الذي كانت تسعى فيه إلى الإنقاذ!

أكملت الخادمة العجوز قائلة: "سيدتي الجميلة! لقد كانت لطيفة ورائعة إلى أقصى الحدود" وترددت ثم أضافت: أتحب أن

تصعد لرؤيتها يا سيدي؟ أحسب -مما سمعته منها- أنك تعرفها منذ وقت طويل، منذ وقت طويل جداً.

تبع ماكفرلين المرأة العجوز على الدرج إلى غرفة تعلو غرفة الاستقبال حيث كان قد سمع الصوت الذي يغني بالأمس. كان الزجاج ملوناً في أعلى النوافذ، مما ألقى ضوءاً أحمر عند رأس السرير. **غجرية بمنديل أحمر فوق رأسها**... هراء، كانت أعصابه تخدعه وتوحي إليه بالتصورات.

وألقى على ألستير هاورث النظرة الأخيرة الطويلة.

* * *

- هنا سيدة تودّ رؤيتك يا سيدي.

نظر ماكفرلين إلى صاحبة الفندق شارد الذهن: ماذا؟ آه، اعذريني يا سيدة راوز؛ فقد كنت أرى أشباحاً مؤخراً!

- لا أحسبك جاداً يا سيدي؟ أعرف أن هناك أشياء غريبة قد يراها الناس في السهول بعد حلول الظلام. هناك السيدة البيضاء، والحصان الطائر، والبحّار والغجرية...

- ما هذا؟ بحّار وغجرية؟!

- هكذا يقولون يا سيدي، وقد كانت هذه حكاية شائعة جداً أيام صباي. كان كل منهما يحب الآخر حباً شديداً منذ مدة طويلة طويلة... ولكنهما توقفا عن الظهور في السهول منذ زمن بعيد.

- حقاً؟ أتساءل إن كانا سيظهران الآن مرة أخرى.

- يا إلهي! ماذا تقول يا سيدي؟ حسناً، ماذا بخصوص تلك الشابة؟

- أية شابة؟

- التي تنتظر رؤيتك. إنها في الردهة، وقد قالت إن اسمها الآنسة لوز.

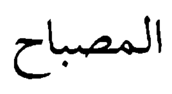
- آه!

راشيل! أحس بشعور غريب نتيجة تغير المشهد أمام عينيه. لقد كان ينظر من خلال فتحة صغيرة إلى عالم آخر، وقد نسي راشيل لأن راشيل تنتمي إلى هذه الحياة فقط! ولكن -في تلك اللحظة- تغير منظور ذلك المشهد تغيراً غريباً وعاد إلى عالم ذي أبعاد ثلاثة فقط.

فتح باب الردهة. راشيل، بعينيها البنيتين الصادقتين. وفجأة، وكرجل يستيقظ من حلم، اجتاحته الحقيقة الدافئة السعيدة. لقد كان حيّاً... حيّاً! وفكر في نفسه: توجد فقط حياة واحدة يمكن للمرء أن يكون أكيداً من وجودها؛ إنها هذه الحياة!

أنعم النظر إلى راشيل، ثم اندفع إليها بحنان.

* * *


المصباح

كان بيتاً قديماً بغير شك. كانت المنطقة كلها قديمة، لها عبق التاريخ الماضي المبجل الذي يوجد دائماً في تلك البلدات الأثرية، لكن البيت رقم ١٩ كان يعطي انطباعاً بأنه الأقدم بين البيوت القديمة. كان فيه وقار تسلطي حقيقي، وكان ضمن البيوت الرمادية أكثرَها رماديةً، وضمن البيوت المتشامخة أكثرَها تشامخاً، وضمن البيوت الباردة أكثرَها برودة. كان قاتماً ومنفّراً وموسوماً بذلك الطابع من الكآبة التي تطغى على جميع البيوت المقفرة غير المسكونة منذ فترة طويلة. لقد أُشير إلى هذا البيت -على الدوام- على أنه بيت مسكون بالأرواح، وبقي سنة بعد أخرى معروضاً «للإيجار أو البيع».

نظرت السيدة لانكاستر إلى البيت نظرة استحسان وهي تقترب منه بسيارتها بصحبة وكيل البيت الثرثار، الذي كان مزاجه شديد المرح لأنه سيحذف البيت ١٩ من سجلاته. أدخل المفتاح في الباب دون أن يوقف ملاحظاته الدعائية، فسألته السيدة لانكاستر وهي تسارع لتقطع عليه إسهابه في الحديث: كم مر على البيت وهو فارغ؟

ارتبك الوكيل ثم قال بلطف: آآ... منذ بعض الوقت.

قالت السيدة لانكاستر بجفاء: هذا ما يبدو عليه.

كانت الصالة ذات الإضاءة الخافتة قارصة البرد، وكان من شأن امرأة أخصب خيالاً أن ترتعد، ولكن هذه المرأة كانت عملية إلى أبعد حد. كانت طويلة ذات شعر بني داكن تخلله بعض الشيب وعينين زرقاوين باردتين. عاينت البيت من العُلّيّة حتى القبو وهي تسأل أسئلة تتعلق بالبيت من وقت لآخر، وبعد أن انتهت المعاينة عادت إلى إحدى الغرف الأمامية التي تطل على الساحة وواجهت الوكيل بحزم قائلة: ما هي مشكلة هذا البيت؟

فوجئ السيد راديش، الوكيل، من السؤال. ولكنه تفادى الإجابة المباشرة وقال: إن أي بيت غير مؤثث يكون كئيباً بعض الشيء.

- هراء! إن الأجرة منخفضة جداً بالنسبة لمثل هذا البيت، بل تكاد تكون رمزية. لا بد أن لهذا سبباً. أحسب أن البيت مسكون بالأشباح؟

بدت على السيد راديش جفلة ارتباك بسيطة، ولكنه لم يتفوه بكلمة.

نظرت السيدة لانكاستر إليه بإمعان، وبعد بضع لحظات تحدثت ثانية: هذا كله هراء بالطبع؛ فأنا لا أؤمن بالأشباح أو بأي شيء من هذا القبيل. وهذا لا يمنعني شخصياً من أخذ البيت، ولكن الخدم سذّج لسوء الحظ وهم يخافون بسهولة. سيكون لطفاً منك لو أخبرتني ما هو هذا الشيء بالضبط... الشيء الذي يُفترض أنه يسكن هذا المكان.

تلعثم وكيل البيت وقال: ممم... إنني -في الحقيقة- لا أعرف.

قالت السيدة بهدوء: أنا متأكدة من أنك تعرف. لا أستطيع أخذ البيت من دون أن أعرف. ماذا كان الأمر؟ جريمة قتل؟

صاح السيد راديش وقد صدمه وجود فكرة غريبة إلى هذه الدرجة مع ما تتمتع به المنطقة من احترام: آه! لا؛ إنه... إنه مجرد طفل فقط.

- طفل؟

قال: "نعم" ثم أكمل حديثه متردداً: لا أعرف القصة بالضبط. لقد ترددتْ روايات مختلفة من كل نوع، ولكني أحسب أن رجلاً يُدعى وليامز اشترى البيت قبل نحو ثلاثين عاماً. ولم يُعرف عنه شيء؛ فلم يكن عنده خدم ولم يكن له أصدقاء، ونادراً ما كان يخرج أثناء النهار. كان عنده طفل واحد، صبي صغير. وبعد نحو شهرين من إقامته هنا ذهب إلى لندن، ولم يكد يضع قدميه في المدينة حتى تم التعرف عليه باعتباره مطلوباً للشرطة بسبب تهمة ما. لا أعرف ماذا كانت التهمة بالضبط، ولكن لا بد من أنها كانت تهمة خطيرة؛ لأنه سارع إلى إطلاق النار على نفسه بدلاً من تسليم نفسه إلى الشرطة. وبعد ذلك عاش الطفل هنا وحيداً في البيت. كان الطعام سيكفيه فترة قصيرة فقط، وقد انتظر عودة أبيه يوماً بعد يوم، ولسوء الحظ كان قد تلقى تعليمات بعدم الخروج من البيت أو الحديث مع أي شخص تحت أي ظرف كان. كان طفلاً ضعيفاً ومريضاً، ولم يكن

ليفكر في عصيان هذا الأمر. وفي الليل كان الجيران كثيراً ما يسمعونه يبكي في الوحشة القاسية والبيت المقفر وهم لا يعلمون أن والده كان قد ذهب.

سكت السيد راديش قليلاً ثم قال: ثم... مات الطفل جوعاً.

قالها بأسلوب من يقول إن السماء بدأت تُمطر. فسألته السيدة لانكاستر: وشبح الطفل هو الذي يُفترض أنه يسكن البيت، أليس كذلك؟

أسرع السيد راديش يطمئنها: لا يوجد شيء مهم في الحقيقة. لم يُشاهَد أي شيء! ليس مشاهدة... ولكنه كلام الناس فحسب، وهو سخيف بالطبع. ولكنهم يقولون إنهم يسمعون الطفل وهو يبكي.

تحركت السيدة لانكاستر إلى الباب الأمامي وقالت: لقد أعجبني البيت كثيراً، ولن أحصل على شيء أحسن منه من حيث السعر. سأفكر في الأمر وأبلغك.

* * *

- إنه يبدو مبهجاً يا أبي، أليس كذلك؟

نظرت السيدة لانكاستر إلى بيتها الجديد باستحسان: سجّاد زاه، وأثاث لامع نظيف، والكثير من التحفيات الصغيرة اجتمعت كلها لتغير المظهر الكئيب للبيت رقم ١٩

كانت تتحدث مع رجل نحيل محني الظهر مقوس الكتفين ذي وجه صاف رقيق. ولم يكن السيد وينبيرن يشبه ابنته، والحقيقة أنه

ما كان للمرء أن يتخيل بينهما تناقضاً أكبر من ذلك التناقض الذي يمثله سلوكها العملي الحازم مقابل شرود ذهنه الحالم.

أجابها مبتسماً: بلى؛ ما كان لأحد أن يصدق أن البيت كان مسكوناً بالأرواح.

- أبي! لا تتكلم بمثل هذا الهراء... وفي أول يوم لنا هنا!

ابتسم السيد وينبيرن وقال: حسناً يا عزيزتي؛ سنتفق على عدم وجود أشياء من قبيل الأشباح.

- كما أنني أرجوك ألاّ تتفوه بكلمة واحدة أمام جيفري. إنه ميّال إلى التخيّل.

كان جيفري ابن السيدة لانكاستر الصغير، وكانت العائلة تتكون من السيد وينبيرن وابنته الأرملة وجيفري.

بدأ المطر يتساقط ويضرب النافذة: تيك، تاك... تيك، تاك...

قال السيد وينبيرن: أنصتي، أليست مثل وقع أقدام؟

قالت السيدة لانكاستر وهي تبتسم: بل هو أقرب لصوت المطر.

صاح أبوها وهو يصغي بانتباه: ولكن ذلك... ذلك وقع قدم!

- ضحكت السيدة لانكاستر بأعلى صوتها، وأُرغم السيد وينبيرن على الضحك أيضاً. كانا يشربان الشاي في الصالة وكان يجلس مولياً

ظهره للدرج، وفي تلك اللحظة أدار كرسيه ليواجهه.

كان جيفري ينزل الدرج ببطء وسكينة، وبخشية الطفل من مكان غريب. كان الدرج من خشب البلوط اللامع غير المكسو بالسجاد، وجاء الصبي ووقف بجانب والدته. ولكن السيد وينبيرن جفل قليلاً؛ فعندما كان الطفل يعبر الصالة سمع -بوضوح- وقع أقدام أخرى على الدرج، وكأن شخصاً يتبع جيفري! كانت أقداماً تجر نفسها، مؤلمة على نحو غريب... ثم رفع كتفيه غير مصدق وفكر قائلاً لنفسه: لا شك أنه المطر!

قال جيفري وكأنه يوضح حقيقة مثيرة: إنني أنظر إلى الكعكة الإسفنجية.

سارعت أمه لتستجيب إلى هذا التلميح: حسناً يا بني، هل أعجبك بيتك الجديد؟

ردّ جيفري وفمه ممتلئ: كثيراً، كثيراً جداً.

وبعد هذا التأكيد (الذي بدا واضحاً أنه يعبر عن عميق رضاه) عاد إلى الصمت، حيث كان مهتماً فقط بالقضاء على الكعكة الإسفنجية في أقصر وقت ممكن. وبعد أن ازدرد آخر لقمة اندفع في الكلام: آه! توجد علّيّات هنا كما تقول جين يا أمي. أيمكنني الذهاب الآن لاستكشافها؟ وقد أعثر على باب سري. جين تقول إنه لا يوجد، ولكني أعتقد أنه لا بد من وجوده.

قالت السيدة لانكاستر: سننظر في أمر العلّيّة غداً يا حبيبي. اذهب وأحضر بعض القطع الخشبية حتى تبني بيتاً جميلاً.

أسرع جيفري لكي يحضر القطع وهو سعيد. كان المطر ما زال يسقط، وأصغى السيد وينبيرن. نعم، لا بد من أن الذي سمعه هو صوت المطر، لكنه يبدو مثل صوت وقع أقدام.

* * *

في تلك الليلة رأى حلماً غريباً.

حلم أنه كان يمشي داخل بلدة بدت له مدينة كبيرة، لكنها كانت مدينة أطفال. لم يكن فيها بالغون، لا أحد سوى الأطفال، مجموعات كبيرة منهم. وفي حلمه اندفعوا جميعاً نحوه صائحين: "هل أحضرته؟" بدا وكأنه فهم ما يقصدونه وهز رأسه نافياً بحزن، وعندما رأى الأطفال ذلك ابتعدوا وبدؤوا بالبكاء المرير.

تلاشت المدينة والأطفال واستيقظ ليجد نفسه على السرير، ولكن صوت النشيج كان باقياً في أذنيه. ورغم أنه كان مستيقظاً تماماً إلاّ أنه سمعه بوضوح، وتذكّر أن جيفري نام في الطابق السفلي بينما صوت الطفل الحزين هذا ينزل من أعلى. جلس على سريره وأشعل عود ثقاب، فتوقف البكاء على الفور.

لم يخبر السيد وينبيرن ابنته بالحلم وما تبعه. لقد كان مقتنعاً بأن ذلك لم يكن وهماً أو إيحاء من خياله، والحقيقة أنه سرعان ما سمعه ثانية أثناء النهار. كانت الريح تعصف في المدخنة، ولكن هذا كان صوتاً مختلفاً... محدداً متميزاً لا يحتمل الخطأ، نشيج حزينٍ كسير الفؤاد.

اكتشف أيضاً أنه لم يكن الوحيد الذي سمع ذلك الصوت؛

فقد سمع خادمة تقول لخادمة أخرى إنها تشك في أن المربية لم تكن لطيفة مع السيد الصغير جيفري لأنها سمعته يبكي وينشج في ذلك الصباح. وكان جيفري قد نزل لتناول الإفطار وهو ممتلئ بالصحة والسعادة، وكان السيد وينبيرن يعرف أن جيفري ليس هو الذي كان يبكي، بل هو الطفل الآخر الذي أجفله وقعُ خطواته المتثاقلة أكثر من مرة.

وحدها السيدة لانكاستر لم تسمع شيئاً أبداً؛ ربما لم تكن أذناها مولَّفة لالتقاط أصوات من عالم آخر.

ومع ذلك فقد تلقت هي الأخرى صدمة ذات يوم؛ فقد قال جيفري بسذاجة: أمي، أرجو أن تسمحي لي باللعب مع ذلك الولد الصغير.

رفعت السيدة لانكاستر بصرها عن طاولة الكتابة مبتسمة: أي ولد صغير يا عزيزي؟

- لا أعرف اسمه. كان في العلّيّة يجلس على الأرض يبكي، لكنه هرب عندما رآني. أظن أنه كان خَجِلاً. لم يكن ولداً كبيراً، وبعد ذلك عندما كنت في غرفة النوم رأيته يقف عند الباب يراقبني وأنا ألعب، وكان يبدو وحيداً جداً وكأنه أراد أن يلعب معي. قلت له: "تعال لنبني بيتاً"، ولكنه لم يقل شيئاً، بدا فقط وكأنه... وكأنه رأى كثيراً من الحلوى ولكن أمه حذرته من لمسها.

تنهد جيفري وكأن ذكريات شخصية محزنة تعاوده، ثم أكمل قائلاً: ولكن عندما سألت جين عن هويته وقلت لها إنني أريد اللعب معه قالت إنه لا يوجد ولد صغير في هذا البيت وطلبت مني ألاّ أروي

روايات تافهة. أنا لا أحب جين أبداً.

نهضت السيدة لانكاستر وقالت: جين على حق؛ لا يوجد أي ولد صغير.

- ولكني رأيته. آه! اسمحي لي أن ألعب معه يا أمي. لقد بدا في غاية الوحدة والتعاسة، وأنا أريد أن أفعل شيئاً لكي أجعله في حال أحسن.

كانت السيدة لانكاستر على وشك أن تتكلم ثانية، لكن أباها هز رأسه وقال بلطف: جيفري، إن ذلك الولد الصغير وحيد بالفعل، ولعلك تستطيع القيام بشيء تريحه به. ولكن يجب أن تكتشف كيف تفعل ذلك بنفسك... مثل اللغز، هل تفهم؟

- أيتعين أن أفعل ذلك وحدي لأنني أكبُر؟

- نعم؛ لأنك تكبُر.

عندما ترك الولد الغرفة التفتت السيدة لانكاستر إلى أبيها بنفاد صبر وقالت: أبي، هذا سخيف! إنك تشجّع الولد على تصديق حكايات الخدم التافهة!

قال العجوز بلطف: ولكن أياً من الخدم لم يقل أي شيء للطفل. لقد رأى... ما سمعته أنا سمعاً، وما كنت سأراه لو كنت في مثل سنّه!

- لكنه هراء! لماذا لا أراه أنا أو أسمعه؟

ابتسم السيد وينبيرن ابتسامة متعبة غريبة، لكنه لم يرد عليها.

كرّرت ابنته: لماذا؟ ولماذا أخبرتَه أن باستطاعته مساعدة ذلك... ذلك الشيء. إنه مستحيل تماماً.

نظر العجوز إليها نظرة متأملة وقال: لِمَ لا؟ إن جيفري يمتلك «فهماً أعمى»، وجميع الأطفال يملكون ذلك، ولكن عندما نكبر بالسن نفقده ونلقيه بعيداً عنّا. أحياناً عندما يتقدم بنا العمر كثيراً تعود إلينا ومضة ضعيفة، ولكن المصباح يكون في أوج إضاءته في الطفولة. لهذا أظن أن جيفري قد يستطيع المساعدة.

تمتمت السيدة لانكاستر بصوت خافت: لا أفهم.

- ولا حتى أنا! ذلك... ذلك الطفل واقع في مشكلة، وهو يريد... يريد إطلاق سراحه. كيف؟ لا أعرف، ولكن التفكير بهذا الأمر فظيع. إنه يكاد يفتت قلبه نشيجاً... وهو طفل.

* * *

بعد شهر من هذه الحادثة سقط جيفري صريع المرض. كانت الريح الشرقية شديدة جداً ولم يكن طفلاً قوياً، وقد هز الطبيب رأسه وقال إن حالته خطيرة، غير أنه أفضى للسيد وينبيرن بما هو أكثر من ذلك؛ فاعترف بأن الحالة ميؤوس منها تماماً وأن "الطفل لم يكن أبداً ليعيش حتى يكبر تحت أي ظرف من الظروف"، وقال: لقد وُجدت مشكلات خطيرة في الرئة منذ وقت طويل.

وعندما كانت السيدة لانكاستر ترعى جيفري المريض أخذت تعي وجود ذلك... الطفل الآخر. في البداية كان يصعب تمييز النشيج عن صوت الريح، ولكنه أصبح مميزاً قاطعاً أكثر فأكثر بالتدريج،

وأخيراً سمعته في لحظات من الهدوء الشديد: نشيج طفل... كئيب، يائس، كسير الفؤاد.

ازدادت حالة جيفري سوءاً شيئاً فشيئاً، وفي نوبات هذيانه كان يتكلم المرة تلو الأخرى عن «الصبي الصغير»، وقد صاح مرة: "أريد مساعدته على الخروج، أريد ذلك"!

وبعد نوبات الهذيان جاءت حالات سبات عميق؛ فكان جيفري يرقد دون حراك لا يكاد يتنفس غارقاً في غيبوبته، ولم يكن ليوجد ما يمكن فعله سوى الانتظار والمراقبة.

ثم جاءت ليلة هادئة، صافية وساكنة دون سماع هبة ريح واحدة. وفجأة تحرك الطفل... فتح عينيه ونظر وراء أمه إلى الباب المفتوح. حاول أن يتكلم وانحنت لكي تسمع كلماته الخافتة. وهمس قائلاً: "حسناً، إنني قادم" ثم غرق في غيبوبته من جديد.

أحسّت الأم بالرعب فجأة، وراح الطفل الآخر يضحك في مكان قريب منهما، وكانت ضحكة رضا وبهجة ترددت أصداؤها في الغرفة.

قالت لوالدها بهلع: "أنا خائفة... خائفة"، فوضع ذراعه حولها وكأنه يريد حمايتها.

عصفت -فجأة- ريح قوية جعلتهما يجفلان، ولكنها مرت بسرعة تاركة الجو هادئاً كما كان. وبعد ذلك توقفت الضحكة وسمعا صوتاً خافتاً، خافتاً لدرجة لا يكاد يُسمَع معها، لكنه راح يزداد وضَوحاً إلى أن تمكنا من تمييزه. وقع أقدام... أقدام خفيفة،

تغادر بسرعة.

ركضت الخطوات: "تيك، تاك... تيك، تاك..." إنه صوت هاتين القدمين الصغيرتين المتعثرتين، ولكن كان من المؤكد -في تلك اللحظة- أن قدمين أخريين قد اختلطتا معهما فجأة، لتتحرك جميعاً بخطوات أكثر سرعة وخفة.

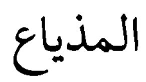
وبإيقاع واحد اتجهت مسرعة إلى الباب. وهناك بعيداً، خلف الباب وبعده، "تيك تاك، تيك تاك..." مضت الأقدام الخفية للطفلين معاً!

رفعت السيدة لانكاستر بصرها مذعورة وقالت: "هناك اثنان منهم... اثنان!" ثم التفتت إلى سرير الطفل في الزاوية وقد شحب لونها بخوف مفاجئ، ولكن والدها أوقفها بلطف وأشار بعيداً مكتفياً بالقول: لا بأس، لا بأس.

تيك تاك، تيك تاك... والخطوات تخفت شيئاً فشيئاً.

ثم بعد ذلك... ساد الصمت!

* * *


المذياع

قال الدكتور مينيل بالأسلوب المريح الذي يفتعله الأطباء: أهم شيء هو أن تتجنبي القلق والإثارة.

ومثل أغلب مَن يسمعون مثل هذه الأقوال المهدئة التي لا معنى لها، بدت السيدة هارتر وكأن شكها أكبر من ارتياحها. أكمل الطبيب كلامه بلباقة: لديكِ ضعف معين في القلب، ولكنه ليس ضعفاً يبعث على القلق. أؤكد لك ذلك.

ثم أضاف: ومع ذلك، ربما كان من الأفضل تركيب مصعد في بيتك. إيه؟ ما رأيك بهذا؟

بدت السيدة هارتر قلقة، أما الدكتور مينيل فقد بدا راضياً على العكس منها. إن السبب في حبه معالجة المرضى الأغنياء أكثر من الفقراء أنه كان يستطيع إطلاق العنان لخياله في وصف علاج لأمراضهم.

قال الدكتور مينيل (وكأنه قد فكر باحثاً عن شيء آخر أكثر غرابة ولكنه أخفق في العثور عليه): نعم، مصعد. عندها نستطيع أن نتجنب أي إجهاد غير لازم. لا بأس بتدريب يومي على أرض مستوية في يوم جميل، ولكن تجنبي صعود التلال. وبالإضافة إلى ذلك: الكثير من إلهاء عقلك والترويح عنه. لا تركّزي التفكير على صحتك.

ولكن الطبيب كان أكثر صراحة مع ابن أخت السيدة العجوز، تشارلز ريدجواي. قال له: لا تسِئ فهمي. فخالتك قد تعيش سنوات... هذا محتمل، ولكن قد تقتلها صدمة أو إجهاد مفرط بكل سهولة أيضاً! يجب أن تحيا حياة هادئة جداً، دون إجهاد ودون تعب. ولكن يجب ألاّ تسمحوا لها بالتفكير مطولاً بالطبع؛ يجب أن تعملوا على إبقائها مبتهجة وتُلهوا ذهنها باستمرار.

قال تشارلز ريدجواي متأملاً: نُلهي ذهنها؟

كان تشارلز شاباً فطناً، كما كان -أيضاً- شاباً يؤمن بإشباع رغباته وميوله كلما كان ذلك ممكناً.

في تلك الليلة اقترح عليها تركيب جهاز المذياع، وقد انزعجت السيدة هارتر وترددت إزاء ذلك، خاصة وأنها كانت منزعجة كثيراً من فكرة المصعد. ولكن تشارلز كان طلق اللسان مقنعاً.

قالت السيدة هارتر بازدراء: لا أحسبني أهتم بهذه البدع العصرية، كما أن الموجات... الموجات الكهربائية، قد تؤثر عليّ.

أشار تشارلز بأسلوبه الرائع اللطيف إلى خطأ هذه الفكرة، ولكن السيدة هارتر بقيت غير مقتنعة رغم معرفتها الضحلة بالموضوع، وقد تمتمت خائفة: "كل تلك الكهرباء. لك أن تؤمن بما تشاء يا تشارلز، ولكن بعض الناس يتأثرون بالكهرباء. إنني أصاب بصداع شديد دائماً قبل حدوث عاصفة رعدية... هذا ما أعرفه حق المعرفة" ثم أومأت برأسها بنشوة المنتصر.

ولكن تشارلز كان شاباً صبوراً، وكان ملحاحاً أيضاً. قال:

يا خالتي العزيزة ماري! دعيني أوضح هذا الأمر لك.

كان شاباً عالماً بهذا الموضوع، وقد ألقى عليها محاضرة عنه. وكان متحمساً لمهمته، يتكلم بطلاقة عن الصمامات الإلكترونية المرسلة والمستقبلة وعن التردد العالي والتردد المنخفض وعن التضخيم والمكثفات.

وأخيراً استسلمت السيدة هارتر للأمر بعد أن غاصت في بحر كلمات لم تكن تفهمها وتمتمت قائلة: حسناً يا تشارلز، إن كنتَ ترى حقيقة...

قال تشارلز بحماسة: يا خالتي العزيزة! إنه الشيء المطلوب لك لكي يبعدك عن الاستغراق في التفكير.

* * *

تم تركيب المصعد الذي وصفه الدكتور مينيل بعد ذلك بوقت قصير، وقد طار صواب السيدة هارتر من ذلك لأنها كانت، ككثير من العجائز، ترفض وجود رجال غرباء في البيت وكانت تشك في أنهم جميعاً يتآمرون لسرقة طقم أواني الفضة القديم لديها.

وبعد المصعد وصل المذياع. وكان على السيدة هارتر أن تتأمل في هذا الجهاز الذي بدا لها بغيضاً... صندوق كبير بشع مرصع بالأزرار. وقد تطلب الأمر كل حماسة تشارلز ليقنعها بتقبله.

كان تشارلز معتاداً على الجهاز، فأدار الأزرار وتعامل معه تعامل الخبير. وجلست السيدة هارتر على كرسيها ذي المسند

العالي، صابرة ومهذبة مع قناعتها المتجذرة بأن هذه البدع العصرية لا تعدو أن تكون مصدر إزعاج تام.

- أنصتي يا خالة ماري، نحن الآن نسمع برلين، أليس هذا رائعاً؟ أيمكنك سماع الرجل؟

- لا أسمع سوى الكثير من الطنين والطقطقات.

استمر تشارلز في إدارة الأزرار وقال متحمساً: وهذه بروكسل.

قالت السيدة هارتر باهتمام باهت: حقاً؟

أدار تشارلز الأزرار مرة أخرى ودوّى في الغرفة صوت أشبه بالعواء، فقالت السيدة هارتر التي كانت عجوزاً ذات روح ساخرة: يبدو أننا الآن على الهواء مع بيت الكلاب.

- ها، ها! ألا تكفّين عن نكاتك يا خالة ماري؟ كان ذلك تعليقاً جيداً!

لم تملك السيدة هارتر إلاّ أن تبتسم له. كانت تحب تشارلز حباً كبيراً؛ فلقد عاشت ابنة أخيها مريم هارتر معها بضع سنوات، وكانت قد نوت جعل الفتاة وريثتها، ولكن مريم لم تثبت نجاحها. كانت نافدة الصبر ضَجِرة من رفقة عمتها بشكل واضح، وكانت تخرج دائماً «لتتسكع»... كما أسمتها السيدة هارتر. وفي نهاية الأمر تورطت مع شاب لم تكن عمتها راضية عنه أبداً. وهكذا أُعيدت مريم إلى أمها مع رسالة مقتضبة، تماماً كما تُعاد سلعة لم تعجب الزبون.

وقد تزوجت الشاب المعني، ودأبت السيدة هارتر على أن ترسل لها علبة مناديل أو غطاء طاولة في أعياد الميلاد.

وعندما وجدت أن بنات الأخ مخيبات للآمال، حولت السيدة هارتر انتباهها إلى أبناء الأخت. وقد نجح تشارلز منذ البداية نجاحاً تاماً؛ إذ كان يحترم خالته دائماً كما كان ينصت بمظهر المهتم اهتماماً شديداً بذكرياتها عن أيام شبابها. وفي هذا كان على العكس تماماً من مريم التي لم تكن تخفي ضجرها وتبرمها؛ فلم يكن تشارلز ليتبرم أبداً، وكان دائماً هادئ الطبع مرحاً، وقد اعتاد أن يقول لخالته -عدة مرات في اليوم- إنها سيدة رائعة تماماً.

وبعد أن رضيت السيدة هارتر بضالتها الجديدة رضاء تاماً كتبت إلى محاميها تطلب منه عمل وصية جديدة، وقد أُرسلت هذه الوصية إليها فوافقت عليها ووقعتها.

والآن، حتى فيما يخص جهاز المذياع، أثبت تشارلز أنه فاز بإكليل جديد؛ فالسيدة هارتر التي كانت في البداية مخاصمة للمذياع أصبحت الآن متسامحة، ثم فُتنت به. كانت تستمتع بالجهاز كثيراً، وخاصة عند خروج تشارلز. إن مشكلة تشارلز أنه لم يكن يستطيع ترك الجهاز وشأنه. كان بوسع السيدة هارتر أن تجلس على كرسيها مرتاحة تصغي إلى السمفونيات الموسيقية أو تستمع إلى محاضرات حول موضوعات منوعة وهي سعيدة راضية، أما تشارلز فلم يكن كذلك؛ إذ كان من شأن الانسجام أن يتبدد بالصرخات الناشزة وهو يحاول متحمساً البحث عن محطات أجنبية. ولكن في تلك الليالي التي كان تشارلز يتناول فيها عشاءه مع أصدقائه خارج البيت كانت

السيدة هارتر تستمتع بالمذياع كثيراً. كانت تدير مفتاحين ثم تجلس على كرسي كبير لتستمتع ببرنامج الليلة.

بعد ثلاثة أشهر من تركيب المذياع وقع أول حادث غريب. كان تشارلز خارج البيت في إحدى الدعوات، وكان برنامج تلك الليلة عبارة عن كونسيرتو غنائي. وكانت إحدى المغنيات المشهورات تغني أغنية، وفي وسط الأغنية حدث شيء غريب؛ وقع سكوت مفاجئ فتوقفت الموسيقى لحظة واستمر صوت الطنين والطقطقة، ثم اختفى ذلك الصوت أيضاً. صمتَ المذياع صمتاً مطبقاً ثم سُمع صوت طنين خفيف جداً.

ولا تدري السيدة هارتر لماذا تولّد لديها انطباع بأن توليفة المذياع تغيرت لتذهب إلى مكان بعيد جداً، ثم تكلم صوت واضح محدد، وكان صوت رجل بلهجة أيرلندية ضعيفة: "ماري... هل تسمعينني يا ماري؟ باتريك يتكلم. سآتي قريباً لآخذك. هل ستكونين جاهزة يا ماري؟" وبعدها، وعلى الفور تقريباً، ملأت أنغام الأغنية أجواء الغرفة من جديد.

جلست السيدة هارتر في كرسيها متصلبة وقد تشبثت يداها بذراعيه. هل كانت تحلم؟ باتريك؟! إنه صوت باتريك! صوت باتريك في هذه الغرفة بالتحديد يتكلم معها. لا، لا بد من أنه حلم، وربما كان هذياناً. لا بد من أن النعاس قد غلبها ونامت دقيقة أو اثنتين. حلم غريب هذا الذي حلمته... أن يتكلم معها صوت زوجها الميت عبر الأثير. لقد أخافها قليلاً. ما هي الكلمات التي قالها؟ "سآتي قريباً لآخذك. هل ستكونين جاهزة يا ماري؟" أيمكن أن

يكون ذلك نذيراً بوقوع شيء؟ ضعف في القلب. قلبها... كما أنها كانت تتقدم بالعمر أيضاً.

قالت السيدة هارتر وهي تنهض ببطء وألم من مقعدها: "إنه تحذير... هذه هي حقيقته" ثم أضافت بما يعبّر عن طبعها تماماً: وكل تلك الأموال التي أضعناها على تركيب مصعد!

* * *

لم تخبر أحداً بهذا الحادث الذي وقع معها، ولكنها بدت مستغرقة في التفكير مشغولة الذهن في اليومين التاليين. ثم جاءت المناسبة الثانية. كانت في غرفتها وحيدة مرة أخرى، فإذا بالمذياع الذي كان يذيع مختارات غنائية قد تلاشى صوته بنفس الفجأة السابقة. مرة أخرى سكت المذياع، وساد ذلك الإحساس بالبعد، وأخيراً صوت باتريك. ليس كما كان في الحياة، ولكنه صوت خفي بعيد وفيه نبرة غريبة: "باتريك يتحدث معك يا ماري. سآتي إليك في وقت قريب جداً"! ثم صوت طقطقة وطنين، ثم عادت المختارات الغنائية بكامل قوتها.

نظرت السيدة هارتر إلى الساعة. كلا، لم تكن نائمة هذه المرة، بل كانت مستيقظة وبكامل قواها العقلية، وقد سمعت صوت باتريك وهو يتكلم. لم يكن هذياناً، كانت واثقة من هذا. وحاولت، مضطربةً، أن تفكر بكل ما شرحه تشارلز لها عن نظرية موجات الأثير.

أيمكن أن يكون باتريك قد تحدث معها حقيقة وأن يكون صوته الحقيقي قد انتقل عبر الفضاء؟ تذكرت شيئاً اسمه أطوال موجات

مفقودة أو شيئاً من هذا القبيل، وتذكرت تشارلز وهو يتحدث عن «فجوات في التوازن». ربما استطاعت الموجات المفقودة تفسير ما يُسمى بالظواهر النفسية؟ نعم، لم يكن في الفكرة أي شيء مستحيل. لقد تكلم باتريك معها. لقد استفاد من العلم الحديث لكي يعدّها لما سيأتي قريباً دون شك.

قرعت السيدة هارتر الجرس لتطلب خادمتها إليزابيث. كانت إليزابيث امرأة طويلة هزيلة الجسم في الستين من عمرها، وبغض النظر عما يوحي به مظهرها من صلابة إلاّ أنها كانت تخفي ثروة من المودة والحنان لسيدتها.

قالت السيدة هارتر عندما ظهرت خادمتها المخلصة: إليزابيث، هل تذكرين ما قلته لك؟ الدُّرج العلوي في مكتبي من الناحية اليسرى. إنه مقفل، والمفتاح الطويل بالميدالية البيضاء. كل شيء جاهز هناك.

- جاهز يا سيدتي؟

دمدمت السيدة هارتر: جاهز لدفني. أنت تعرفين جيداً ما أقصده يا إليزابيث. أنت بنفسك ساعدتِني في وضع الأشياء هناك.

بدأت الملامح الغريبة تظهر على وجه إليزابيث، ثم قالت وهي تنتحب: آه، سيدتي! لا تفكري بمثل هذه الأمور. كنت أظن أن حالك قد تحسنت.

قالت السيدة هارتر بواقعية: كل منا يجب أن يرحل يوماً ما. لقد تقدم بي العمر كثيراً يا إليزابيث. هيا، هيا... لا تجعلي من نفسك

أضحوكة. إن كان لا بد من بكائك فابكي في مكان آخر.

انسحبت إليزابيث وهي ما زالت تنشج، فودعتها نظرة محبة بالغة من السيدة هارتر التي قالت: عجوز سخيفة حمقاء، لكنها مخلصة، مخلصة جداً. أتراني تركت لها مئة جنيه أم خمسين جنيهاً فقط؟ يجب أن تكون مئة. إنها تعمل معي منذ مدة طويلة.

أقلق هذا الموضوع السيدة العجوز، وفي اليوم التالي جلست وكتبت إلى محاميها تطلب منه أن يبعث إليها بوصيتها حتى تراجعها. وفي ذلك اليوم بالذات أجفلها تشارلز بشيء قاله على الغداء. قال: على فكرة يا خالة ماري، من هو ذلك العجوز الغريب في غرفة الضيوف؟ صاحب الصورة المعلَّقة فوق رف الموقد؛ الرجل العجوز ذو القبعة الحريرية والشاربين الضخمين؟

نظرت السيدة هارتر إليه بحدة وقالت: ذاك هو زوجي، باتريك، عندما كان شاباً.

- آه! أنا آسف جداً خالتي؛ لم أكن أقصد أن أكون فظاً.

قبلت السيدة هارتر الاعتذار بهزة من رأسها، فيما أكمل تشارلز حديثه بتردد: لقد تساءلت فقط...

سكت متردداً فقالت السيدة هارتر بحدة: حسناً، ما الذي كنت ستقوله؟

أسرع تشارلز بالقول: لا شيء... أعني لا شيء مهماً.

لم تقل العجوز شيئاً وقتها، ولكن عندما كانا معاً وحدهما في

وقت لاحق من ذلك اليوم عادت إلى الموضوع: أرجوك أن تخبرني، يا تشارلز، عمّا جعلك تسألني عن صورة زوجي تلك.

بدا تشارلز محرجاً وقال: لقد أخبرتك يا خالة. لم يكن سوى وهم سخيف من جانبي... سخيف تماماً.

قالت السيدة هارتر بصوتها المسيطر: تشارلز، إنني أصرّ على المعرفة.

- حسناً يا خالتي العزيزة، إن كنت تريدين ذلك. لقد توهمت أنني رأيته... أقصد الرجل الذي في الصورة. كان يطل برأسه من النافذة الأخيرة عندما كنت قادماً في ممشى الحديقة في الليلة الماضية، وقد تساءلت مَن عساه يكون. بدا الوجه وكأنه ينتمي إلى أوائل العصر الفكتوري. ثم أخبرتني إليزابيث أنه لم يكن في البيت أحد؛ لا زائر ولا غريب. وبعد ذلك صدف أن دخلتُ مساء إلى غرفة الضيوف وكانت الصورة هناك على رف الموقد... الرجل الذي رأيته نفسه! أظن أن من السهل تفسير ذلك؛ إنه العقل الباطن! لا بد من أنني لحظت الصورة من قبل دون أن أدرك أنني لاحظتها، ثم بعد ذلك تخيلت وجهه عند النافذة.

قالت السيدة هارتر بحدة: أقلتَ النافذة الأخيرة؟

- نعم. لماذا؟

- لا شيء.

ولكنها كانت خائفة مع ذلك؛ فقد كانت تلك الغرفة غرفة زوجها.

في نفس تلك الليلة كان تشارلز غائباً أيضاً، وكانت السيدة هارتر جالسة تستمع إلى المذياع نافدة الصبر. وفكّرت أنها إذا سمعت الصوت الغامض للمرة الثالثة فسوف يثبت لديها أخيراً، وبلا أدنى شك، أنها على اتصال مع عالم آخر.

ورغم أن قلبها قد زاد خفقاناً فإنها لم تُفاجَأ عندما حدث الانقطاع نفسه، وبعد فترة الصمت المطبق تكلم الصوت الأيرلندي الخافت البعيد: "ماري، أنت جاهزة الآن! سآتي إليك يوم الجمعة... الجمعة في الساعة التاسعة والنصف. لا تخافي؛ فلن يكون في الأمر ألم. كوني مستعدة" ثم عادت الموسيقى وهي توشك أن تقطع الكلمة الأخيرة، موسيقى صاخبة.

جلست السيدة هارتر ساكنة تماماً لبعض الوقت وقد شحب وجهها وازرقّت شفتاها، ثم نهضت على الفور من مكانها وجلست وراء طاولة الكتابة فكتبت الأسطر التالية بيد مرتعشة إلى حد ما:

> الليلة، في الساعة التاسعة والربع، سمعت صوت زوجي الميت بوضوح. وقد أخبرني أنه سيأتي إليّ يوم الجمعة في الساعة التاسعة والنصف. ولئن متُّ في ذلك اليوم وفي تلك الساعة فأحب أن يعرف الناس هذه الحقيقة حتى أثبت -دون لبس- إمكانية الاتصال مع عالم الأرواح!
>
> ماري هارتر

قرأت السيدة هارتر ما كتبته مرة ثانية، ثم وضعته في مغلف وكتبت على المغلف العنوان، ثم قرعت الجرس الذي أجابت عليه

إليزابيث على الفور. نهضت السيدة هارتر عن طاولتها وسلّمت الرسالة التي كتبتها إلى خادمتها المسنّة قائلة: إليزابيث! إن أنا متّ يوم الجمعة ليلاً فأحب أن تعطي هذه الرسالة إلى الدكتور مينيل.

وعندما بدت إليزابيث وكأنها تريد الاحتجاج قالت السيدة هارتر: لا تجادليني. لقد أخبرتِني دوماً أنك تؤمنين بالنُّذُر، وقد تلقيت نذيراً الآن. وأمرٌ آخر... لقد تركت لك في وصيتي خمسين جنيهاً، وأنا أريدك أن تأخذي مئة جنيه، فإذا لم أستطع الذهاب إلى المصرف بنفسي قبل أن أموت فسوف يتولى السيد تشارلز الأمر.

وكما حدث من قبل قطعت السيدة هارتر احتجاجات إليزابيث الباكية. وفي متابعة لعزمها تحدثت إلى ابن أختها حول الموضوع في صباح اليوم التالي: تذكّر يا تشارلز، إن حدث شيء لي فيجب أن تعطي إليزابيث خمسين جنيهاً إضافية.

قال تشارلز مبتهجاً: أنت مكتئبة هذه الأيام يا خالتي. ما الذي سيحدث لك؟ فحسب كلام الدكتور مينيل سنحتفل بعيد ميلادك المئة بعد نحو عشرين عاماً!

ابتسمت السيدة هارتر له ابتسامة حب، ولكنها لم تجبه. وبعد لحظات قالت: ما الذي ستفعله يوم الجمعة ليلاً يا تشارلز؟

بدا تشارلز مدهوشاً قليلاً وقال: في الواقع تلقيت دعوة من عائلة إيوينغ لزيارتهم ولعب الورق معهم، ولكن إن كنت تودين فسأبقى في البيت.

قالت السيدة هارتر بتصميم: كلا، كلا بالتأكيد. إنني أعني

ما أقوله يا تشارلز. في تلك الليلة بالذات أريد أن أكون وحيدة.

نظر تشارلز إليها باستغراب، لكن السيدة هارتر لم تعطه أي معلومة أخرى. كانت عجوزاً ذات شجاعة وتصميم، وقد أحسّت بأنها يجب أن تخوض تجربتها الغريبة وحدها.

مساء الجمعة كان البيت صامتاً جداً. جلست السيدة هارتر كالعادة على كرسيها المرتفع الظهر وقد قربته من المدفأة، وكانت قد أعدت جميع التجهيزات؛ ففي ذلك الصباح ذهبت إلى المصرف وسحبت خمسين جنيهاً نقداً وسلمتها لإليزابيث رغم احتجاجات إليزابيث الباكية، وكانت قد فرزت ورتبت جميع أغراضها الشخصية فخصصت بعض قطع الحلي لبعض الأصدقاء والأقارب، كما كتبت قائمة بالتعليمات لتشارلز: طقم الشاي من طراز وورتشيستر سيذهب لابنة عمها إيما، ومجموعة الأواني الثمينة لوليم الصغير، وهكذا...

والآن نظرت إلى المغلف الطويل الذي كانت تحمله بيدها وأخرجت منه ورقة مطوية. كانت هذه وصيتها التي أرسلها إليها السيد هوبكينسون وفقاً لتعليماتها، وكانت قد قرأتها بعناية ولكنها راحت تنظر إليها مرة أخرى في تلك اللحظة لتنشط ذاكرتها. كانت وصية قصيرة ومختصرة: خمسون جنيهاً لإليزابيث مارشال نظراً لخدمتها المخلصة، ومبلغ خمسمئة جنيه لأخت لها، ومبلغ مماثل لابنة عم لها، والبقية إلى ابن أختها الغالي تشارلز ريدجواي.

أومأت السيدة هارتر برأسها عدة مرات. سيكون تشارلز رجلاً غنياً جداً عندما تموت. لقد كان ولداً عزيزاً وطيباً معها. كان

دائماً لطيفاً، ودائماً حنوناً وصاحب لسان عذب لم يفشل أبداً في إرضائها.

نظرت إلى الساعة، بقيت ثلاث دقائق حتى منتصف الساعة. كانت مستعدة وهادئة، ولكن كان قلبها يخفق خفقاناً غريباً ومتقطعاً. لم تفهم ذلك، ولكن يبدو أن أعصابها كانت متوترة.

التاسعة والنصف. كان المذياع مفتوحاً. ماذا ستسمع؟ هل ستسمع صوتاً مألوفاً يعلن عن حالة الطقس أم ذلك الصوت البعيد لرجل مات قبل خمسة وعشرين عاماً؟ لكنها لم تسمع أيّاً منهما، وبدلاً من ذلك جاء صوت مألوف، صوت كانت تعرفه جيداً ولكنه جعلها تشعر هذه الليلة وكأن يداً جليدية وُضعت على قلبها. وجاءت حركة عند الباب...

سُمع صوت الباب ثانية، ثم بدا أن هبة باردة قد عصفت إلى داخل الغرفة. لم يكن عند السيدة هارتر الآن أي شك في أحاسيسها. كانت خائفة، بل كانت أكثر من خائفة، كانت مرعوبة! وفجأة خطرت ببالها الفكرة: "**خمس وعشرون سنة. مدة طويلة. إن باتريك غريب بالنسبة لي الآن**"!

الرعب! هذا ما كان يستحوذ عليها.

خطوة خفيفة خارج الباب... خطوة هادئة تتوقف. تم فُتح الباب بهدوء.

وقفت السيدة هارتر على قدميها مترنحة، تتهادى قليلاً يمنة ويسرة وعيناها مثبتتان على مدخل الباب، وانزلق من بين أصابعها

شيء إلى الموقد، ثم أطلقت صيحة مخنوقة لم تتجاوز حنجرتها. فتحت الضوء الخافت عند مدخل الباب وقف شخص مألوف لديها بلحيته الكستنائية وشاربيه الضخمين وبمعطف فكتوري قديم.

لقد جاء باتريك ليأخذها!

خفق قلبها خفقة ذعر واحدة وتوقف؛ سقطت على الأرض كومة هامدة!

وجدتها إليزابيث هناك بعد ذلك بساعة واحدة، واستُدعي الدكتور مينيل على الفور كما تم استدعاء تشارلز ريدجواي من لعبة الورق على وجه السرعة، ولكن لم يكن بالإمكان عمل شيء؛ فلم يكن بمقدور البشر مساعدة السيدة هارتر.

لم تتذكر إليزابيث الرسالة التي أعطتها سيدتها لها إلاّ بعد يومين. وقد قرأها الدكتور مينيل باهتمام كبير وأطلع عليها تشارلز قائلاً: صدفة غريبة جداً. يبدو واضحاً أن خالتك كانت تنتابها هلوسات بخصوص صوت زوجها المتوفى، ويبدو أنها وتّرتْ نفسها تدريجياً وصولاً إلى نقطة أصبحت الإثارة فيها قاتلة لها، وعندما جاء الموعد ماتت من الصدمة.

- أهو الإيحاء الذاتي؟

- شيء من هذا القبيل. سأبلغك بنتيجة التشريح في أسرع وقت ممكن رغم أنه لا يراودني أي شك في الأمر، ففي مثل هذه الظروف يكون التشريح مرغوباً، رغم أنه مسألة شكلية خالصة.

أومأ تشارلز برأسه مستوعباً الأمر.

* * *

في الليلة التالية، عندما كان الجميع نياماً، أزال تشارلز سلكاً معيناً كان يمتد من مؤخرة المذياع ويصل إلى غرفة نومه في الطابق العلوي. وبما أن الليل كان بارداً فقد طلب من إليزابيث إشعال نار في غرفته حيث أحرق فيها لحية كستنائية وشاربين، كما وضع بعض الملابس الفكتورية التي تخص زوج خالته المتوفى في صندوق في العلّيّة تنبعث منه رائحة الكافور.

وحسبما كان يرى، فقد كان آمناً تماماً. لقد نجحت خطته نجاحاً باهراً؛ تلك الخطة الغامضة التي خطط لها أول مرة في ذهنه عندما أخبره الدكتور مينيل بأن خالته قد تعيش سنوات طويلة إذا توفرت لها العناية. لقد قال الدكتور مينيل إن من شأن صدمة مفاجئة أن تقتلها. وابتسم تشارلز، ذلك الشاب الحنون الذي تحبه العجائز!

عندما غادر الطبيب البيت شرع تشارلز في واجباته بطريقة آلية. كان يجب عمل ترتيبات نهائية معينة للجنازة، إذ يجب حجز مقاعد في القطارات للأقارب الذين سيأتون من أماكن بعيدة، وبعضهم قد يمكث ليلة واحدة. شرع تشارلز في الإعداد لهذه الأمور بكفاءة ونظام، وقد ترافق ذلك مع سلسلة أفكاره الباطنية. وكان ملخص تلك الأفكار هو أن هذه كانت ضربة ممتازة! لم يكن أحد يعرف الحالة الصعبة التي يعيشها تشارلز، حتى خالته الميتة. فأعماله التي أخفاها عن العالم بعناية فائقة قد أوقعته في وضع أصبح فيه قاب قوسين أو أدنى من السجن.

كان مهدداً بالفضيحة والدمار المؤكدين، إلاّ إذا استطاع جمع مبلغ طائل خلال بضعة أشهر. حسناً، لقد أصبح هذا الأمر على ما يرام الآن. ابتسم تشارلز لنفسه. والفضل لهذا... نعم، لقد نجا وأصبح الآن رجلاً غنياً جداً. لم تعد لديه أية مخاوف من هذا الموضوع لأن السيدة هارتر لم تُخفِ نواياها فيما يخص الوصية أبداً.

أدخلت إليزابيث رأسها وهي تقطع عليه هذه الأفكار وأبلغته أن السيد هوبكينسون موجود في البيت ويريد رؤيته. فكر تشارلز بأن هذا هو الوقت المتوقع لوصوله تقريباً، وكان على وشك الصفير فرحاً، ولكنه كظم فرحته وتظاهر بالتجهم والحزن ثم توجه إلى المكتبة. وهناك رحبّ بالرجل العجوز الدقيق الذي كان المستشار القانوني للسيدة هارتر الراحلة منذ أكثر من ربع قرن.

جلس المحامي بناء على دعوة تشارلز، ثم تنحنح وشرع في أمور العمل: لم أفهم رسالتك تماماً يا سيد ريدجواي. يبدو أنك تحسب وصية السيدة هارتر الراحلة موجودة عندنا، أليس كذلك؟

حدّق تشارلز إليه وقال: بالتأكيد؛ لقد سمعت خالتي تقول ذلك.

- آه! صحيح تماماً، صحيح تماماً. لقد كانت عندنا.

- كانت؟!

- هذا ما قلته. لقد كتبت السيدة هارتر إلينا تطلب منّا أن نرسلها إليها يوم الثلاثاء الماضي.

دبّ في تشارلز إحساس بالخوف وأحس بهاجس داخلي... أن شيئاً خطيراً يرتقبه من بعيد. وأكمل المحامي حديثه يطمئنه: لا شك في أنها ستظهر بين أوراقها.

لم يقل تشارلز شيئاً؛ فقد كان خائفاً من زلة لسانه. لقد بحث في أوراق السيدة هارتر كثيراً وبدقة وتأكد من عدم وجود وصية بينها! وغمره إحساس وكأن ماء بارداً قد صُبَّ على ظهره.

سأله المحامي: هل بحث أي شخص في أغراضها الشخصية؟

ردّ عليه تشارلز بأن خادمتها الخاصة إليزابيث قد فعلت ذلك، وبناء على اقتراح السيد هوبكينسون تم استدعاء إليزابيث. جاءت على الفور متجهمةً وأجابت على الأسئلة التي وُجِّهت إليها قائلة إنها فتشت جميع ملابس سيدتها وأغراضها الشخصية، وكانت متأكدة تماماً من أنه لم تكن بينها أية ورقة قانونية كالوصية. وكانت تعرف شكل الوصية حيث كانت سيدتها تحملها بيدها في صبيحة اليوم الذي توفيت فيه.

سألها المحامي بحدة: أأنت متأكدة من ذلك؟

- نعم يا سيدي. أخبرتني بذلك وأعطتني خمسين جنيهاً نقداً، وكانت الوصية داخل مغلف طويل أزرق.

قال السيد هوبكينسون: هذا صحيح.

أكملت إليزابيث: لقد تذكرتُ الآن. إن ذلك المغلف الأزرق نفسه كان موضوعاً على هذه الطاولة في صبيحة اليوم التالي... لكنه

كان فارغاً. لقد وضعته على المكتب.

قال تشارلز: أذكر أنني رأيته هناك.

نهض وذهب إلى الطاولة، ثم عاد بعد دقيقة وهو يحمل مغلفاً وسلمه إلى السيد هوبكينسون الذي تفحصه وأومأ برأسه قائلاً: هذا هو المغلف الذي أرسلت فيه الوصية يوم الثلاثاء الماضي.

نظر الاثنان إلى إليزابيث نظرة إمعان، فسألت بأدب: أيوجد أي شيء آخر يا سيدي؟

- ليس في الوقت الحالي، شكراً لك.

ذهبت إليزابيث باتجاه الباب، فقال المحامي: دقيقة واحدة من فضلك. أكانت هناك نار مشتعلة في الموقد تلك الليلة؟

- نعم يا سيدي، النار مشتعلة دائماً هناك.

- شكراً لك، هذا يكفي.

خرجت إليزابيث. ومال تشارلز إلى الأمام وهو يضع يده المرتعشة على الطاولة وقال: ما الذي تفكر فيه؟ ما الذي تريد الوصول إليه؟

هز السيد هوبكينسون رأسه وقال: ما زلنا نأمل أن تظهر الوصية. أما إذا لم تظهر...

- حسناً، إذا لم تظهر؟

- أخشى أن نتيجة واحدة ممكنة: لقد أرسلتْ خالتك تطلب تلك الوصية لكي تتلفها. ولم ترغب بأن تخسر إليزابيث من تغيير الوصية، ولذلك أعطتها الإرث الخاص بها نقداً.

صاح تشارلز صيحة رعب: ولكن لماذا؟ لماذا؟

سعل السيد هوبكينيز سعلة جافة وتمتم قائلاً: ألم... ألم يحدث أي خلاف بينك وبين خالتك يا سيد ريدجواي؟

شهق تشارلز وصاح بأعلى صوته: أبداً؛ لقد كنّا على خير محبة وتفاهم حتى وفاتها.

- آه!

قالها السيد هوبكينز دون أن ينظر إليه. وظن تشارلز، وقد صُدم، أن المحامي لم يصدقه. لقد عرف تشارلز أكثر لحظات عمله مرارة في تلك اللحظة؛ فقد صُدِّق كذبه كله، وها هو ذا الآن يقول الحقيقة فلا يُصدَّق. يا لها من مفارقة!

إن خالته لم تحرق الوصية! بالطبع...

توقفت أفكاره فجأة. ماذا كانت تلك الصورة التي تظهر أمام عينيه؟ سيدة عجوز وإحدى يديها تمسك بقلبها... وشيء يسقط... ورقة... تسقط على الجمرات الحمراء...

ظهر الشحوب على وجه تشارلز، ثم سمع صوتاً أجشّ... صوته هو... يسأل: وإذا لم يُعثر على تلك الوصية أبداً؟

- للسيدة هارتر وصية سابقة ما زالت موجودة، وهي مؤرخة

في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، وبموجبها تترك السيدة هارتر كل ثروتها لابنة أخيها مريم هارتر (واسمها الآن مريم روبنسن).

ما الذي يقوله هذا الأحمق العجوز؟ مريم؟! مريم مع زوجها النكرة وأطفالها الأربعة البكّائين. كل ذكائه هذا... يذهب لصالح مريم؟!

رنّ الهاتف رنّة حادة قريباً منه فرفع السماعة، وجاءه صوت الطبيب هادئاً ولطيفاً: أهذا أنت يا ريدجواي؟ اعتقدت أنك تحب أن تعرف. لقد انتهى التشريح قبل قليل، وكان سبب الوفاة كما كنت أظن. ولكن، في الواقع، فإن مشكلة القلب كانت أكثر خطورة مما توقعتها عندما كانت على قيد الحياة، فحتى مع شديد العناية بها لم تكن لتعيش أكثر من شهرين كحد أقصى! ظننت أنك تحب أن تعرف، فقد يواسيك هذا نوعاً ما.

قال تشارلز: اعذرني، هل يمكن أن تعيد ذلك على مسامعي ثانية؟

قال الطبيب بصوت أعلى بقليل: لم تكن لتعيش أكثر من شهرين. كل الأمور تجري على ما يرام يا عزيزي...

لكن تشارلز كان قد أعاد السماعة إلى مكانها. وأدرك أن صوت المحامي يتحدث معه من بعيد: يا إلهي! هل أنت مريض يا سيد ريدجواي؟

* * *

شاهدة الادعاء

عدّل السيد مايهيرن نظارته وتنحنح بسعلة جافة (وكانت تلك الحركة عادة له)، ثم نظر ثانية إلى الرجل الجالس أمامه، الرجل المتهم بالقتل العمد.

كان السيد مايهيرن رجلاً قصيراً دقيقاً في سلوكه مرتب الهندام أنيقاً، وذا عينين رماديتين خارقتين داهيتين. لم يكن غبياً أبداً، والواقع أن سمعة السيد مايهيرين كمحامٍ كانت سمعة ممتازة.

كان صوته وهو يتحدث مع موكله جافاً، ولكنه لم يكن ليخلو من التعاطف: لا بد من أن أؤكد لك ثانية أنك في خطر جسيم وأن الصراحة البالغة ضرورية.

حوّل ليونارد فول نظره إلى المحامي بعدما كان يحدق إلى الحائط الفارغ كالمشدوه، ثم قال يائساً: أعرف... إنك لا تكف عن قول ذلك لي، ومع ذلك لا يبدو أنني مصدّق بأنني متهم بالقتل. القتل! وبمثل هذه الجريمة الخسيسة أيضاً.

كان السيد مايهيرن واقعياً غير عاطفي. سعل ثانية وخلع نظارته فمسحها بعناية ثم وضعها فوق أنفه ثانية وقال: نعم، نعم، نعم. والآن يا عزيزي السيد فول، سوف نبذل جهداً كبيراً لكي ننقذك، وسوف ننجح... سوف ننجح. ولكن يجب أن أعرف جميع الحقائق. لا بد

من أن أعرف مدى خطورة القضية عليك، ثم نستطيع أن نضع أيدينا على أفضل أسلوب للدفاع.

ومع ذلك بقي الشاب ينظر إليه بنفس النظرات المشدوهة اليائسة. بدت القضية للسيد مايهيرن قاتمة تماماً، فتورط السجين مؤكد. والآن، راوده الشك لأول مرة.

قال ليونارد فول بصوت منخفض: أنت تحسب أنني مذنب، ولكنني أقسم لك بالله أنني لست كذلك! أعرف أن القضية قاتمة وليست في صالحي. إنني أشبه برجل وقع في شرك تحيط به خيوطه من كل جانب وتربطه أينما التفت، ولكني لم أفعلها يا سيد مايهيرن، لم أفعلها!

في مثل هذا الموقف من الطبيعي على الرجل أن يؤكد براءته. كان السيد مايهيرن يعرف ذلك، ومع ذلك فقد تأثر بكلامه رغماً عنه؛ فلعل ليونارد فول يكون بريئاً في نهاية المطاف. قال بتجهم: أنت على حق يا سيد فول؛ فالقضية تبدو فعلاً قاتمة وليست في صالحك، ومع ذلك فأنا أقبل تأكيدك. دعنا ندخل في الحقائق الآن. أريدك أن تخبرني بالضبط كيف تعرفت على الآنسة إيميلي فرينش.

- كان ذلك في أحد الأيام في شارع أكسفورد. رأيت عجوزاً تعبر الشارع، وكانت تحمل الكثير من الأكياس، وفي وسط الشارع سقطت منها فحاولت أن تجمعها، ولكنها فوجئت بحافلة تكاد تدعسها لولا إسراعها بالركض إلى الرصيف سالمة وهي ذاهلة مذعورة من الناس الذين كانوا يصيحون بها. وقد جمعت الأكياس ومسحت عنها الطين قدر الإمكان وأعدتها إليها.

- أكان ذلك بمثابة إنقاذ لحياتها؟

- آه، لا! كل ما عملته هو أنني قمت بمعروف شائع عادي. وقد عبّرتْ عن امتنانها الشديد وشكرتني بحرارة وقالت شيئاً يفيد بأن سلوكي ليس كسلوك معظم شباب اليوم... لا أذكر كلماتها بالضبط. ثم رفعت لها قبعتي احتراماً وواصلت طريقي. ولم أتوقع رؤيتها ثانية، ولكن الحياة مليئة بالمصادفات؛ ففي تلك الليلة نفسها التقيت بها صدفة في حفلة لدى أحد الأصدقاء. عرفتني على الفور وطلبت من أهل البيت أن يعرفوني بها. عرفت وقتها أنها الآنسة إيميلي فرينش وأنها تعيش في كريكلوود، وقد تحدثت معها بعض الوقت، ويخيل إلي أنها كانت عجوزاً تولع فجأة بالناس ولعاً شديداً، فقد تعلقت بي بسبب عمل بسيط جداً كان بوسع أي امرئ أن يقوم به. وعند مغادرتها صافحتني بحرارة وطلبت مني أن أذهب لزيارتها، فأجبتها بأن ذلك سيكون من دواعي سروري بالطبع، فألحّتْ عليّ بأن أحدد موعداً. لم أُرِد الذهاب فعلاً، ولكن كان رفضي سيبدو غير لائق، ولذلك حددت موعداً لزيارتها يوم السبت التالي. وبعدما ذهبت علمت عنها بعض الأشياء من أصدقائي... علمت أنها غنية وغريبة الأطوار، وأنها تعيش وحيدة مع خادمة واحدة وتملك ما لا يقل عن ثماني قطط.

- فهمت. وهل اتضحت مسألة غناها في ذلك الوقت المبكر؟

بدأ ليونارد فول حديثه متحمساً: إن كنت تقصد أنني استعلمت...

ولكن السيد مايهيرن هدّأه بإيماءة من يده وقال: يجب أن أنظر

إلى القضية كما سيقدمها الطرف الآخر، إذ لم يكن من شأن مراقب عادي أن يحسب الآنسة فرينش سيدة غنية. كانت تعيش حياة فقيرة ومتواضعة تقريباً، وما لم يقل أحدٌ عكس ذلك فإنك ستظن أنها تعيش في ظروف فقيرة... في البداية على الأقل. من هو بالضبط الذي أخبرك بأنها غنية جداً؟

- صديقي جورج هارفي، الذي كان يستضيف الحفلة في بيته.

- أيحتمل أنه ما زال يذكر قوله ذاك؟

- لا أدري حقاً. لقد مضى على ذلك وقت طويل بالطبع.

- صحيح يا سيد فول. اعلم أن الهدف الأول للادعاء سيكون إثبات أنك كنت تعيش ضائقة مالية. ألم تكن كذلك؟

احمرّ وجه ليونارد فول وقال بصوت خفيض: بلى؛ كنت أمر في مرحلة من سوء الطالع الفظيع وقتَها.

قال السيد مايهيرن ثانية: صحيح، ولكونك في تلك الضائقة المالية التقيت بتلك العجوز الغنية وطورت معرفتك بها عن كثب. والآن، إذا كنّا في وضع نستطيع معه القول إنك لم تكن تعرف أنها كانت غنية وأنك زرتها بدافع من اللطف وحده...

- وهذا هو الصحيح.

- أعتقد ذلك. لن أجادل في هذه النقطة، إنما أنا أنظر إليها من وجهة النظر الخارجية. إن الكثير يعتمد على ذاكرة السيد هارفي. هل

من المحتمل أن يتذكر ذلك الحديث أم لا؟ أيمكن لمحام أن يربكه بحيث يظن أن ذلك الموقف حدث فيما بعد؟

فكر ليونارد فول بعض الوقت، ثم قال بثبات ولكن بوجه شاحب: لا أعتقد أن هذا الإجراء سيكون ناجحاً يا سيد مايهيرن؛ فكثير من الحاضرين سمعوا كلامه هذا، وقد مازحني بعضهم حول كسبي عجوزاً ثرية.

حاول المحامي إخفاء خيبة أمله بإشارة من يده وقال: هذا من سوء الحظ، لكني أهنئك على كلامك الصريح يا سيد فول. إنني أنتظر منك أنت أن ترشدني. إن حكمك صحيح تماماً؛ فالإصرار على ذلك الإجراء الذي ذكرتُه من شأنه أن يكون كارثياً... يجب أن نترك تلك النقطة. لقد تعرفتَ -إذن- على الآنسة فرينش، ثم زرتها وتطورت العلاقة بينكما. نريد سبباً واضحاً لكل هذا. لماذا عمدتَ، أنت الشاب الذي لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره والوسيم المحب للرياضة والمحبوب من أصدقائه، إلى تكريس الكثير من وقتك لامرأة مسنّة ليس بينك وبينها أي قاسم مشترك؟

شرع ليونارد فول يديه في الهواء بإشارة عصبية وقال: لا أعرف ماذا أقول لك... لا أعرف ماذا أقول لك حقيقة. بعد الزيارة الأولى ألحّتْ عليّ كي أعود ثانية وتكلمت عن كونها وحيدة وغير سعيدة. لقد جعلت من الصعب علي أن أرفض، وقد أظهرت عاطفتها نحوي بصراحة ممّا جعلني في موقف صعب. إن لديّ طبيعة ضعيفة يا سيد مايهيرن؛ فأنا أنساق مع التيار بسهولة. إنني من أولئك الذين لا يستطيعون أن يقولوا: "لا" وسواء أصدقتني أم لا، فبعد الزيارة

الثالثة أو الرابعة التي قمت بها لبيتها وجدت نفسي أحب تلك العجوز حبّاً صادقاً، فوالدتي ماتت عندما كنت صغيراً وربتني خالتي التي ماتت هي الأخرى قبل أن أبلغ الخامسة عشرة من العمر، ولو أخبرتك أنني استمتعت بوجود عجوز ترعاني وتدللني كأمي فأعتقد أنك ستضحك مني.

لم يضحك السيد مايهيرن، وبدلاً من ذلك خلع نظارته ومسحها، وهي -دوماً- علامة تدل على أنه يفكر بعمق. قال أخيراً: إنني أقبل تفسيرك يا سيد فول. أعتقد أن هذا محتمل من الناحية السيكولوجية، أما تقبل المحلفين لوجهة النظر هذه فهي مسألة أخرى. أرجو أن تكمل روايتك. متى طلبتْ منك الآنسة فرينش أول مرة أن تشرف على أعمالها؟

- بعد زيارتي الثالثة أو الرابعة لها. كانت تعرف القليل عن الأمور المالية وكانت قلقة على بعض الاستثمارات.

رفع السيد مايهيرن بصره بحدة وقال: احذر يا سيد فول؛ فالخادمة، جانيت ماكينزي، تقول إن سيدتها كانت سيدة أعمال ماهرة وكانت تقوم بهذه الأعمال بنفسها، وهذا ما يؤيده مصرفيوها.

قال فول بجدية: لا يسعني سوى قول ذلك؛ فهذا ما قالته لي.

نظر إليه السيد مايهيرن صامتاً لبضع لحظات، وقد تعزز اعتقاده -في تلك اللحظة- ببراءة السيد فول رغم أنه لم يكن ينوي التصريح بذلك. كان يعرف شيئاً عن عقلية العجائز، ورأى أن الآنسة فرينش

قد افتتنت بالشاب الوسيم وأخذت تبحث عن أعذار تجلبه إلى البيت بها. وماذا يمكن أن يكون أكثر وجاهة من جهلها أمور العمل وتوسلها إليه كي يساعدها في أمورها المالية؟ كان لها من التجربة ما يجعلها تدرك أن أي رجل يمكن أن يشبع غروره مثل هذا الاعتراف بتفوقه. لقد أُشبع غرور ليونارد فول! ولعلها لم تكره جعل هذا الشاب يعرف أنها ثرية أيضاً. كانت إيميلي فرينش عجوزاً ذات إرادة قوية وعلى استعداد لدفع ثمن ما تريده.

كل هذا مرّ بسرعة في ذهن السيد مايهيرن، ولكنه لم يظهر ذلك بل طرح سؤالاً آخر: وهل قمت بالإشراف على أعمالها بناء على طلبها؟

- نعم.

- سيد فول، أريد أن أسألك سؤالاً مهماً جداً، وهو سؤال من الضروري أن تجيبني عليه إجابة صادقة. لقد كنتَ في ضائقة مالية، وكنت تشرف على أعمال السيدة العجوز، وهي التي كانت (حسب كلامها هي نفسها) تعرف القليل عن العمل التجاري أو لا تعرف عنه شيئاً أصلاً. فهل حوّلتَ لصالحك أياً من السندات المالية التي كنت تتعامل بها في أي وقت من الأوقات أو بأية طريقة كانت؟ هل دخلتَ من أجل مصلحتك الخاصة أياً من الصفقات المالية التي ليس من شأنها أن تقنع أحداً؟

ثم أسكت بإشارة من يده جواب الرجل الآخر قائلاً: انتظر دقيقة قبل أن تجيب. أمامنا طريقان سالكان: يمكننا أن نركز على أمانتك واستقامتك في إشرافك على أمورها لنوضح أن من غير

المحتمل أن تقوم بارتكاب جريمة قتل لتحصل على نقود ربما كان بإمكانك الحصول عليها بوسائل أسهل من القتل بكل تأكيد. ومن ناحية أخرى، وإذا كان في معاملاتك المالية الخاصة بها أية ثغرة قد تمسكها النيابة... ولأكن أكثر صراحة: إذا كان ممكناً إثبات أنك مارستَ الاحتيال على العجوز بأية طريقة كانت، فيجب علينا سلوك المسار القائل إنه لم يكن لديك أي دافع لارتكاب الجريمة لأن العجوز كانت -أساساً- مصدر دخل مربح لك. هل تفهم الفارق بين الطريقتين. والآن أرجوك أن تفكر قبل أن تجيب.

لكن ليونارد فول لم يفكر على الإطلاق: إن تعاملي مع الأمور المالية للآنسة فرينش تعامل نزيه تماماً وواضح ليس فيه ما هو مخفي مشبوه. لقد عملت من أجل مصالحها بأقصى ما يمكنني، كما يمكن أن يكتشف أي شخص يحقق في هذه المسألة.

- شكراً لك؛ لقد أرحت عقلي كثيراً، وإني لأعتقد أنك أذكى بكثير من أن تكذب عليّ في مسألة مهمة كهذه.

قال فول متلهفاً: من المؤكد أن أقوى نقطة لصالحي هي انتفاء الدافع للقتل. ولو افترضنا أنني تعمدت التعرف إلى عجوز ثرية على أمل الحصول على مال منها (وأحسب أن هذا هو جوهر ما كنتَ تقوله) فمن المؤكد أن وفاتها ستحبط كل آمالي، أليس كذلك؟

نظر إليه المحامي بثبات، ثم كرر لعبته مع نظارته دون قصد بطريقة متأنية جداً، ولم يتكلم إلاّ بعد أن وضعها على أنفه ثانية. قال: ألا تعرف -يا سيد فول- أن الآنسة فرينش تركت وصية جعلتك

بموجبها المستفيد الرئيس من تركتها؟

- ماذا؟

قفز المتهم على قدميه، وكان فزعه واضحاً غير متكلف: يا إلهي! ماذا تقول؟ تركت أموالها لي؟!

أومأ السيد مايهيرن برأسه ببطء، فيما جلس فول ثانية ورأسه بين يديه. ثم سأل المحامي: أتزعم أنك لا تعرف شيئاً عن هذه الوصية؟

- أزعم؟ لا يوجد في الأمر زعم؛ لم أعرف شيئاً عنها.

- وماذا تقول إن أخبرتك أن الخادمة جانيت ماكينزي تقسم أنك كنت تعرف؟ وأن سيدتها أخبرتها بوضوح أنها بحثت هذا الأمر معك وأخبرتك عن نواياها؟

- ماذا أقول؟ أقول إنها تكذب! كلا، بل أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك. إن جانيت امرأة كهلة كانت بمثابة كلب حراسة مخلص لسيدتها ولم تكن تحبني. كانت غيورة وشكاكة، وأحسب أن الآنسة فرينش قد أسرّت بنواياها لجانيت، وإمّا أن تكون جانيت هذه قد أساءت فهم شيء قالته سيدتها أو أنها كانت مقتنعة في قرارة نفسها بأنني أقنعت العجوز بفعل ذلك. وأظن أنها تصدق نفسها الآن بأن الآنسة فرينش قد أخبرتها عن ذلك بالفعل.

- أتظن أنها تكرهك لدرجة أن تكذب بخصوص هذه المسألة عامدة؟

بدا ليونارد فول مصدوماً وخائفاً وهو يقول: كلا في الحقيقة! ولماذا تفعل ذلك؟

قال السيد مايهيرن متأملاً: لا أدري، ولكنها متحاملة عليك كثيراً.

زمجر الشاب البائس ثانية قائلاً: بدأت أفهم. إنه لأمر مخيف! سيقولون إنني غازلتها ثم أقنعتها بأن تكتب وصية تترك فيها أموالها لي، ثم ذهبت إلى هناك تلك الليلة حيث لا أحد في البيت... ووجدوها هناك في اليوم التالي. أووه، يا إلهي! هذا مخيف!

- أنت مخطئ في مسألة عدم وجود أحد في البيت، فكما تتذكر كانت جانيت ستخرج في تلك الليلة. وقد خرجت، ولكنها عادت في نحو الساعة التاسعة والنصف لتحضر تصميماً لأكمام قميص كانت قد وعدت به صديقة لها، وقد دخلت من الباب الخلفي وصعدت الدرج فأحضرت التصميم ثم خرجت ثانية. وقد سمعت أصواتاً في غرفة الجلوس رغم أنها لم تستطع تمييز ما كان يُقال، لكنها واثقة من سماعها صوت الآنسة فرينش وصوت رجل آخر.

- الساعة التاسعة والنصف. التاسعة والنصف...

ثم قفز واقفاً وقال: لقد نجوتُ إذن... نجوت!

صاح السيد مايهيرن ذاهلاً: ماذا تعني بأنك نجوت؟

- بحلول الساعة التاسعة والنصف كنت قد عدت إلى البيت، وزوجتي تستطيع إثبات ذلك. لقد تركت الآنسة فرينش في نحو

الساعة التاسعة إلاّ خمس دقائق ووصلت إلى البيت في التاسعة والثلث تقريباً، وكانت زوجتي هناك في انتظاري. آه! الحمد لله، الحمد لله! وبارك الله في تصميم قميص جانيت ماكينزي.

في خضم حماسته لم يلاحظ أن ملامح التجهم على وجه المحامي لم تتغير، لكن كلمات المحامي صدمته: إذن مَن الذي قتل الآنسة فرينش برأيك؟

- لص بالطبع، كما اعتقدوا في البداية. لقد كانت النافذة مكسورة كما تتذكر. لقد قُتلت بواسطة ضربة قوية من عتلة، وقد وُجدت العتلة على الأرض بجانب الجثة. وقد فُقدت عدة أغراض، ولولا شكوك جانيت السخيفة فيّ وكرهها لي ما كان الشرطة سينحرفون عن المسار الصحيح.

- هذا لن يفيد يا سيد فول؛ فالأشياء التي فُقدت كانت أشياء تافهة لا قيمة لها؛ أُخذت بغرض التمويه، كما أن العلامات التي وُجدت على النافذة لم تكن مقنعة كثيراً. وإلى جانب ذلك فكر في هذا الأمر بنفسك. فأنت تقول إنك لم تكن في البيت في الساعة التاسعة والنصف. مَن هو الرجل الذي سمعتْه جانيت يتحدث مع الآنسة فرينش في غرفة الجلوس؟ أكانت تتحدث حديثاً ودياً مع لص سارق؟

- لا، لا

بدا مرتبكاً خائفاً، ثم أضاف وقد انتعشت معنوياته ثانية: ولكن هذا يبرئني على أية حال. إن لديّ دفعاً بالغيبة عن مكان الجريمة. يجب أن تقابل رومين، زوجتي، على الفور.

وافقه المحامي قائلاً: بالتأكيد. لقد أردت رؤية زوجتك، ولكنها كانت غائبة عندما تم اعتقالك، وقد فهمت أنها ستعود الليلة. سأقوم بزيارتها حالما أغادر هذا المكان.

أومأ فول برأسه وقد ارتسمت على وجهه علامات الرضا وقال: نعم؛ رومين ستخبرك. يا إلهي! إن هذه فرصة سعيدة.

- اعذرني يا سيد فول لهذا السؤال، ولكن هل تحب زوجتك كثيراً؟

- بالطبع.

- وهي، هل تحبك؟

- رومين مخلصة لي، وهي تفعل أي شيء في الدنيا من أجلي.

تكلم بحماسة، ولكن حماسة المحامي تراجعت قليلاً. فهل يمكن للمحكمة الأخذ بشهادة زوجة مخلصة؟

- هل شاهدك أي شخص آخر وأنت تعود في الساعة التاسعة والثلث؟ خادمة على سبيل المثال؟

- ليس عندنا خادمة.

- هل قابلت أحداً في الشارع وأنت عائد؟

- لم أقابل أحداً أعرفه. لقد ركبتُ الحافلة مسافة من الطريق. قد يتذكرني عامل التذاكر.

هز السيد مايهيرن رأسه بارتياب وقال: إذن لا يوجد أحد يمكنه أن يؤكد على شهادة زوجتك؟

- نعم. لكن هذا ليس ضرورياً بالتأكيد.

- لا أظن ذلك، لا أظن ذلك. بقي شيء واحد آخر أكانت الآنسة فرينش تعرف أنك متزوج؟

- آه، نعم.

- ومع ذلك لم تأخذ زوجتك لكي تراها. لماذا؟

لأول مرة جاءت إجابة ليونارد فول متلعثمة وغامضة: حسناً... لا أعرف.

- أتعلم أن جانيت ماكينزي تقول إن سيدتها كانت تظنك أعزب، وإنها كانت تفكر في الزواج بك في المستقبل؟

ضحك فول وقال: هذا هراء! فارق العمر بيننا أربعون سنة.

قال المحامي بجفاء: لقد حدث هذا من قبل. إذن ألم تلتقِ زوجتك بالآنسة فرينش قط؟

- نعم، لم تلتقِ بها...

بدا الارتباك من جديد.

- اسمح لي أن أقول إنني لا أفهم موقفك في هذه المسألة.

احمرّ وجه فول وتردد ثم تكلم: سأصارحك بالأمر. كنت مُعسراً كما تعرف، وكنت آمل أن تقرضني الآنسة فرينش بعض المال. كانت تحبني كثيراً، لكنها لم تكن لتهتم بمكابدة زوجين شابين. ومنذ

البداية وجدتُ أنها فهمت أنني لم أكن على وئام مع زوجتي وأننا كنّا نعيش منفصلين. سيد مايهيرن، لقد أردت المال... من أجل رومين. لم أقل شيئاً وتركت السيدة العجوز تعتقد ما تشاء. ولقد تكلمَتْ عن اعتباري ولداً لها بالتبني، ولكن لم تُذكر مسألة زواج أبداً. لا بد من أن ذلك كان من نسج خيال جانيت.

- أهذا كل ما في الأمر؟

- نعم؛ هذا كل ما في الأمر.

أكان في الكلمات ظل من التردد؟ هذا ما أحسّ به المحامي. نهض ومدّ يده مصافحاً وهو يقول: وداعاً يا سيد فول.

نظر إلى وجه الشاب المرهق وتكلم بعفوية غير معتادة منه: أحسب أنك بريء رغم الحقائق المتعددة التي تتجمع ضدك، وأرجو أن أثبت ذلك وأبرئك تماماً.

ابتسم فول في وجهه وقال مبتهجاً: سوف ترى أن دليل غيابي عن مكان الجريمة صحيح.

مرة أخرى لم يلاحظ أن الرجل الآخر لم يستجب له. قال السيد مايهيرن: الأمر يتوقف كثيراً على شهادة جانيت ماكينزي، وهي تكرهك. هذا واضح جداً.

عارضه الشاب قائلاً: ولكنها لا تكاد تمتلك دافعاً لكرهي.

هز المحامي رأسه وهو خارج من عنده وقال في نفسه: والآن إلى السيدة فول.

* * *

كان سكن فول وزوجته في بيت صغير متواضع قرب بادينغتون غرين، وقد ذهب السيد مايهيرن إلى هذا البيت. وعندما قرع الجرس ردت عليه امرأة ضخمة قذرة كان واضحاً أنها خادمة نهارية، فسألها: السيدة فول؟ هل عادت؟

- لقد عادت قبل ساعة واحدة، لكني لا أعرف إن كنت تستطيع رؤيتها.

قال المحامي بهدوء: إذا أعطيتِها بطاقتي فأنا واثق جداً من أنها ستحب رؤيتي.

نظرت المرأة إليه بارتياب ومسحت يدها بصدرية العمل وأخذت البطاقة، ثم أغلقت الباب في وجهه وتركته خارج البيت على العتبة. ولكنها عادت بعد بضع دقائق وقد تغير أسلوبها قليلاً: تفضل أرجوك.

قادته إلى غرفة استقبال صغيرة. وراح السيد مايهيرن يتفحص إحدى اللوحات على الحائط، ثم رفع بصره فجأة ليواجه امرأة طويلة القامة شاحبة كانت قد دخلت بهدوء شديد لدرجة أنه لم يسمعها.

- سيد مايهيرن، هل أنت محامي زوجي؟ أجئت من عنده؟ هلاّ جلست؟

لم يدرك أنها غير إنكليزية إلى أن تكلمت، والآن وهو يلاحظها عن قرب أكثر لاحظ عظام فكها البارزة وشعرها الأسود الحالك، كما لاحظ حركة بسيطة في يديها من وقت لآخر كان واضحاً أنها حركة امرأة أجنبية. امرأة غريبة، هادئة جداً، هادئة إلى حد يجعل

المرء يشعر بالخوف. ومنذ البداية أدرك السيد مايهيرن أنه أمام شيء غير عادي لم يكن يفهمه.

بدأ بالقول: "والآن، عزيزتي السيدة فول، يجب ألاّ تستسلمي إلى الـ... ، ثم سكت.

كان واضحاً جداً أن رومين لم يكن لديها أدنى ميل إلى الاستسلام. كانت هادئة جداً ورابطة الجأش، وقالت: هلاّ أخبرتني كل شيء عن هذا الأمر؟ يجب أن أعرف كل شيء. لا تفكر في تجنيبي أية معلومة. أريد أن أعرف الأسوأ.

ترددت قليلاً، ثم كررت كلامها بنبرة أضعف مع تشديد غريب عليه لم يفهمه المحامي: أريد أن أعرف الأسوأ.

سرد لها السيد مايهيرن مقابلته مع ليونارد فول. واستمعت إليه مصغيةً وهي تهز رأسها من وقت لآخر، وعندما انتهى قالت: فهمت. هل يريدني أن أقول إنه جاء إلى البيت الساعة التاسعة والثلث؟

قال السيد مايهيرن بحدة: لقد عاد في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

قالت ببرود: ليس هذا هو الموضوع. هل ستبرئه شهادتي هذه؟ هل سيصدقونني؟

ذُهل السيد مايهيرن؛ فقد دخلت بسرعة في لب المسألة. قالت: هذا ما أريد أن أعرفه. هل سيكون هذا كافياً؟ هل يوجد أي شخص آخر يمكنه تأييد شهادتي؟

كان في سلوكها لهفة مكتومة جعلته يحس بعدم ارتياح غامض. قال بتردد: حتى الآن لا يوجد أي شخص آخر.

- فهمت.

جلست ساكنة تماماً لبعض الوقت، وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة.

ازداد إحساس المحامي بالذعر أكثر فأكثر، وبدأ بالقول: سيدة فول، أعرف ما تشعرين به...

- أتعرف حقاً؟ لستُ واثقة من ذلك.

- في ظل هذه الظروف...

- في ظل هذه الظروف... أعتزم التصرف بمفردي.

نظر إليها بيأس وقال: ولكن يا عزيزتي السيدة فول، إنك ثائرة الأعصاب، ولأنك شديدة التعلق بزوجك...

- عفواً، ماذا قلت؟

حدة صوتها جعلته يجفل. ردّد عبارته متردداً: لأنك شديدة التعلق بزوجك...

أومأت رومين برأسها ببطء وعلى شفتيها نفس الابتسامة الغريبة، ثم قالت بهدوء: أقال لك إنني متعلقة به؟ آه، نعم! أرى أنه أخبرك ذلك. يا لغباء الرجال! أغبياء، أغبياء، أغبياء!

ثم نهضت فجأة وقالت وقد تركزت في صوتها كل العاطفة المكثفة التي شعر المحامي بوجودها في الجو: إنني أكرهه، أكرهه، أكرهه! وأود لو أراه مشنوقاً حتى الموت.

تراجع المحامي أمامها وأمام الانفعال المتوقد في عينيها، ولكنها اقتربت خطوة إلى الأمام وواصلت حديثها بحماسة: ولعلي أرى ذلك المشهد. ماذا لو أُخبرك أنه لم يأتِ في تلك الليلة الساعة التاسعة والثلث، بل في العاشرة والثلث؟ تقول إنه أخبرك أنه لم يكن يعرف شيئاً عن المال الذي سيرثه. ماذا لو قلتُ لك إنه كان يعرف كل شيء عن ذلك، وكان يعتمد على ذلك الأمر، وارتكب جريمة القتل للحصول عليه؟ ماذا لو قلت لك إنه اعترف لي لدى عودته تلك الليلة بكل ما فعله؟ وأنه كان على معطفه دم؟ ماذا سيحصل عندها؟ ماذا لو وقفت في المحكمة وقلت كل هذه الأشياء؟

بدا للمحامي وكأن عينيها تتحديانه، فأخفى أساه المتنامي بجهد كبير وحاول أن يتكلم بنبرة عقلانية: لا يمكن أن تُطلب منك الشهادة ضد زوجك...

- إنه ليس زوجي!

خرجت الكلمات بسرعة تخيل معها أنه أساء فهمها.

- عفواً، ماذا قلت؟ إنني...

- إنه ليس زوجي.

ساد صمت شديد بحيث يمكنك أن تسمع صوت سقوط الإبرة

على الأرض، ثم مضت قائلة: لقد كنت ممثلة في فينا، ولي زوج على قيد الحياة في مستشفى المجانين، ولذلك لم يكن بإمكاننا الزواج. إنني مسرورة الآن.

أومأت برأسها متحدية، فقال السيد مايهيرن وهو يحاول أن يظهر نفسه بارداً غير منفعل كشأنه دائماً: أريدك أن تخبريني شيئاً واحداً. لماذا أنت حاقدة على ليونارد فول إلى هذه الدرجة؟

هزت رأسها وهي تبتسم قليلاً وقالت: نعم. إنك تحب أن تعرف، لكنني لن أخبرك، بل سأحتفظ بسري هذا.

سعل السيد مايهيرن سعلته الجافة المعتادة ونهض قائلاً: لا تبدو فائدة من إطالة هذه المقابلة. سأتصل بك ثانية بعد أن أتصل بموكلي.

اقتربت منه وهي تنظر في عينيه بعينيها السوداوين وقالت: أخبرني، أكنتَ تعتقد صادقاً أنه بريء عندما جئتَ إلى هنا اليوم؟

- نعم، كنتُ أعتقد ذلك.

ضحكت قائلة: أيها المسكين!

أنهى المحامي كلامه: وما زلت أعتقد ذلك. طابت ليلتك يا سيدتي.

خرج المحامي من الغرفة حاملاً معه ذكرى وجهها المذعور، ثم قال يحدث نفسه وهو يسير في الشارع: "ستكون هذه القضية رهيبة. إن الأمر كله غريب. هذه امرأة غير عادية، امرأة خطيرة جداً. إن النساء

مثل الشياطين عندما يغرسن سكاكينهن في جسدك. ما الذي يجب عمله؟ ذلك الشاب البائس ليس لديه أي أمل. ربما ارتكب جريمة القتل هذه بالطبع... ، ولكن سرعان ما قال المحامي في نفسه: "لا ، لا ، فالأدلة ضده أكثر من أن تكون صادقة. لا أصدق هذه المرأة؛ لقد لفّقت القصة كلها... ولكنها لن تذكر ذلك في المحكمة"

وتمنى لو أنه أحس باقتناع أكبر في هذه النقطة.

* * *

كانت إجراءات محكمة الشرطة مختصرة ومثيرة، وكان شاهدا الإثبات الرئيسان هما جانيت ماكينزي، خادمة القتيلة، ورومين هيلجر، المواطنة النمساوية التي مثلت في الماضي دور زوجة المتهم.

جلس السيد مايهيرن في المحكمة وأصغى إلى القصة الشريرة التي روتها هذه المرأة الأخيرة، وقد جاءت شهادتها وفق ما أوضحته له أثناء لقائهما.

تمسك المتهم بدفاعه وتمت إحالته إلى المحاكمة، وقد تملكت الحيرة عقل السيد مايهيرن. كانت القضية ضد ليونارد فول قاتمة لدرجة لا توصف، وحتى المستشار القانوني الشهير الذي تم استخدامه للدفاع لم يكن لديه أمل كبير، فقد قال بارتياب: إذا استطعنا زعزعة شهادة المرأة النمساوية فقد نفعل شيئاً. لكنها قضية سيئة.

ركز السيد مايهيرن كل طاقته على نقطة واحدة. فبافتراض صحة ما يقوله ليونارد فول من أنه ترك بيت المرأة القتيلة في الساعة التاسعة، مَن يكون ذلك الرجل الذي سمعته جانيت يتحدث مع الآنسة فرينش في التاسعة والنصف؟

كان الأمل الوحيد موجوداً في ابن أختٍ شرير للقتيلة كان قد تملق في الماضي خالته ثم هددها لكي يحصل منها على مبالغ من النقود. وقد علم المحامي أن جانيت ماكينزي كانت متعلقة بذلك الشاب ولم تتوقف أبداً عن الإلحاح على سيدتها لقبول مطالبه. بدا ممكناً أن ابن أختها هذا هو الذي كان يتحدث مع الآنسة فرينش بعد مغادرة ليونارد فول، خصوصاً وأنه لم يتم العثور عليه في أي من أماكنه التي اعتاد ارتيادها.

وفي جميع الاتجاهات الأخرى كانت أبحاث المحامي سلبية في نتيجتها. فلم يرَ أحدٌ ليونارد فول وهو يدخل بيته أو يغادر بيت الآنسة فرينش، ولم يرَ أحدٌ أي رجل آخر يدخل أو يغادر بيت العجوز في كريكلوود. ووصلت كل التحريات إلى طريق مسدود.

ولكن في ليلة المحاكمة تلقى السيد مايهيرن تلك الرسالة التي وجهت أفكاره نحو اتجاه جديد كلياً. جاءت الرسالة في بريد الساعة السادسة، وكانت مكتوبة بخط كبير ممطوط، وعلى ورقة عادية، في مغلف قذر عليه طابع ملصق بطريقة مائلة.

قرأها السيد مايهيرن بتمعن مرتين قبل أن يفهم معناها:

سيدي العزيز،

أنت المحامي الذي يعمل لصالح ذلك الشاب، فإن كنت تريد اكتشاف تلك الأجنبية الساقطة على حقيقتها ورؤية أكاذيبها فتعال إلى بناية شو في الشارع رقم ١٦ في ستيبني هذه الليلة. سيكلفك هذا مئتي جنيه. اسأل عن السيدة موجسون.

قرأ المحامي هذه الرسالة الغريبة مرة بعد أخرى. قد تكون خدعة بالطبع، ولكن حين فكر بها ثانية زادت قناعته بأنها حقيقية، واقتنع أيضاً بأنها كانت الأمل الوحيد للمتهم، فقد دانته شهادة رومين هيلجر إدانة كاملة، وكان الأسلوب الذي عزم الدفاع على اتباعه (وهو عدم الثقة بشهادة امرأة تعيش حياة لاأخلاقية) أسلوباً لا يمكن الركون إليه؛ فهو ضعيف في أحسن حالاته.

عزم السيد مايهيرن أمره؛ فقد كان من واجبه إنقاذ موكله مهما كلف الأمر. يجب أن يذهب إلى بناية شو.

وجد بعض الصعوبة في العثور على المكان؛ فقد كانت بناية متداعية آيلة إلى السقوط في حي فقير تفوح منه رائحة كريهة، ولكنه وصل إلى البناية في النهاية، وعندما استفسر عن السيدة موجسون دلّوه على غرفة في الطابق الثالث. دق بابها فلم يحصل على إجابة، ثم دق ثانية.

عند هذه الطرقة الثانية سمع صوت مشية متثاقلة في الداخل، وسرعان ما فُتح الباب بحذر فتحة صغيرة وأطلت منه امرأة محنية الجسد. وفجأة ضحكت المرأة ضحكة خفيفة وفتحت الباب فتحة أوسع قائلة بصوت صافر: أهذا أنت إذن يا عزيزي؟ هل معك أحد؟ لا حيل لديك؟ حسناً إذن، يمكنك الدخول، يمكنك الدخول.

دخل المحامي الغرفة بشيء من التردد، وكانت غرفة صغيرة قذرة يضيئها فانوس ذو شعلة مرتعشة، وفي الزاوية كان سرير غير مرتب وطاولة كبيرة عادية وكرسيان متداعيان. ولأول مرة نظر السيد مايهيرن إلى ساكنة هذه الغرفة الكريهة.

كانت امرأة في وسط العمر، محنية الجسد، ذات شعر رمادي أشعث ووشاح ملفوف حول وجهها بإحكام. ورأته ينظر إلى وشاحها فضحكت ثانية، نفس الضحكة الغريبة البغيضة، ثم قالت: أتتعجب لماذا أخفي جمالي يا عزيزي؟ ها، ها، ها... أتخشى أن يغريك جمالي؟ لكنك سترى، سترى!

سحبت الوشاح جانباً وتراجع المحامي لاإرادياً أمام منظر بقعة قرمزية لا شكل لها. وضعت الوشاح ثانية وقالت: إذن فأنت لا تريد أن تقبلني يا عزيزي؟ ها ها... لا عجب في ذلك. ومع ذلك فقد كنت فتاة جميلة يوماً ما، ليس قبل فترة طويلة كما تظن. إنها مادة كاوية يا عزيزي. آه، ولكني سأقتص منهم!

انفجرت في نوبة من الشتائم الغامضة التي حاول السيد مايهيرن تهدئتها عبثاً، وأخيراً سكتت وهي تقبض يديها وتفتحهما بعصبية.

قال المحامي بعناد: يكفي هذا. لقد جئت إلى هنا لأن لدي ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنك تستطيعين إعطائي معلومات يمكن أن تبرئ موكلي ليونارد فول. هل هذا صحيح؟

نظرت إليه نظرة ماكرة وقالت: ماذا عن النقود يا عزيزي؟ تذكّر، مئتي جنيه.

- من واجبك أن تدلي بشهادتك، ويمكن أن يجري استدعاؤك لتفعلي ذلك.

- هذا لن يفيد يا عزيزي؛ فأنا امرأة مسنّة ولا أعرف شيئاً. ولكن أعطني مئتي جنيه وربما أستطيع إعطاءك تلميحاً أو تلميحين. أتفهمني؟

- أي نوع من التلميحات؟

- ماذا تقول في رسالة؟ رسالة منها. لا تهتم الآن بكيفية حصولي عليها؛ فهذا شأني. ستؤدي الرسالة الغرض، ولكن أريد مئتي جنيه قبل ذلك.

نظر السيد مايهيرن إليها نظرة باردة ثم عزم أمره: سأعطيك عشرة جنيهات لا أكثر، ولن أعطيك إياها إلاّ إذا كانت هذه الرسالة كما تقولين تماماً.

صاحت واهتاجت: عشرة جنيهات؟

- عشرين، وهذه كلمتي الأخيرة.

نهض كمن يريد الذهاب، ثم أخرج محفظته من جيبه وهو يراقبها بإمعان وعدَّ واحداً وعشرين جنيهاً ثم قال: كما ترين؛ هذا كل ما أحمله. يمكنك أن تأخذيها أو تتركيها.

لكنه عرف أن منظر النقود كان أكثر إغراء من أن تقاومه. شتمت وصاحت ولكنها استسلمت أخيراً، فذهبت إلى السرير وأخرجت شيئاً من تحت الفراش البالي.

زمجرت قائلة: ها هي، تباً لك! إن التي تريدها في الأعلى.

كانت قد ألقت إليه حزمة من الرسائل، وفكّ السيد مايهيرن الحزمة وتفحصها بطريقته الباردة المنهجية المعتادة. راقبته المرأة بلهفة لكنها لم تفهم من تعابير وجهه شيئاً. قرأ كل رسالة بإمعان ثم عاد إلى الرسالة الأولى وقرأها ثانية، ثم ربط الحزمة كلها ربطاً محكماً.

كانت رسائل حب كتبتها رومين هيلجر، والرجل الذي كتبتها إليه لم يكن ليونارد فول. كانت الرسالة العلوية مؤرخة في اليوم الذي أعقب اعتقال ليونارد فول.

قالت المرأة: إنني أقول الحقيقة، أليس كذلك؟ ستدحض هذه الرسالة روايتها، أليس كذلك؟

وضع السيد مايهيرن الرسائل في جيبه ثم سأل المرأة: كيف حصلت على هذه الرسائل؟

قالت بخبث: هذا كشف للسر! لكنني أعرف شيئاً آخر؛ لقد سمعت في المحكمة ما قالته تلك الساقطة. لقد عرفتُ أين كانت في العاشرة والثلث، وهو الوقت الذي تقول إنها كانت فيه في البيت. اسأل عنها في سينما شارع لايون، فسوف يتذكرون فتاة جميلة كهذه... تباً لها!

- من هو الرجل؟ لم يرد في الرسالة سوى الاسم الأول فقط.

كان صوت المرأة أجشَّ غليظاً، وكانت تطبق يديها وتفتحهما، وأخيراً رفعت يداً إلى وجهها وقالت: إنه الرجل الذي فعل هذا بي... قبل عدة سنوات. لقد أخذَتْه مني، وكانت -وقتَها- فتاة صغيرة. وعندما ذهبت أبحث عنه ألقى بهذا السائل الجهنمي على وجهي! وقد ضحكَتْ هي، تباً لها! لم أنسَ موقفها هذا أبداً. والآن أمسكت بها! سوف تعاني وتدفع ثمن هذا، أليس كذلك يا حضرة المحامي؟ سوف تعاني!

- ربما سيحكم عليها بالسجن مدة معينة بسبب شهادة الزور.

- هذا ما أريده. هل أنت ذاهب؟ أين نقودي؟ أين تلك النقود الرائعة؟

ودون أن يتفوه بكلمة واحدة وضع السيد مايهيرن النقود على الطاولة، ثم التفت وهو يسحب نفساً عميقاً وترك الغرفة القذرة، وعندما نظر وراءه رأى المرأة العجوز وهي تدندن ممسكة بالنقود.

* * *

لم يضيع أي وقت. وجد السينما في شارع لايون بسهولة، وعندما أخرج صورة لرومين هيلجر عرفها البواب على الفور. كانت قد وصلت إلى السينما مع رجل بعد العاشرة بقليل في مساء اليوم المذكور، ولم ينتبه البواب كثيراً للرجل الذي كان يرافقها، ولكنه تذكر السيدة التي تحدثت معه عن الفِلم الذي كان يعرض. وقد مكثا حتى نهاية الفِلم بعد ذلك بساعة.

بدا السيد مايهيرن راضياً؛ فقد كانت شهادة رومين هيلجر نسيجاً من الأكاذيب من البداية وحتى النهاية. لقد اختلقتها بدافع من حقدها الشديد، وتساءل المحامي إن كان سيعرف سبب ذلك الحقد. ما الذي فعله لها ليونارد فول؟ لقد بدا مصعوقاً عندما أبلغه المحامي بموقفها، وقد أعلن -جاداً- أن ذلك الأمر لا يمكن تصديقه. ومع ذلك بدا للسيد مايهيرن أن احتجاجاته افتقرت إلى الصدق بعد ذهوله الأول.

كان يعرف فعلاً، وكان السيد مايهيرن مقتنعاً بذلك. كان يعرف، ولكنه لم يُرِدْ كشف هذه الحقيقة. سيبقى السر بين هذين الاثنين سراً، وتساءل السيد مايهيرن إن كان سيعلم يوماً حقيقة هذا السر.

* * *

أثارت محاكمة ليونارد فول لقتله إيميلي فرينش اهتماماً واسعاً، ففي المقام الأول كان المتهم شاباً ووسيماً، وكان متهماً بارتكاب جريمة قتل خسيسة. وكان هناك اهتمام آخر برومين هيلجر، شاهدة الإثبات الرئيسة التي نُشرت صورها في كثير من الصحف كما نُشرت عدة روايات خيالية عن أصلها وتاريخها.

بدأت المرافعات بهدوء، فاستمعت المحكمة إلى عدة شهادات فنية في البداية، ثم استُدعيت جانيت ماكينزي. وقد ذكرت -عموماً- نفس الرواية التي ذكرتها من قبل، وعندما استجوبها محامي الدفاع نجح في جعلها تناقض نفسها في بعض الأقوال عن ارتباط فول بالآنسة فرينش، حيث أكد المحامي على أنها رغم سماعها صوت رجل في غرفة الجلوس تلك الليلة إلاّ أنه لم يكن ما يدل على أنه

صوت فول، وقد نجح في إشاعة انطباع بأن أقوالها هذه ترجع إلى إحساسها بالغيرة منه وكراهيتها له.

ثم تم استدعاء الشاهدة الثانية.

- اسمك رومين هيلجر؟

- نعم.

- هل أنت مواطنة نمساوية؟

- نعم.

- لقد عشت مع المتهم طوال السنوات الثلاث الماضية وكنت تزعمين أنك زوجته؟

التقت عينا رومين هيلجر لحظة بعيني الرجل القابع داخل القفص. كانت ملامح وجهها غريبة وغير مفهومة، وأجابت قائلة: نعم.

تواصلت الأسئلة، وخرجت الحقائق التي تدين الرجل كلمة إثر كلمة. ففي ليلة الجريمة أخذ المتهم معه عتلة من البيت، وعاد في العاشرة والثلث واعترف للمرأة بأنه قتل السيدة العجوز. كانت أطراف أكمامه ملطخة بالدماء، وقد حرق هذه الملابس في فرن المطبخ. وقد أرعبها وهددها بالتزام الصمت.

وعندما تواصلت الرواية تغيرت مشاعر كادر المحكمة في غير صالح المتهم بعد أن كانت في البداية تحمل بعض التعاطف معه، وقد جلس المتهم مطأطئ الرأس متجهماً وكأنه عرف بأنه سيُدان.

ومع ذلك فربما لوحظ أن محاميها الخاص كان يسعى لجعل رومين تكبت حقدها. كان يفضّل لها أن تكون شاهدة محايدة.

ثم نهض محامي الدفاع بتثاقل وبطء، فأوضح لها أن روايتها كانت ملفقة بخبث من بدايتها حتى نهايتها، وأنها لم تكن موجودة في بيتها في الوقت موضوع السؤال، وأنها كانت تحب رجلاً آخر ولذلك تعمدت إرسال فول إلى حبل المشنقة على جريمة لم يرتكبها.

أنكرت رومين هذه المزاعم بكثير من الوقاحة، ثم جاء حل العقدة المفاجئ... إخراج الرسالة. وقُرئت الرسالة على مسمع من المحكمة بصوت مرتفع وسط الأنفاس المحبوسة:

حبيبي ماكس،

لقد ساقته الأقدار للوقوع بين أيدينا! لقد اعتُقل بتهمة القتل. نعم، قتل امرأة عجوز. ليونارد الذي لا يستطيع إيذاء ذبابة! وأخيراً سأنتقم. يا له من مسكين! سأقول إنه جاء في تلك الليلة ملطخاً بالدماء وإنه اعترف لي بما فعله. سأشنقه يا ماكس، وعندما يقف على عمود المشنقة سيعرف ويدرك أن رومين هي التي أرسلته إلى حتفه. وبعد ذلك... ستأتي السعادة، السعادة أخيراً!

كان في المحكمة خبراء حاضرون لكي يقسموا بأن الخط هو خط يد رومين هيلجر، ولكن لم تكن لذلك حاجة؛ فعندما ووجهت رومين بالرسالة انهارت تماماً واعترفت بكل شيء. فقد عاد ليونارد فول إلى البيت في الوقت الذي قاله؛ التاسعة والثلث، وهي قد اخترعت القصة كلها لكي تحطم حياته.

وبانهيار رومين هيلجر انهارت قضية الحق العام أيضاً. استدعى محامي الادعاء شهوده القلائل، كما أن المتهم نفسه ذهب إلى منصة الشهادة وأخبر بقصته بصراحة وجرأة ودون أن يهزه الاستجواب. وحاول الادعاء تجميع قواه ولكن بلا نجاح كبير، ولم يحتج المحلفون إلى وقت طويل لإصدار حكمهم: وجدنا أن المتهم غير مذنب.

أصبح ليونارد فول حراً. وأسرع السيد مايهيرن من مقعده، إذ يجب أن يهنّئ موكله.

وجد نفسه يمسح نظارته بنشاط، ثم منع نفسه من ذلك؛ فقد أخبرته زوجته الليلة الماضية أن هذه الممارسة أصبحت عادة لديه. إن العادات أمور غريبة... فالناس أنفسهم لا ينتبهون أبداً إلى تطويرهم لهذه العادات.

قضية مثيرة للاهتمام، مثيرة جداً. يا لتلك المرأة، رومين هيلجر!

رأى أن الشخصية الغريبة لرومين هيلجر هي التي سيطرت على هذه القضية. كانت قد بدت امرأة هادئة شاحبة في بيتها في بادينجتون، لكنها في المحكمة تفجرت غضباً في ذلك الجو الجدي. ولو أغلق عينيه لكان بوسعه أن يتخيلها الآن في حماستها وجسدُها الطويل ينحني إلى الأمام قليلاً وهي تقبض يدها اليمنى وتفتحها دون وعي طوال الوقت. العادات أمور غريبة. أدرك أن حركة يدها تلك كان عادة عندها، ثم أدرك أنه كان قد رأى شخصاً آخر يفعل نفس هذه الحركة قبل فترة قصيرة. من تراه كان؟ قبل وقت قصير...

تسارعت أنفاسه ولهث عندما تذكّر؛ إنها المرأة التي تسكن بناية شو!

وقف جامداً ورأسه يدور. كان ذلك مستحيلاً، مستحيلاً! ولكن ألم تكن رومين هيلجر ممثلة؟

جاء المستشار القانوني وراءه وربت على كتفه قائلاً: هل هنأت موكلنا؟ لقد نجا بشق النفس. تعال لنراه.

لكن المحامي تخلص من يد المستشار القانوني؛ فقد كان يريد شيئاً واحداً فقط: أن يرى رومين هيلجر وجهاً لوجه.

لم يرها إلاّ بعد مرور بعض الوقت على المحاكمة، ولم تكن لمكان اللقاء أهمية. قالت عندما أخبرها بكل ما كان يدور في رأسه: إذن فقد خمنت! الوجه؟ آه، كان ذلك عملاً سهلاً، كما أن ضوء الفانوس كان سيئاً جداً، لذلك لم تَرَ المساحيق على وجهي جيداً.

- ولكن لماذا؟ لماذا؟

- لماذا تصرفتُ بمفردي؟

ابتسمت قليلاً وهي تتذكر آخر مرة استخدمت فيها هذه العبارة، ثم قالت: يا صديقي، كان يجب عليّ أن أنقذه. إن شهادة امرأة تحبه لم تكن كافية. أنت نفسك لمّحت إلى هذا. ولكني أعرف شيئاً عن نفسية العامة، ولذلك تركت أقوالي تُنتزع منّي لتلعنني في عيون القانون، وبذلك يصدر رد فعل فوري في صالح المتهم.

- وماذا عن الرجل الذي يدعى ماكس؟

- ليس له وجود أبداً يا صديقي.

قال السيد مايهيرن بأسلوب حزين: ما زلت أرى أننا كنّا نستطيع تبرئته بالطريقة الطبيعية.

- ما كنت لأجازف بذلك؛ فأنت كنتَ تظن ظناً فقط أنه بريء.

- فيما كنتِ أنتِ متأكدة من براءته؟ فهمت.

- يا سيد مايهيرن العزيز، أنت لا تفهمني أبداً. لقد كنت أعرف أنه كان مذنباً!

* * *

لغز الجرة الزرقاء

نظر جاك هارتينغتُن إلى كرة الغولف التي قذفها في الهواء نظرة حزينة، وحين كان واقفاً بجانب الكرة نظر وراءه إلى النقطة التي ضرب منها الكرة ليقيس المسافة. أظهر وجهه بوضوح ما يحس به من اشمئزاز، ثم أخرج مضرب الغولف وهو يتنهد وضرب به الأرض مرتين بقوة بحيث قضى على زهرة صغيرة وبقعة من العشب، ثم كرس نفسه للكرة تماماً.

إنه لمن الصعب أن تكون في الرابعة والعشرين، ويكون طموحك الوحيد في الحياة هو تخفيف عجزك في لعبة الغولف، وأن تكون مجبراً على تخصيص وقت وانتباه لمشكلة كسب عيشك. خمسة أيام ونصف من كل أسبوع يكون فيها جاك سجيناً في مكتب خشبي كالقبر في المدينة، وابتداء من بعد ظهر السبت وطوال يوم الأحد يكون هذا الوقت مكرساً للعمل الحقيقي للحياة. وفي موجة حماسة زائدة حجز غرفة في فندق صغير قرب ملعب ستورتون هيث للغولف، وكان ينهض كل يوم في الساعة السادسة صباحاً لكي يتدرب ساعة قبل اللحاق بقطار الساعة التاسعة إلا ربعاً إلى المدينة.

السيئة الوحيدة في هذه الخطة أنه بدا غير قادر على ضرب أية كرة في تلك الساعة من الصباح، فمن ضربة رديئة إلى أخرى فاشلة.

وكانت ضربات عصا الغولف لا ترتفع بالكرة عن الأرض، وبدا أنه يحتاج إلى أربع ضربات على الأقل ليدخل الكرة في الحفرة.

تنهد جاك وأمسك بعصا الغولف بقوة وردّد في نفسه الكلمات السحرية: الذراع الأيسر مستقيمة ولا ترفع بصرك.

استدار إلى الخلف، ثم توقف مصعوقاً عندما سمع صيحة حادة مزقت سكون الصباح الصيفي. نادى الصوت قائلاً: جريمة قتل... النجدة! جريمة قتل!

كان صوت امرأة، وقد تلاشى في النهاية ليأخذ صوت غرغرة مختنقة.

ألقى جاك مضربه على الأرض وركض باتجاه الصوت. كان الصوت قد جاء من مكان قريب تماماً، وكان هذا الجزء من ميدان الغولف أرضاً ريفية مقفرة وحولها تتناثر بضعة بيوت فقط. والواقع أن بيتاً واحداً فقط كان قريباً، وكان بيتاً صغيراً جميلاً لطالما جذب انتباه جاك لما يوحي به من أجواء العالم القديم.

ركض باتجاه ذلك البيت. وكان البيت مختفياً وراء منحدر مغطى بالنباتات، ولكنه دار حول المنحدر، وفي أقل من دقيقة كان يقف ويده على قفل البوابة الصغيرة. كانت فتاة تقف في الحديقة، وقد استنتج جاك -فوراً- أنها هي التي صرخت تلك الصرخة تطلب النجدة، لكنه غير رأيه بسرعة؛ فقد كانت تحمل بيدها سلة صغيرة مليئة حتى نصفها بالأعشاب، وكان واضحاً أنها قد انتهت لتوها من إزالة الأعشاب الضارة عن رقعة خضراء من أزهار البنفسج. لاحظ

جاك أن عينيها كانتا مثل البنفسج نفسه؛ مخمليتين وناعمتين وفيهما من البنفسجية أكثر مما فيهما من الزرقة. كانت كزهرة البنفسج في ثوبها الأرجواني الخالص.

نظرت الفتاة إلى جاك بتعبير يتراوح بين الانزعاج والدهشة، فقال الشاب: أرجو عفوك، ولكن أأنت التي صرخت الآن؟

- أنا؟ لا

كانت دهشتها حقيقية جداً مما جعل جاك يرتبك. كان صوتها ناعماً وفيه لكنة أجنبية بعض الشيء. وصاح قائلاً: ولكنك سمعتِها بلا ريب. لقد جاءت من مكان قريب من هنا.

حدقت إليه وقالت: لم أسمع شيئاً أبداً.

وبدوره حدّق جاك إليها. كان أمراً لا يصدق ألاّ تكون قد سمعت تلك الاستغاثة الحزينة التي تطلب النجدة، ولكن كان الهدوء واضحاً جداً عليها مما جعله لا يظن أنها تكذب عليه.

ألحّ قائلاً: لقد جاءت من مكان قريب جداً.

راحت تنظر إليه بارتياب وسألته: ماذا كانت تقول؟

- "جريمة قتل، النجدة، جريمة قتل"!

كررت الفتاة قائلة: "جريمة قتل، النجدة، جريمة قتل"؟ يبدو أن أحدهم يداعبك يا سيد بلا ريب. مَن يمكن أن يُقتل هنا؟

نظر جاك حوله بارتباك شديد. لقد كان متأكداً تماماً من أن

الصرخة التي سمعها كانت حقيقية وليست وليدة خياله. رفع بصره إلى نوافذ البيت، فبدا له كل شيء هادئاً وساكناً.

سألته الفتاة بجفاء: أتريد تفتيش بيتنا؟

كان تشككها من الوضوح بحيث جعل حيرة جاك واضطرابه يزدادان. التفت ليذهب قائلاً: "أنا آسف؛ يبدو أنها جاءت من مكان أبعد في الغابة" ثم رفع قبعته وانسحب عائداً، وعندما التفت برأسه إلى الوراء رأى تلك الفتاة وقد عادت لتلتقط الأعشاب الضارة بهدوء.

فتش في الغابة لبعض الوقت لكنه لم يعثر على أي شيء غير عادي، ومع ذلك بقي متأكداً من أنه قد سمع صرخة. وأخيراً تخلى عن البحث وأسرع إلى الفندق لكي يزدرد طعام الإفطار ويلحق بقطاره في اللحظة الأخيرة كالعادة. وعندما جلس في القطار وخزه ضميره قليلاً؛ أما كان عليه أن يبلغ الشرطة بما سمعه على الفور؟ إنه لم يفعل ذلك لأن الفتاة البنفسجية لم تصدقه. كان واضحاً أنها شكت في أنه يبالغ، وربما كان الشرطة سيفعلون نفس الشيء. أكان هو متأكداً تماماً من أنه قد سمع الصرخة؟

بحلول ذلك الوقت لم يعد متأكداً بقدر ما كان من قبل... وهي النتيجة الطبيعية لمحاولة استرداد شعور مفقود. أتراها كانت صرخة طائر بعيد حولها هو إلى صوت شبيه بصوت امرأة؟

ولكنه رفض هذا الرأي غاضباً. كان صوت امرأة، وقد سمعه. وقد تذكر أن ينظر إلى ساعة يده قبل أن تأتي الصرخة، ولا بد من أن

الساعة كانت السابعة وخمساً وعشرين دقيقة عندما سمع الصيحة. قد تكون هذه حقيقة مفيدة للشرطة... إذا تم اكتشاف أي شيء.

وعندما عاد إلى البيت في ذلك المساء تصفح صحف المساء باهتمام ليرى إن كان فيها أي ذكر لجريمة قتل، ولكن لم يكن فيها أي شيء، ولم يكد يعرف إن كان يجب أن يريحه هذا أو يخيب أمله.

كان صباح اليوم التالي ممطراً إلى حد يجعل أكثر لاعبي الغولف حماسة يفقد حماسته. نهض جاك في آخر لحظة ممكنة وازدرد إفطاره وركض إلى القطار ثم تفحص صحف الصباح بلهفة مرة أخرى. ما زال فيها غياب لأي ذكر لاكتشاف حادث شنيع. وكانت صحف المساء على الشكل نفسه. قال جاك في نفسه: أمر غريب، لكن هذا ما حدث. ربما كان بعض الصبية الأشقياء يلعبون في الغابة.

خرج مبكراً في الصباح، وبينما كان يمر بجانب البيت لاحظ بطرف عينه أن الفتاة كانت في الحديقة من جديد تخلع الأعشاب الضارة. من الواضح أن هذه عادة فيها. قام بضربة غولف موفقة تماماً تمنى لو أنها لاحظتها، وعندما وصل في اللعب إلى فسحة الضرب الثانية نظر إلى ساعته وتمتم قائلاً: إنها السابعة وخمس وعشرون دقيقة. إني لأتساءل...

ثم تجمدت الكلمات على شفتيه؛ فمن ورائه جاءت نفس الصرخة التي أجفلته من قبل... صوت امرأة في خطر رهيب: "جريمة قتل... النجدة، جريمة قتل"!

ركض جاك إلى الوراء. كانت فتاة البنفسج تقف قرب البوابة

وقد بدت مرعوبة، فأسرع جاك نحوها مزهواً وهو يصيح: لقد سمعتِها هذه المرة على الأقل.

لاحظ أنها جفلت وتراجعت عنه عندما اقترب منها ونظرت إلى البيت وراءها وكأنها كانت تفكر في الهروب إليه طلباً للملجأ. هزت رأسها بالنفي وهي تحدق إليه وقالت دَهِشة: لم أسمع أي شيء أبداً.

أحسّ بكلماتها وكأنها ضربة له بين عينيه. كان صدقها واضحاً بحيث لا يستطيع دحضه، ولكن لا يمكن أن يكون قد تخيل الأمر تخيلاً. لا يمكن، لا يمكن!

سمع صوتها وهي تتكلم بهدوء يكاد يبلغ حد التعاطف: أأنت مصاب بصدمة التعرض للقنابل؟

وبسرعة أدرك سبب ملامح الخوف البادية على وجهها ونظرها إلى البيت وراءها. لقد ظنت أنه يعاني من الوساوس. ثم جاءته تلك الفكرة المخيفة كأنها حمام ماء بارد. أكانت على صواب؟ أتراه يعاني -فعلاً- من الأوهام؟ التفت وقد تملكه الرعب من هذه الفكرة وعاد أدراجه دون أن ينبس ببنت شفة. وراقبته الفتاة وهو ذاهب. تنهدت وهزت رأسها ثم عادت تلتقط الأعشاب من جديد.

حاول جاك أن يفكر في الأمور مع نفسه ملياً. قال محدثاً نفسه: إذا سمعت تلك الصيحة البائسة ثانية في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة فسيكون واضحاً أن لدي شيئاً من الهلوسة، ولكني لن أسمعها.

كان مرتبكاً عصبياً طوال النهار، وذهب إلى النوم مبكراً وقد عقد العزم على التأكد من المسألة بشكل قاطع في صباح اليوم التالي.

وكما هو طبيعي في مثل هذه الحالة، فقد بقي مستيقظاً نصف الليل، وأخيراً أدركه الوقتُ وهو نائم، إذ كانت الساعة السابعة وعشرين دقيقة من صباح اليوم التالي عندما خرج من الفندق مسرعاً نحو ملعب الغولف. وقد أدرك أنه لن يستطيع الوصول إلى ذلك المكان في خمس دقائق، ولكن المؤكد أنه سيسمع ذلك الصوت في أي مكان إن كان حقاً مجرد هلوسة. ركض وعيناه تركزان على ساعة يده.

السابعة وخمس وعشرون دقيقة. ومن بعيد جاءه صدى صوت امرأة تنادي. لم يكن بالإمكان تمييز الكلمات، لكنه كان مقتنعاً بأنها كانت نفسُ الصرخة التي سمعها من قبل وبأنها جاءت من نفس المكان، من مكان قريب من البيت.

ولعل من الغريب أن تلك الحقيقة طمأنته؛ فقد يكون الأمر خدعة في نهاية المطاف. ورغم استبعاده أن تكون الفتاة هي التي تمارس عليه هذه اللعبة فمَن يدري؟ ربما كانت هي. تصلّب جسمه تصميماً وأخرج عصا الغولف من الحقيبة. سيلعب الكرة من حفرة إلى أخرى حتى يصل إلى البيت.

كانت الفتاة في الحديقة كعادتها وقد رفعت بصرها في ذلك الصباح، وعندما رفع قبعته إليها ألقت عليه تحية الصباح بشيء من الخجل.

صاح جاك مبتهجاً: إنه يوم جميل، أليس كذلك؟

ولكنه سبّ في سره هذه العبارة الشائعة التي لا مفر منها.

- نعم؛ يوم جميل بالفعل.

- أظنه جيداً للحديقة أيضاً؟

ابتسمت الفتاة ابتسامة جميلة وهي تقول: كلا للأسف؛ فأزهاري تحتاج إلى المطر. أترى؟ لقد جفّت كلها.

قبل جاك الدعوة الضمنية في إشارتها هذه وجاء إلى السياج الشجري المنخفض الذي يفصل الحديقة عن ملعب الغولف لينظر عبره إلى الحديقة. قال بارتباك وهو يحس بنظرة الإشفاق التي كانت الفتاة تنظرها إليه: إنها تبدو في حالة حسنة.

قالت: الشمس جيدة، أليست كذلك؟ بالنسبة للأزهار يمكن للمرء أن يسقيها دائماً، ولكن الشمس تعطي القوة والصحة. أرى أن السيد في حالة أفضل بكثير اليوم.

انزعج جاك بشدة لنبرتها المشجعة، وقال في نفسه: "تبّاً لهذا الأمر كله! أظنها تحاول علاجي بالإيحاء" ثم قال لها: أنا بخير تماماً.

قالت الفتاة بسرعة وهدوء: هذا جيد إذن.

تملّك جاك شعور مزعج بأنها لم تصدقه. وبعد ذلك لعب لبعض الوقت ثم أسرع عائداً لتناول إفطاره، وقد أحس وهو يأكل بأنه يخضع لمراقبة وثيقة من رجل جالس إلى الطاولة التي بجانبه،

ولم تكن تلك أول مرة يحس فيها بتلك المراقبة. كان رجلاً متوسط العمر ذا وجه قوي صارم، وكانت له لحية سوداء صغيرة وعينان رماديتان ثاقبتان، وكان يتمتع بثقة في سلوكه تجعله في مصاف أصحاب المهن الراقية. كان جاك يعلم أن اسمه لافينغتُن، وقد سمع إشاعات غامضة تقول إنه طبيب أخصائي معروف، ولكن لأن جاك لم يكن يتردد على عيادات الأطباء في شارع هارلي فلم يكن هذا الاسم يعني له الكثير.

لكنه أدرك في ذلك الصباح بحدة مدى المراقبة الهادئة الدائمة التي يخضع لها، مما أخافه قليلاً. أكان سره مكتوباً على وجهه بوضوح ظاهراً لكل الناس؟ أكان هذا الرجل بسبب مهنته يعرف أن في داخله شيئاً مخفياً؟

ارتعد جاك لهذه الفكرة. أكان هذا صحيحاً؟ أكان مصاباً بالجنون حقاً؟ أكان الأمر كله هلوسة أم كانت خدعة كبيرة؟

وفجأة خطرت له طريقة بسيطة جداً لاختبار حل لكل هذه التساؤلات، فحتى تلك اللحظة كان وحده في الملعب. ماذا لو كان معه شخص آخر؟ في هذه الحالة سيحدث واحد من ثلاثة احتمالات: إما أن يصمت الصوت، وإما أن يسمعه الاثنان، وإما... أن يسمعه هو وحده.

في تلك الليلة شرع في تنفيذ خطته هذه. كان لافينغتُن هو الرجل الذي يريده معه. وقد انخرطا في الحديث معاً بسهولة، ولعل الطبيب كان ينتظر منه هذه الفرصة للحديث. كان واضحاً أن جاك أثار اهتمامه لسبب أو لآخر، وقد أقنعه جاك بسهولة لقبول اقتراح بلعب

الغولف معاً قبل الإفطار، واتفقا على اللعب صباح اليوم التالي.

خرجا من الفندق قبل السابعة بقليل، وكان ذلك يوماً رائعاً هادئاً وصافياً من الغيوم، ولكنه لم يكن دافئاً كثيراً. كان الطبيب يلعب جيداً أما جاك فكان لعبه رديئاً، فقد تركز كل تفكيره على الفاجعة التي ستأتي، وبقي يسترق النظرات إلى ساعته. وصلا إلى الفسحة السابعة التي يقع البيت بينها وبين الحفرة في الساعة السابعة وعشرين دقيقة.

وكالعادة، كانت الفتاة في الحديقة عندما مرّا من أمامها، ولم ترفع بصرها. كانت فوق العشب كرتان؛ كرة جاك بجانب الحفرة وكرة الطبيب بعيدة عنها قليلاً.

قال لافينغتُن: أظن أن عليّ أن أذهب لأضربها.

انحنى فوقها وهو يفكر بالطريقة التي يضربها، ووقف جاك متصلباً وعيناه ثابتتان على ساعته. كانت الساعة السابعة وخمساً وعشرين دقيقة بالضبط. وجرت الكرة فوق العشب بسرعة ووقفت عند حافة الحفرة فترددت قليلاً ثم سقطت فيها.

قال جاك: ضربة جيدة.

بدا صوته غليظاً وكأنه ليس صوته. دفع ساعته إلى أعلى معصمه قليلاً وتنهد بارتياح غامر. لم يحدث شيء، لقد انقضى الأمر.

قال: إن كنتَ لا تمانع الانتظار قليلاً. أريد إشعال الغليون.

توقفا قليلاً عند الفسحة الثامنة حيث ملأ جاك غليونه وأشعله

بأصابع مرتعشة قليلاً رغماً عنه، وبدا وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن تفكيره.

قال وهو ينظر إلى المنظر أمامه برضا كبير: يا إلهي، يا له من يوم جميل! واصل لعبك يا لافينغتُن. إنها ضربتك الآن.

ثم جاءت وقتها، في اللحظة التي كان الطبيب يضرب الكرة فيها بالضبط. جاء صوت امرأة عالياً ومتألماً: جريمة قتل... النجدة! جريمة قتل!

سقط الغليون من يد جاك المرتعدة وهو يلتفت بسرعة باتجاه الصوت، ثم تذكر فحدّق إلى صاحبه فزعاً. كان لافينغتُن ينظر إلى الملعب وهو يظلل عينيه بكفه وقال: لقد قصّرت الضربة قليلاً، أحسبها مرت بحفرة الرمل.

لم يسمع شيئاً!

بدا وكأن الدنيا تدور بجاك. تقدم خطوة أو خطوتين وهو يترنح، وعندما أفاق وجد نفسه مستلقياً على الأعشاب والطبيب منحنٍ فوقه يقول: هوّن عليك، هوّن عليك.

- ما الذي فعلته؟

- لقد أغمي عليك أيها الشاب.

قال جاك وهو يئن: يا إلهي!

- ما الأمر؟ أهو شيء في عقلك؟

- سأخبرك حالاً، ولكني أريد أن أسألك أولاً سؤالاً

أشعل الطبيب غليونه وجلس على المقعد الخشبي قائلاً بارتياح: اسأل عمّا بدا لك.

- لقد كنت تراقبني طوال اليومين الماضيين. لماذا؟

طرفت عينا الطبيب قليلاً وقال: هذا سؤال غريب. يمكن للقطة أن تنظر إلى ملك!

- لا تتملص من السؤال. لماذا كنت تراقبني؟ لديّ سبب مهم لكي أسألك ذلك.

تجهم وجه لافينغتُن وقال: سأجيبك بصدق. لقد وجدت فيك جميع علامات رجل يجاهد إحساساً بالتوتر الشديد، وقد شعرتُ بالفضول لمعرفة كنه هذا التوتر.

قال جاك بمرارة: يمكنني أن أخبرك بذلك بمنتهى السهولة. إنني مصاب بالجنون.

سكت بطريقة دراماتيكية، ولكن لم يبدُ أن كلماته قد أثارت الاهتمام والتركيز الذي كان يتوقعه، فكررها قائلاً: أقول لك إنني مصاب بالجنون.

همس لافينغتُن: غريب جداً. حقاً إنه غريب جداً.

أحس جاك بالسخط وقال: أهذا كل ما يبدو لك؟ إن الأطباء لقساة القلوب حقاً.

- هيّا، هيّا يا صديقي الشاب! إنك تتحدث حديثاً عشوائياً. أولاً، رغم أنني حصلت على إجازة جامعية إلاّ أنني لا أمارس مهنة الطب. وبصراحة أنا لست طبيباً... أعني أنني لست طبيباً للأبدان.

نظر جاك إليه نظرة إمعان وقال: طبيب عقول إذن؟

- نعم، إلى حد ما، ولكن الأصح أنني أعتبر نفسي طبيب الروح.

- آه!

- إنني أشم رائحة الاستخفاف في نبرتك، ومع ذلك لا بد من استخدام كلمة ما للإشارة إلى العنصر النشط الذي يوجد مستقلاً عن الجسد. لقد تضايقت من نبرتي قبل قليل، ولكني أؤكد لك أنني استغربتُ كثيراً من أن يعاني شاب متزن وطبيعي تماماً مثلك من وهم إصابته بالجنون.

- لقد فقدت عقلي حقيقة... إنني مخبول تماماً!

- اعذرني إن قلت لك إنني لا أصدق هذا.

- إنني أعاني من أوهام.

- بعد العشاء؟

- لا، بل في الصباح.

قال الطبيب وهو يشعل غليونه ثانية بعد أن انطفأ: لا يمكن أن يحدث هذا.

- أقول لك إنني أسمع أشياء لا يسمعها أحد غيري.

- شخص واحد من بين كل ألف يمكنه أن يرى أقمار المشتري، ولكن لا حاجة للتشكيك بوجود تلك الأقمار لمجرد أن تسعمئة وتسعة وتسعين شخصاً آخر لا يمكنهم رؤيتها. وبالتأكيد لا يوجد سبب لنعت هؤلاء بالجنون.

- ولكن أقمار المشتري حقيقة علمية مثبتة.

- يمكن أن تُصبح أوهام اليوم حقائق الغد العلمية.

ورغماً عن جاك فقد أثّر به أسلوب لافينغتُن الواقعي؛ فقد شعر بالهدوء والطمأنينة. نظر إليه الطبيب نظرة إمعان لبعض الوقت ثم أومأ برأسه قائلاً: هذا أفضل. إن مشكلتكم -أيها الشباب- هي أنكم واثقون جداً من عدم وجود شيء خارج فلسفتكم، بحيث تتضايقون عندما يظهر شيء يربك معتقدكم هذا. دعنا نسمع تفسيرك للاعتقاد بأنك تصاب بالجنون ثم نقرر -بعدها- إن كان يجب علينا أن نحجر عليك.

سرد جاك سلسلة الأحداث التي جرت بكل ما يمكنه من صدق، ثم انتهى إلى القول: ولكن ما لا أستطيع فهمه هو لماذا سمعت هذه الصرخة في الساعة السابعة والنصف هذا الصباح... متأخرة خمس دقائق عن المعتاد؟

فكر لافينغتُن لبعض الوقت ثم سأله: كم الوقت الآن حسب ساعتك؟

ردّ عليه جاك بعد أن نظر إليها: الثامنة إلاّ ربعاً.

- الأمر سهل إذن. ساعتي تشير إلى الثامنة إلاّ ثلثاً، أي أن ساعتك تسبِّق خمس دقائق. إن هذه نقطة مثيرة جداً بالنسبة لي... إنها -في الواقع- موضوع لا يقدر بثمن.

سأل جاك وقد بدأ يهتم: كيف؟

- التفسير الواضح هو أنك سمعت في الصباح الأول تلك الصرخة بالفعل... ربما كانت مزحة وربما لم تكن. وفي الأيام التالية أوهمتَ نفسك بأنك سمعتها في نفس الوقت بالضبط.

- أنا متأكد من أنني لم أوهم نفسي.

- ليس عن وعي بالطبع؛ فالعقل الباطن يلعب معنا بعض الحيل الغريبة. ولكن هذا التفسير لا يثبت أمام الوقائع؛ فلو كانت حالة إيحاء لكنت سمعتَ الصرخة عند الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة حسب ساعتك أنت، ولم تكن لتسمعها أبداً بعد مرور الوقت كما ظننت.

- حسناً. إذن ماذا يعني هذا؟

- حسناً. هذا واضح، أليس كذلك؟ إن صرخة الاستغاثة هذه تحتل مكاناً وزماناً دون شك. المكان هو قرب ذلك البيت والزمان هو السابعة وخمس وعشرون دقيقة.

- نعم. ولكن لماذا أنا الذي سمعتها بالذات؟ فأنا لا أؤمن بالأشباح وغيرها من التُرَّهات. فلماذا أسمع ذلك الشيء التعس؟

- آه! هذا ما لا نستطيع الجزم به في الوقت الحالي. بعض

الناس يرون ويسمعون أشياء لا يراها آخرون أو يسمعونها. لا نعرف لماذا، وهم -في غالب الأحيان- لا يريدون رؤيتها أو سماعها ويكونون مقتنعين بأنهم يعانون من أوهام، مثلك تماماً. إن ذلك أشبه بالكهرباء؛ فبعض المواد تعتبر موصلة جيدة للكهرباء وبعض المواد الأخرى غير موصلة، ولم نكن نعرف السبب لوقت طويل وكان علينا أن نرضى بتقبل الحقيقة. أما الآن فنعرف السبب، ولا شك أننا سنعرف يوماً من الأيام لماذا تسمع أنت أشياء لا أسمعها أنا أو تلك الفتاة. كل شيء محكوم بالقانون الطبيعي ولا توجد خوارق. إن اكتشاف القوانين التي تحكم ما يسمى بالظاهرة الطبيعية سيكون عملاً صعباً، ولكن كل خطوة صغيرة يمكن أن تساعد.

- ولكن ما الذي سأفعله؟

ضحك لافينغتُن وقال: أرى أنك رجل عملي. حسناً يا صديقي، ستذهب لتناول وجبة إفطار جيدة ثم تذهب إلى المدينة دون أن تزعج رأسك بالمزيد من هذه الأمور التي لا تفهمها. ومن ناحية أخرى سأقوم أنا بالتسكع في المنطقة لأرى ما يمكنني اكتشافه عن ذلك البيت. أنا واثق من أن اللغز يتركز هناك.

نهض جاك وقال: حسناً يا سيدي؛ أنا ذاهب، ولكني أظن...

- نعم؟

احمرّ وجه جاك على نحو غريب وتمتم قائلاً: أنا متأكد من أن الفتاة لا غبار عليها.

بدا لافينغتُن مستمتعاً وقال: أنت لم تخبرني أنها فتاة جميلة! حسناً، ابتهج؛ فأنا أظن أن اللغز قد بدأ قبل مجيئها.

وصل جاك إلى الفندق في تلك الليلة وقد اجتاحه فضول كبير. لقد بات يثق بلافينغتُن ثقة عمياء؛ فقد تقبّل الطبيب المسألة بطريقة طبيعية، حيث كان واقعياً ولم تحيره القضية، وهذا ما أثار إعجاب جاك.

وجد صديقه الجديد ينتظره في الصالة عندما نزل لتناول العشاء، وقد اقترح الطبيب عليه أن يتناولا العشاء معاً على طاولة واحدة. سأله جاك باهتمام: هل توجد أية أخبار يا سيدي؟

- لقد جمعت معلومات عن تاريخ «منزل هيذر». لقد سكنه أولاً بستاني عجوز وزوجته، ثم توفي الرجل العجوز فذهبت المرأة المسنة إلى ابنتها. وبعد ذلك أخذه بنّاءٌ فرممّه وحدّثه تحديثاً رائعاً ثم باعه إلى رجل من المدينة كان يستخدمه لقضاء عطلة الأسبوع. وقبل عام تقريباً باعه هذا الرجل لشخص يدعى السيد تيرنر وزوجته، وبدا من كل ما استطعتُ معرفته عنهما أنهما كانا زوجين غريبين. كان هو رجلاً إنكليزياً أما زوجته فيُقال إنها نصف روسية وإنها كانت امرأة أنيقة جداً ذات جمال غريب، وقد عاشا بهدوء تام، لا يريان أحداً ولا يخرجان أبعد من حديقة البيت. وقد سرت إشاعة تقول إنهما كانا خائفين من شيء ما، ولكني لا أحسب أن علينا تصديق هذه الأقاويل. ثم غادرا البيت فجأة ذات يوم في الصباح الباكر ولم يعودا إليه أبداً، وقد تسلم وكيل العقارات هنا رسالة من السيد تيرنر كتبها من لندن تطلب منه بيع البيت في أسرع وقت ممكن. وقد بيع الأثاث أولاً، أما البيت نفسه فقد بيع لرجل يدعى السيد موليفرر.

وقد عاش فيه أسبوعين فقط، ثم أعلن عن تأجيره مفروشاً. والذي يعيش فيه الآن أستاذ فرنسي مصاب بمرض السل وابنته، وهما يعيشان هنا منذ عشرة أيام.

أخذ جاك يهضم كلام صاحبه بصمت، ثم قال أخيراً: لا أرى أن في هذا ما يقدمنا خطوة إلى الأمام. كيف تراه أنت؟

قال لافينغتُن بهدوء: أريد أن أعرف المزيد عن تيرنر وزوجته. تذكَّر أنهما غادرا البيت في وقت مبكر جداً من الصباح. وحسبما استخلصته، فلم يرهما أحد وهما يغادران. وقد شوهد السيد تيرنر بعد ذلك، ولكني لم أجد أحداً رأى السيدة تيرنر بعدها.

شحب وجه جاك وقال: لا يمكن أن... أتعني...؟

- لا تنفعل أيها الشاب. إن تأثير أي شخص على وشك الموت (وخصوصاً عندما يكون موتاً عنيفاً) على محيطه يكون قوياً جداً، ولعل هذا المحيط يتشرب هذا التأثير ويحوله بدوره إلى مُستقْبِلٍ لديه استعداد لذلك... وقد كان المُستقبِل في هذه الحالة هذا هو أَنت.

دمدم جاك غاضباً: ولكن لماذا أنا؟ لِمَ لا يكون شخصاً يمكن أن يفيد بشيء؟

هز لافينغتُن رأسه دلالة على افتقاد أي جواب حاسم، ثم نظر إلى جاك مبتسماً وقال: دعنا نتخلص من هذا الموضوع... هذه الليلة على الأقل.

وافقه جاك، ولكنه لم يجد من السهل كثيراً طرد هذا الموضوع عن تفكيره. وأثناء عطلة نهاية الأسبوع قام بعمل بعض التحريات

الخاصة به، لكن نجاحه في الحصول على معلومات لم يزد كثيراً عما فعله الطبيب. وقد تخلى عن لعب الغولف قبل الإفطار تخلياً تاماً.

* * *

جاء التطور التالي في القصة من مكان غير متوقَّع، فعندما كان عائداً ذات يوم أُبلغ جاك أن سيدة شابة تنتظر رؤيته، ولشدة دهشته كانت تلك هي فتاة الحديقة... فتاة البنفسج كما كان يسميها دائماً في نفسه، وكانت عصبية المزاج ومضطربة. قالت: اعذرني يا سيد لمجيئي إليك بهذه الطريقة، ولكن يوجد شيء أُريد قوله لك. إنني...

نظرت حولها بارتياب، فقال جاك على الفور: "تعالي إلى هنا" ثم قادها إلى غرفة استقبال للسيدات في الفندق كانت خالية، وهناك قال: والآن اجلسي يا آنسة، آنسة...

- فيليس مارشو يا سيد.

- اجلسي يا آنسة مارشو وأخبريني بكل ما تريدينه.

جلست فيليس طائعة. كانت تلبس في ذلك اليوم ثوباً أخضر داكناً، وكان جمال وسحر وجهها الصغير واضحاً أكثر من قبل. أوضحت: الأمر هكذا؛ جئنا إلى هنا منذ وقت قصير، ومنذ وصولنا سمعنا من يقول إن بيتنا، بيتنا الصغير الجميل، مسكون بالأرواح. لم يوافق أي خادم على البقاء فيه، وهذا لا يهم كثيراً؛ فأنا أستطيع تدبير شؤون المنزل والطبخ بسهولة.

فكر الشاب المتيم في نفسه: "كم هي رائعة!"، لكنه حافظ على مظهر خارجي رسمي وهو ينصت لها.

- كنتُ أظن أن هذا الحديث عن الأشباح مجرد كلام أحمق، وذلك حتى أربعة أيام خلت. لقد مضت عليّ أربع ليال -يا سيدي- وأنا أحلم نفس الحلم: سيدة جميلة طويلة شقراء تقف وهي تحمل في يدها جرة فخار زرقاء. وقد بدت بائسة جداً وراحت تمد لي الجرة باستمرار وكأنها تناشدني أن أفعل بها شيئاً، ولكنها لم تستطع أن تتكلم مع الأسف! ولم أعرف ماذا تريد. كان ذلك هو الحلم الذي رأيته في أول ليلتين، ولكن في الليلة قبل الماضية حدث المزيد؛ فقد ابتعدت المرأة مع الجرة الزرقاء، وفجأة سمعتُ صوتها وهي تصرخ. أعرف أنه كان صوتها، و... آه! كانت الكلمات التي قالتها هي نفسها التي سمعتها منك في ذلك الصباح: "جريمة قتل، النجدة، جريمة قتل"! واستيقظت مرعوبة وقلت لنفسي: إنها مجرد كابوس، والكلمات التي سمعتها أنت مجرد حادث. ولكن الحلم جاءني في الليلة الماضية مرة أخرى. ما هذا يا سيد؟ أنت الآخر سمعته، ماذا نفعل؟

كان وجه فيليس يشي بالرعب البالغ، وقد أطبقت يديها الصغيرتين وحدقت بجاك مستغيثة، فتظاهر هو بعدم اكتراث لم يكن حقيقياً وقال: لا بأس بهذا يا آنسة مارشو؛ لا تقلقي. سأخبرك بما أريد منك أن تفعليه إن لم يكن عندك مانع. أريدك أن تقصي القصة كلها على صديق لي يعيش هنا وهو الدكتور لافينغتُن.

أظهرت فيليس استعدادها لذلك، فذهب جاك بحثاً عن

لافينغتُن، ثم عاد بصحبته بعد دقائق. وبعد أن قدّم جاك الطبيب إلى الفتاة نظر إليها الطبيب نظرة تفحص، ثم طمأن الفتاة ببعض كلمات التطمين وقام بدوره بالإنصات إلى قصتها. وعندما أنهت روايتها قال: غريب جداً. هل أخبرت والدك بذلك؟

هزت فيليس رأسها نافية وقالت: "لم أحب أن أزعجه؛ إنه ما يزال مريضاً جداً" ثم امتلأت عيناها بالدموع وأضافت: أنا أبعده عن أي شيء يمكن أن يثيره أو يسبب له الغضب.

قال لافينغتُن بلطف: إنني متفهم لموقفك، كما أنني مسرور لأنك جئت إلينا يا آنسة مارشو، فكما تعرفين فإن جاك قد عاش تجربة شبيهة بتجربتك. أعتقد أن بإمكاني القول إننا نسير بالاتجاه الصحيح الآن. ألا يوجد شيء آخر يمكنك أن تفكري فيه؟

تحركت فيليس حركة سريعة وقالت: بالطبع، يا لغبائي! إنها مغزى القصة كلها. انظر -يا سيد- إلى ما وجدته وراء الخزانة حيث سقطت هذه وراء الرف.

قدّمت إليهما ورقة رسم متسخة وقد رُسمت عليها صورة امرأة بالألوان المائية. كانت رسماً غير متقن، لكن التشابه كان كافياً. كان الرسم يمثل امرأة شقراء طويلة ذات ملامح غير إنكليزية، وهي تقف بجانب طاولة عليها جرة فخار زرقاء.

أوضحت فيليس: وجدتها هذا الصباح فقط. يا سيدي الطبيب، إن وجه المرأة هذا هو الوجه الذي رأيته في حلمي، وتلك هي الجرة الزرقاء بعينها.

علّق لافينغتُن: أمر غريب. من الواضح أن مفتاح هذا اللغز هو الجرة الزرقاء. إنها تبدو مثل جرة من الخزف الصيني، ولعلها جرة قديمة. يبدو أنها عليها نقشة نافرة غريبة.

أوضح جاك: إنها صينية بالتأكيد. لقد رأيت واحدة تشبهها بالضبط ضمن مجموعة التحف التي يحتفظ بها عمي. إنه هاوٍ كبير لجمع الخزف الصيني وقد تذكرت أنني رأيت جرة مثلها تماماً قبل فترة قصيرة.

قال لافينغتُن: الجرة الصينية؟

استغرق في التفكير لبعض الوقت ثم رفع رأسه فجأة وقد لمع في عينيه ضوء غريب. قال: جاك، منذ متى يحتفظ عمك بتلك الجرة؟

- منذ متى؟ لا أعرف حقاً.

- فكّر. هل اشتراها مؤخراً؟

- لا أعرف. نعم؛ أظن أنه اشتراها مؤخراً، تذكرت ذلك الآن. أنا، شخصياً، غير مهتم بالخزف، ولكنني أتذكر أنه أراني مقتنياته الجديدة وكانت هذه من ضمنها.

- أكان ذلك قبل أقل من شهرين؟ لقد ترك السيد تيرنر وزوجته بيت هيذر قبل شهرين تماماً.

- نعم؛ أظن ذلك.

- هل يحضر عمك مزادات الريف أحياناً؟

- إنه يتنقل دائماً بحثاً عن المزادات.

- إذن ليس من المستبعد أن نفترض أنه اشترى قطعة الخزف هذه من المزاد الذي تم على أغراض السيد تيرنر وزوجته. مصادفة غريبة! يجب أن تعرف من عمك في الحال -يا جاك- من أين اشترى هذه الجرة.

تجهم وجه جاك وقال: أخشى أن هذا مستحيل؛ فقد سافر عمي جورج إلى أوربا، كما أنني لا أعرف أين عنوانه الآن حتى أرسل إليه رسالة.

- إلى متى ستطول إقامته في الخارج؟

- من ثلاثة أسابيع إلى شهر على الأقل.

سكت الجميع، وجلست فيليس تنقل بصرها من رجل لآخر باهتمام، ثم سألت خائفة: ألا يوجد ما يمكننا فعله؟

قال الطبيب: بلى، يوجد شيء واحد. ربما كان هذا غير عادي، ولكني أظنه سينجح. جاك، يجب أن تحصل لنا على تلك الجرة. أحضرها إلى هنا، وإذا أذنت لنا الآنسة فسوف نقضي ليلة في بيت هيذر بعد أن نأخذ الجرة الزرقاء معنا.

أحس جاك بالخوف يتسلل إلى جسده. سأله متململاً: ما الذي تعتقد أنه سيحدث؟

- لا أعرف شيئاً، لكني أظن -بصدق- أن اللغز سيُحَلُّ وسيهدأ الشبح. من الممكن جداً أن يكون للجرة قعر مزدوج ويكون شيء

مخفي داخلها، وإذا لم تحدث أية ظاهرة فيجب أن نستخدم ذكاءنا الخاص.

أطبقت فيليس يديها وهتفت: إنها فكرة رائعة.

التمعت عيناها حماسة. ولكن جاك لم يشعر بمثل تلك الحماسة، بل كان -في الواقع- خائفاً جداً من هذا الأمر في قرارة نفسه، ولكن ما كان لشيء أن يغريه بالاعتراف بهذه الحقيقة أمام فيليس. أما الطبيب فقد تصرف وكأن اقتراحه هذا كان أكثر اقتراح طبيعي في الدنيا.

التفتت فيليس إلى جاك وسألته: متى يمكنك إحضار الجرة؟

قال جاك كارهاً: غداً.

* * *

ذهب إلى بيت عمه مساء اليوم التالي وعاد بالجرة المطلوبة. كان مقتنعاً أكثر من ذي قبل عندما رآها من جديد أنها الجرة بعينها التي رُسمت بالألوان المائية، ولكنه عندما تفحصها لم يرَ أي علامة تدل على وجود أي حيز خفي فيها.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما وصل هو ولافينغتُن إلى منزل هيذر، وكانت فيليس في انتظارهما ففتحت الباب بهدوء قبل أن يطرقاه وهمست قائلة: ادخلا؛ أبي نائم في الطابق العلوي ولا أريد أن نوقظه. لقد جهزت لكما قهوة هنا.

تقدمتهما نحو غرفة الجلوس الصغيرة الدافئة حيث وُضع

مصباح زيتي على النافذة، ثم صبّت لهما قهوة عطرة.

بعد ذلك نزع جاك الأغلفة التي كانت تغطي الجرة، وعندما رأتها فيليس صاحت متلهفة: نعم، نعم؛ إنها هي. كنت سأعرفها أينما كانت.

في غضون ذلك كان لافينغتُن يقوم باستعداداته. أبعد جميع التحفيات الموجودة على طاولة صغيرة ووضعها في وسط الغرفة، ووضع حولها ثلاثة كراسي. ثم أخذ الجرة الزرقاء من جاك ووضعها في وسط الطاولة وقال: والآن، نحن مستعدون. أطفئي الأنوار ودعينا نجلس في الظلام حول الطاولة.*اجاثا كريستي & كتاب رواية*

أذعن له الآخران، وتكلم لافينغتُن مرة أخرى وسط الظلام: فكّرا في أي شيء... أو لا تفكّرا. لا تدفعا ذهنيكما للتركيز على شيء. تذكّرا، لا يوجد ما يخيف. انزعا الخوف من قلبيكما واستسلما، استسلما...

خفَتَ صوته وساد الصمت الغرفة، ودقيقة بعد دقيقة بدا أن الصمت يحمل في طياته احتمالات متزايدة. من السهل على لافينغتُن أن يدعو لنزع الخوف... ولكن لم يكن ما أحس به جاك خوفاً، بل كان رعباً! وكان متأكداً أن فيليس كانت تشعر بنفس الإحساس. وفجأة سمع صوتها منخفضاً ومرعوباً: سيحدث شيء مخيف، إنني أشعر به.

قال الطبيب: أبعدي الخوف عنك؛ لا تقاومي التأثير

بدا أن الظلام يزداد والصمت أكثر حدة. كان الإحساس بالخطر

غير الواضح يقترب شيئاً فشيئاً، وأحس جاك بأنه يختنق... يتصلب؛ فقد كان ذلك الشيء الخطير قريباً جداً. ثم مرّت لحظة الصراع، واستسلم منساقاً في تيار. أغلق جفنيه. هدوء... ظلام!

* * *

تحرك جاك قليلاً. كان رأسه ثقيلاً، ثقيلاً كالرصاص. أين هو الآن؟

أشعة الشمس... طيور... كان مستلقياً على ظهره يحدق في السماء. ثم عاد كل شيء إلى وعيه: الجلسة، والغرفة الصغيرة، وفيليس والطبيب. ما الذي حدث؟

انتصب في جلسته ورأسه يهتز بشدة وهو ينظر حوله. كان مستلقياً على العشب غيرَ بعيد عن البيت، ولم يكن بجانبه أي شخص آخر. أخرج ساعته، وقد ذهل عندما رأى أنها الثانية عشرة والنصف.

كافح ليقف على قدميه، ثم ركض بأسرع ما يمكنه في اتجاه البيت. لا بد من أنهما تنبها لفشله في الخروج من غيبوبته فحملاه خارج البيت إلى الفضاء المكشوف.

وعندما وصل إلى البيت طرق الباب بقوة، ولكن لم يرد عليه أحد ولم يَرَ أية علامة على الحياة فيه. لا بد من أنهما ذهبا لطلب النجدة، أو أنهما... أحس جاك بخوف غامض يغزو قلبه. ما الذي حدث الليلة الماضية؟

عاد إلى الفندق بأسرع ما يمكن، وكان على وشك الذهاب إلى مكتب الاستقبال للاستفسار عندما ارتطم به شخص ارتطاماً قوياً أوشك أن يوقعه على الأرض، وعندما التفت لينظر ساخطاً إلى الذي ارتطم به لاحظ رجلاً مسنّاً أبيض الشعر يبتسم له ويقول: إنك لم تتوقع وصولي يا ولدي. لم تتوقع مجيئي، أليس كذلك؟

- آه، عمّي جورج! لقد كنت أظنك بعيداً جداً، في مكان في إيطاليا.

- لكني لم أكن هناك. لقد نزلت في دوفر الليلة الماضية، وفكرت في أن أذهب إلى المدينة بالسيارة وأتوقف هنا لكي أراك وأنا في طريقي. وما الذي وجدته؟ وجدتك خارج الفندق طوال الليل. ماذا هناك؟

تفحصه جاك بقوة وقال: عمّي جورج، عندي قصة غريبة جداً أريد أن أحكيها لك. أظن أنك لن تصدقها.

ضحك العجوز وقال: أعتقد أنني لن أصدقها، ولكن ابذل جهدك يا ولدي.

- ولكن لا بد من أن آكل شيئاً؛ فأنا أتضور جوعاً.

ذهبا إلى قاعة الطعام حيث سرد له القصة كلها وهما يتناولان الطعام، ثم أنهى حديثه قائلاً: والله وحده يعلم ما الذي حلّ بهما.

بدا أن عمه كان على وشك أن تصيبه سكتة قلبية، وأخيراً قال بشق النفس: الجرة، الجرة الزرقاء... **الجرة الزرقاء!** ما الذي حلّ بها؟

حدّق إليه جاك غيرَ مدرك لما كان يقوله، ولكن عندما غمره سيل من الكلمات التي أعقبت ذلك بدأ يفهم.

جاءت الكلمات سريعة: إنها تحفة صينية قديمة فريدة في نوعها... إنها أغلى ما في مجموعتي... قيمتها عشرة آلاف جنيه على الأقل... إنها الوحيدة من نوعها في العالم... تباً لهذا الأمر! ما الذي فعلته بجرتي الزرقاء؟

اندفع جاك خارج الغرفة. لا بد له من أن يجد لافينغتُن. نظرت الفتاة الشابة إليه من وراء مكتب الاستقبال نظرة فاترة وقالت: لقد غادر الدكتور لافينغتُن في ساعة متأخرة ليلة الأمس بالسيارة، وقد ترك لك رسالة.

فتحها جاك، وكانت موجزة ومفيدة:

صديقي الشاب العزيز،

هل انتهى يوم الأشياء الخارقة للطبيعة؟ ليس تماماً... وخصوصاً عندما يخدعك أحدهم بلغة علمية جديدة. مع أطيب تحيات فيليس، ووالدها المريض، وتحياتي أنا. لدينا اثنتا عشرة ساعة للهرب، وفي ذلك متسع من الوقت.

المخلص لك إلى الأبد:
طبيب الأرواح: أمبروس لافينغتُن

* * *

قضية السير آرثر كارمايكل الغريبة

(مأخوذة من رسائل الطبيب الراحل
إدوارد كارستيرز، عالم النفس المشهور)

إنني أدرك تماماً وجود طريقتين مميزتين في النظر إلى الأحداث الغريبة والمأساوية التي أدوّنها هنا، ولم يتغير رأيي الخاص أبداً. لقد أقنعني بعض الناس بأن أكتب القصة كاملة، والحقيقة أنني أعتقد أن العلم هو الذي يشكل دافعاً لعدم إخفاء مثل هذه الوقائع الغريبة التي لا يمكن تفسيرها وتركها طيّ النسيان.

كان أول ما ربطني بهذه المسألة برقية استلمتها من صديق لي هو الدكتور سيتل. ولم تكن البرقية واضحة باستثناء ذكرها اسم كارمايكل، ولكن استجابةً لصديقي ركبت قطار الساعة الثانية عشرة والثلث من محطة بادينغتُن إلى وولدن في مقاطعة هيرتفوردشير.

لم يكن اسم كارمايكل غريباً بالنسبة لي؛ فقد كنتُ على معرفة يسيرة بالسير الراحل وليام كارمايكل من وولدن، رغم أنني لم أره منذ أحد عشر عاماً. وكنت أعرف أن له ولداً ورث لقبه، وأظنه الآن شاباً في الثالثة والعشرين من عمره تقريباً. وأتذكر -على نحو غامض- أنني سمعت بعض الإشاعات عن زواج السير وليام للمرة الثانية، ولكن لم أستطع أن أتذكر شيئاً محدداً باستثناء انطباع غامض لم يكن لصالح الزوجة الجديدة للسير وليام كارمايكل.

استقبلني سيتل عند محطة القطار، وقال وهو يصافحني: جميل منك أن تأتي.

- أبداً؛ لقد فهمت أن هذا الأمر قريب من اختصاصي؟

- إنه كذلك تماماً.

جازفت سائلاً: أهي حالة عقلية تتميز ببعض الصفات غير الطبيعية؟

كنّا، عندئذ، قد حملنا أمتعتي وركبنا عربة حصان مبتعدين عن المحطة في اتجاه وولدن التي تبعد عن المحطة مسافة ثلاثة أميال تقريباً. ولم يردّ سيتل على سؤالي لبعض الوقت، ثم اندفع في الحديث فجأة: الأمر كله لا يمكن استيعابه! شاب في الثالثة والعشرين من عمره، طبيعي تماماً في كل شيء. إنه ولد مرح ودود ليس لديه سوى ما يميز أقرانه من الغرور البسيط، لم يكن ألمعياً في ذكائه، ولكنه نموذج رائع للطبقة العليا من الشباب الإنكليزي العادي. ذهب إلى النوم بكامل صحته المعتادة ذات ليلة، وفي صباح اليوم التالي وُجد يتجول في القرية كالمخبول، لا يستطيع تمييز أقرب الناس إليه وأعزهم عنده.

قلت وقد أثارني كلامه، إذ رأيتُ أن هذه الحالة تعد بالإثارة: آه! فقدان كامل للذاكرة. ومتى حدث ذلك؟

- صباح الأمس، التاسع من آب.

- ألم يحدث له شيء يمكن أن يفسر هذه الحالة؟ أية صدمة تعرفها مثلاً؟

- لا شيء.

انتابني شك مفاجئ فسألته: هل تخفي عنّي شيئاً؟

تردد وهو يقول: كـ... لا.

أكّد تردّدُه شكوكي فقلت: يجب أن أعرف كل شيء.

- لا علاقة لهذا الأمر بآرثر. إنه يتعلق... يتعلق بالبيت.

كرّرت عبارته مذهولاً: بالبيت؟

- لقد واجهتَ كثيراً من هذه الحالات يا كارستيرز، أليس كذلك؟ لقد اختبرتَ ما يسمى بالبيوت المسكونة. ما رأيك بهذا الموضوع؟

أجبته: تسعة أعشار هذه الأعمال تكون احتيالاً، أما العُشر الباقي... فقد صادفتني ظواهر لا يمكن أبداً تفسيرها تفسيراً مادياً عادياً. إنني ممن يؤمنون بالقوى الغيبية.

أومأ سيتل برأسه. وكنّا -في تلك اللحظة- نعطف داخلين بوابة الحديقة، فأشار بالسوط الذي يحمله بيده إلى قصر أبيض على جانب التل وقال: ذاك هو البيت. وفي ذلك البيت شيء ما، شيء غريب... مرعب. جميعنا نشعر به، وأنا لستُ ممن يؤمنون بالخرافات، ولكن...

- ما هو الشكل الذي يأخذه هذا الشيء؟

نظر أمامه مباشرة وقال: إنني أفضِّل ألاّ تعرف شيئاً؛ فإذا ما رأيتَ أنت هذا الشيء، وأنت القادم إلى هنا بلا تحيز ومن دون أن تعرف عن الأمر شيئاً، فهذا يعني...

قلت: نعم؛ هذا أفضل. ولكن سأكون مسروراً إذا أخبرتني قليلاً عن العائلة.

قال سيتل: لقد تزوج السير وليام مرتين، وآرثر هو ابن زوجته الأولى، وقبل تسع سنوات تزوج مرة أخرى، والليدي كارمايكل الحالية تكاد تبدو لغزاً. إنها نصف إنكليزية فقط، وأظن أن في عروقها دماء آسيوية.

سكت قليلاً فقلتُ له: سيتل... أنت لا تحب الليدي كارمايكل.

اعترف بذلك صراحة: نعم؛ لا أحبها. لقد بدا دوماً أن فيها شيئاً شريراً. حسناً، حتى نكمل الحديث، فقد أنجب السير وليام ولداً آخر من زوجته الثانية هذه، وهو يبلغ من العمر الآن ثماني سنوات. ثم توفي السير وليام قبل ثلاث سنوات، وقد ورث آرثر لقب السير كما ورث البيت، وبقيت زوجة أبيه وأخوه لأبيه يعيشان معه في وولدن. ولا بد من القول إن القصر في حالة رديئة جداً، وتكاد صيانته تستهلك دخل السير آرثر كله. وكل ما تركه السير وليام لزوجته هو بضع مئات من الجنيهات في السنة، ولكن من حسن الحظ أن انسجام آرثر مع زوجة أبيه كان رائعاً، وكان مسروراً جداً لعيشها معه. والآن...

- نعم؟

- قبل شهرين خطب آرثر فتاة جميلة تدعى الآنسة فيليس باترسون.

ثم أضاف وهو يخفض صوته بلمسة من الانفعال: كان يُفترض أن يتزوجا الشهر القادم. إنها تقيم هنا الآن، ولك أن تتخيل محنتها.

أومأتُ له بصمت.

كنّا نصعد -في تلك اللحظة- قريباً من البيت، والمنحدر العشبي ينحدر على يميننا قليلاً. وفجأة رأيت صورة فاتنة جداً؛ كانت هناك شابة تعبر المرجة ببطء في اتجاه البيت وأشعة الشمس تزيد من جمال شعرها الذهبي البراق، وكانت تحمل سلّة كبيرة من الورود فيما كانت قطة فارسية رمادية جميلة تسير بين قدميها بمحبة.

نظرت إلى سيتل متسائلاً فقال: إنها الآنسة باترسون.

- يا للفتاة مسكينة، يا للمسكينة! ويا لها من صورة بديعة مع ورودها وقطتها الرمادية!

سمعت صوتاً خافتاً فالتفتُّ صوب صديقي بسرعة. كان عنان الفرس قد سقط من بين أصابعه وأصبح وجهه شاحباً.

هتفتُ به: ما الأمر؟

استعاد رباطة جأشه بجهد كبير. وبعد لحظات وصلنا، وكنت أسير وراءه إلى غرفة الجلوس الخضراء حيث وضع الشاي هناك. ولدى دخولنا نهضت امرأة في أواسط عمرها فيها بقية من جمال وجاءت باتجاهنا مرحِّبة.

- هذا صديقي الدكتور كارستيرز، ليدي كارمايكل.

لا أستطيع شرح تلك الموجة الغريزية من الاشمئزاز التي اجتاحتني عندما صافحت اليد الممدودة لهذه المرأة الفاتنة المهيبة الملتفّة بالسواد. قالت بصوت موسيقي خافت: جميل منك أن تأتي

يا دكتور كارستيرز وأن تحاول مساعدتنا في مشكلتنا الكبيرة.

أجبتها إجابة عادية، وناولتني هي فنجان الشاي. وبعد بضع دقائق دخلت الفتاة التي رأيتها على المرجة خارج البيت إلى الغرفة. لم تكن القطة معها، ولكنها كانت ما تزال تحمل سلة الورد بيدها. قدّمني سيتل إليها فتقدمتْ نحوي بعفوية قائلة: آه! دكتور كارستيرز. لقد أخبرنا الدكتور سيتل الكثير عنك. لديّ إحساس بأنك ستتمكن من فعل شيء من أجل آرثر المسكين.

كانت الآنسة باترسون فتاة رائعة الجمال بالتأكيد، رغم شحوب خديها ووجود هالة من السواد حول عينيها. وقلت أطمئنها: سيدتي العزيزة، يجب ألاّ تيأسي؛ فحالات فقدان الذاكرة أو الشخصية الثانوية هذه لا تدوم غالباً إلاّ لمدة قصيرة جداً، وفي أي لحظة قد يعود المريض إلى كامل قواه.

هزت رأسها وقالت: لا أصدق أن حالته هذه حالة شخصية ثانوية، **هذه ليست شخصية آرثر أبداً**. ليست من شخصيته في شيء! **إنه ليس هو**. إنني...

تدخلت الليدي كارمايكل بصوتها الناعم: عزيزتي فيليس، إليك فنجانك من الشاي.

وعندما نظرت المرأة إلى الفتاة شعرتُ من تعابير عينيها أنها لا تحبها أبداً.

رفضت الآنسة باترسون فنجان الشاي، وقلت حتى أرطب أجواء الحديث: ألن تشرب تلك القطة الجميلة صحناً من الحليب؟

نظرت إلي نظرة استغراب وقالت: الـ... قطة الجميلة؟

- نعم؛ رفيقتك التي كانت تسير معك في الحديقة قبل لحظات.

قاطعني صوت ارتطام، فقد أسقطت الليدي كارمايكل إبريق الشاي واندلق الماء الحار على الأرض. عالجت المسألة ونظرت فيليس باترسون إلى سيتل متسائلة.

نهض وقال: أترغب برؤية مريضك الآن يا كارستيرز؟

لحقته على الفور، وجاءت الآنسة باترسون معنا. صعدنا الدرج وأخرج سيتل مفتاحاً من جيبه وأوضح قائلاً: أحياناً تنتابه نوبة من الرغبة في التجول، ولذلك أقفل الباب عادة عندما أكون بعيداً عن البيت.

أدار المفتاح ودخل. كان الشاب جالساً على كرسي قرب النافذة حيث تسقط آخر أشعة الشمس الغاربة صفراء شاملة. جلس الشاب ساكناً بصورة غريبة، وقد انحنى جسمه قليلاً وارتخت جميع عضلاته. واعتقدت بادئ الأمر أنه لا يحس بوجودنا أبداً، إلى أن لاحظت أنه كان يراقبنا بإمعان من تحت جفنين ثابتين لا يتحركان. وعندما نظر إليّ أسقط نظره إلى الأرض وطرفت عيناه، ولكنه لم يتحرك.

قال سيتل بابتهاج: تعال يا آرثر؛ لقد جاءت الآنسة باترسون وصديق لي لرؤيتك.

لكن الشاب الجالس على الكرسي قرب النافذة لم يحرك ساكناً

بل طرفت عيناه فقط، ثم رأيته بعد لحظات يراقبنا ثانية... بنظرات ماكرة مختلسة.

سأله سيتل بصوت ما يزال عالياً ومبتهجاً وكأنه يتحدث إلى طفل: هل تريد الشاي؟

وضع على الطاولة كوباً من الحليب، ورفعت حاجبي دهشة فابتسم سيتل وقال: الغريب أن الشراب الوحيد الذي يقبل تناوله هو الحليب.

بعد لحظات قليلة، ودون استعجال لا داعي له، أرخى آرثر أعضاء جسمه المُكوَّم عضواً عضواً ومشى إلى الطاولة ببطء. وأدركتُ -فجأة- أن حركاته صامتة تماماً؛ فلم أسمع وقع أقدامه وهو يمشي. وعندما وصل إلى الطاولة تمطّى إلى أبعد مدى، ثم وقف وإحدى رجليه إلى الأمام والأخرى مدّها إلى الخلف. وقد أطال هذا التمرين إلى أقصى مدى، ثم تثاءب. ولم أرَ مثل هذا التثاؤب في حياتي أبداً! فقد بدا أن ثؤباءه قد ابتلعت وجهه كله.

حوّل انتباهه الآن على الحليب وانحنى فوق الطاولة إلى أن لامست شفتاه الحليب. وأجاب سيتل على نظراتي المتسائلة قائلاً: إنه لا يستخدم يديه إطلاقاً. يبدو وكأنه قد عاد إلى الحالة البدائية، أليس هذا غريباً؟

أحسست أن فيليس باترسون قد انكمشت صوبي قليلاً، فوضعت يدي على ذراعها أطمئنها. وأخيراً شرب آرثر كوب الحليب كله، ثم تمطى ثانية وعاد إلى الكرسي قرب النافذة من جديد بنفس

الخطوات الهادئة الصامتة ليتكوّم كما كان من قبل وعيناه تطرفان باتجاهنا.

سحبتنا الآنسة باترسون إلى خارج الغرفة في الممر، وكان جسمها كله يرتعد. صاحت: آه! إنه ليس هو يا دكتور كارستيرز. ذلك الشيء هناك ليس آرثر! كنتُ سأشعر... كنتُ سأعرف...

هززت رأسي حزيناً وقلت: يمكن للعقل أن يقوم بحيل غريبة يا آنسة باترسون.

* * *

أعترف بأن الحالة قد حيرتني؛ فهي تطرح خصائص غير عادية، ورغم أنني لم أرَ الشاب آرثر كارمايكل من قبل، إلاّ أنني لاحظت أن في طريقة مشيه الغريبة والطريقة التي كانت عيناه تطرفان بها شيئاً ما، وهو ما ذكرني بشخص أو شيء لم أستطع تحديده تماماً.

كان عشاؤنا في تلك الليلة هادئاً، حيث تركز الحديث بيني وبين الليدي كارمايكل. وعندما خرجت السيدتان من الغرفة سألني سيتل عن انطباعي حول مضيفتي.

قلت: لا بد من أن أعترف بأنني أكرهها بشدة بلا سبب. أنت على حق تماماً؛ إنها امرأة ذات قوة مغنطيسية غير عادية، ولن أستغرب لو علمت أنها تمتلك قوى سحرية من نوع ما!

بدا سيتل وكأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه منع نفسه واكتفى بالقول بعد لحظات: إنها متعلقة بابنها الصغير أشد التعلق.

جلسنا ثانية في غرفة الجلوس الخضراء بعد العشاء. كنّا قد أنهينا لتوِّنا شرب القهوة ورحنا نتحدث بحماسة حول بعض موضوعات الساعة عندما بدأت القطة تموء بطريقة محزنة خارج الباب طلباً للدخول. لم يلتفت أحدٌ لموائها، وبما أنني أحب الحيوانات فقد نهضت من مكاني بعد لحظات وسألت الليدي كارمايكل: أيمكنني السماح لهذه المسكينة بالدخول؟

ظننتُ أن وجهها بدا شديد الشحوب، ولكنها أومأت لي برأسها إيماءة ضعيفة اعتبرتها موافقة فذهبت إلى الباب وفتحته، غير أن الممر في الخارج كان خالياً تماماً. قلت: غريب، أنا واثق من أنني سمعت صوت قطة.

عندما عدت إلى مقعدي لاحظت أنهم كانوا جميعاً يراقبونني بإمعان، ممّا جعلني أشعر بشيء من عدم الارتياح.

ذهبنا إلى النوم مبكراً، وصحبني سيتل إلى غرفتي. سألني وهو ينظر حوله: هل عندك كل ما تحتاجه؟

قلت: نعم، شكراً لك.

تلكأ بشيء من الارتباك، وكأنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه لا يستطيع البوح به. قلت: على فكرة، ألم تقل إن في هذا البيت شيئاً غريباً؟ إنه يبدو طبيعياً جداً حتى الآن.

- أتعتبره بيتاً مريحاً؟

- لا يمكنني قول ذلك في ظل هذه الظروف. من الواضح أنه يعيش في ظل حزن عميق. أما فيما يخص وجود جو شاذ غيبي

فبوسعي منحه شهادة صحية على خلوه من ذلك!

قال سيتل فجأة: طابت ليلتك، وأحلاماً سعيدة.

وقد حلمت بالتأكيد. فقد بدا أن قطة الآنسة باترسون الرمادية قد تركت تأثيراً على ذهني، وبدا لي أنني حلمتُ طوال الليل بهذه القطة البائسة.

استيقظت بجفلة، وأدركت -فجأة- ما الذي دفع هذه القطة إلى تفكيري؛ فقد كانت القطة تموء خارج باب غرفتي باستمرار، وكان من المستحيل النوم مع استمرار ذلك الصخب. أشعلت شمعتي وذهبت إلى الباب، ولكن الممر خارج غرفتي كان خالياً رغم استمرار المواء. خطرت لي فكرة جديدة وهي أن القطة البائسة ربما كانت حبيسة في مكان ما لا تقدر على الخروج. إلى اليسار كانت نهاية الممر حيث توجد غرفة الليدي كارمايكل، ولذلك التفتُّ إلى اليمين وخطوت بضع خطوات، ثم ارتفع الصوت المزعج ثانية من مكان ورائي. التفتُّ بسرعة وجاء الصوت ثانية، وكان واضحاً هذه المرة أنه من مكان على يميني.

شعرتُ بشيء ما (لعله كان تياراً هوائياً في الممر) مما جعلني أرتعد، فعدت إلى غرفتي مسرعاً. كل شيء غدا صامتاً في تلك اللحظة، وعلى الفور غلبني النوم ثانية لأستيقظ وأستقبل يوماً صيفياً رائعاً آخر.

فيما كنت أرتدي ثيابي رأيت من نافذتي القطة المزعجة التي نغّصت عليّ ليلتي. كانت القطة الرمادية تزحف ببطء عبر المرجة، وظننت أن هدف هجومها سيكون مجموعة صغيرة من الطيور التي

انشغلت بالزقزقة وبتفلية ريشها في مكان قريب. ثم حدث شيء غريب جداً؛ فقد اقتربت القطة مباشرة وعبرت بين الطيور بحيث كاد فراؤها يلامس أجسامها الصغيرة، ولكن الطيور لم تطِرْ هاربة. لم أستطع فهم هذا الأمر؛ فقد بدا أمراً لا يمكن استيعابه!

لقد أثّر بي هذا الحادث إلى حدٍّ لم أستطع معه منع نفسي من ذكره على الإفطار. قلت مخاطباً الليدي كارمايكل: أتعرفين أن لديكم قطة غير عادية أبداً؟

سمعت صليل الفنجان فوق الصحن، ورأيت فيليس باترسون وقد فغرت فاها وهي تتنفس بسرعة وتحدق إليّ بحدة.

ومرّت لحظة من الصمت ثم قالت الليدي كارمايكل بطريقة كريهة تماماً: أظنك أخطأت بلا ريب؛ فلا توجد قطة هنا، ولم يكن عندي قطة أبداً.

بدا واضحاً أنني قلتُ شيئاً مزعجاً، لذلك أسرعت في تغيير موضوع الحديث. لكن المسألة حيرتني. لماذا أعلنت الليدي كارمايكل عدم وجود قطة في البيت؟ أتراها قطة الآنسة باترسون وقد أخفت عن سيدة البيت وجودها؟ ربما كانت الليدي كارمايكل ممن يمتلكون كرهاً شديداً للقطط كما هي حال البعض هذه الأيام. لم يبدُ ذلك تفسيراً معقولاً، ولكني أُرغمت على إقناع نفسي به في الوقت الحالي.

كان مريضنا ما يزال في نفس الحالة، وقد قمتُ هذه المرة بفحصه بشكل شامل واستطعت دراسة حالته عن قرب أكثر من

الليلة الماضية. وبناء على طلبي تم عمل اللازم حتى يجعلوه يقضي مع العائلة أطول مدة ممكنة. لم آمل أن أحصل على فرصة أفضل لملاحظته دون انتباه منه فقط، بل رأيتُ أن الحياة اليومية المعتادة قد توقظ في نفسه ومضات من التفكير. ومع ذلك بقي سلوكه ثابتاً لم يتغير. كان هادئاً وطيّعاً، وبدا فارغ الذهن، ولكنه -في الواقع- كان محترساً بشكل مركز وبطريقة مختلسة. شيء واحد فاجأني بالتأكيد؛ وهو الحب الشديد الذي أظهره نحو زوجة أبيه في الوقت الذي تجاهل فيه الآنسة باترسون كلية. كان يحاول الجلوس قرب الليدي كارمايكل قدر الإمكان ومرة رأيته يمسح رأسه بكتفها في تعبير أبله عن حبه لها.

أقلقتني هذه الحالة، ولم أستطع إلاّ أن أشعر بأن لفهم هذا الأمر كله مفتاحاً غاب عن ملاحظتي حتى الآن. قلت محدثاً سيتل: هذه حالة غريبة جداً.

- نعم، إنها... موحية جداً.

وبدا لي أنه نظر إليّ بشيء من المكر وقال: أخبرني، ألا يذكّرك هذا بشيء؟

لم أستسغ منه هذه الكلمات لأنها تذكرني بانطباعي الذي كان في اليوم السابق. سألته: يذكّرني بماذا؟

هز رأسه، ثم قال هامساً: "لعله وهم منّي... مجرد وهم منّي ولم يقبل قول المزيد حول المسألة.

كان لغز يحيط بهذا الأمر بالتأكيد، وكنت ما أزال متأثراً

بذلك الإحساس المحير في أنني فقدت مفتاح اللغز الذي يفسر لي الأمر. وكان يوجد لغز آخر يتعلق بموضوع أقل أهمية، وأعني ذلك الموضوع التافه المتعلق بالقطة الرمادية. ولسبب أو لآخر كان هذا الأمر يثير أعصابي. حلمتُ بالقطط... وخُيّل إليّ أنني أسمع صوتها دائماً، ومن وقت لآخر كنت ألمح ذلك الحيوان الجميل. وقد أقلقتني حقيقة وجود لغز يتعلق بالقطة قلقاً لا يمكن تحمله. وفي قرار مفاجئ من وحي اللحظة كرستُ عصر أحد الأيام للحصول على معلومات من الخادم. قلت له: أيمكنك أن تخبرني بأي شيء عن القطة التي أراها؟

قال بدهشة وأدب: القطة يا سيدي؟

- ألم تكن هنا... ألا توجد قطة هنا؟

- كان عند سيدتي قطة يا سيدي. وكانت قطة رائعة، وقد تعين قتلها مع ذلك لكبر سنها. أمر مؤسف جداً لأنها كانت قطة جميلة.

سألته ببطء: أكانت قطة رمادية؟

- نعم يا سيدي؛ فارسية.

- أتقول إنها قُتلت؟

- نعم يا سيدي.

- أأنت متأكد من أنها قد قُتلت؟

قال الخادم جازماً: "آه! متأكد تماماً يا سيدي. لم تقبل سيدتي إرسالها إلى الطبيب البيطري، بل فعلت ذلك بنفسها قبل أقل من

أسبوع، وقد دُفنت هناك تحت شجرة الزان يا سيدي" ثم خرج من الغرفة بعدما تركني أسبح في تأملاتي.

لماذا أصرت الليدي كارمايكل على أنها لم تربِّ قطة أبداً؟

أحسست بأن هذه المسألة التافهة كانت مهمة بشكل ما. بحثت عن سيتل وسحبته جانباً وقلت: سيتل، أريد أن أسألك سؤالاً، هل رأيت أو سمعت قطة في هذا البيت؟

لم يبدُ أنه قد فوجئ من السؤال، بل بدا كمن توقعه. قال: لقد سمعتها، ولكني لم أرَها.

صحت: ولكن في اليوم الأول... على المرجة مع الآنسة باترسون!

نظر إليّ نظرة متفحصة وقال: رأيتُ الآنسة باترسون تعبر المرجة، ولا شيء غير ذلك.

بدأت أفهم، ثم قلت: إذن فالقطة...؟

أومأ برأسه بالإيجاب وقال: لقد أردت أن أعرف إن كنتَ ستسمع ما نسمعه جميعنا في وقت لا تضللك فيه الأفكار المسبقة!

- إذن فأنتم جميعاً تسمعونها؟

أومأ برأسه بالإيجاب ثانية، وتمتمتُ متأملاً: أمر غريب، لم أسمع من قبل عن شبح قطة يسكن مكاناً.

أخبرته بما علمته من الخادم فدهش وقال: هذا خبر جديد بالنسبة لي؛ لم أكن أعرف هذا.

سألته يائساً: ولكن ماذا يعني هذا؟

هز رأسه قائلاً: الله وحده يعلم! لكني أعترف لك يا كارستيرز... أنني خائف. إن... إن صوت القطة يبدو منذراً بالخطر.

قلت بحدة: منذراً بالخطر؟! منذراً مَن؟

مدّ ذراعيه على اتساعهما وقال: لا أستطيع الجزم.

لم أدرك معنى كلماته إلاّ في تلك الليلة بعد العشاء. كنّا نجلس في غرفة الاستقبال الخضراء كما حدث ليلة وصولي، عندما جاء الصوت... صوت مواء مرتفع ومتواصل لقطة خارج الغرفة، ولكن كان الغضب واضحاً في صوتها هذه المرة، مواء قطة شرسة، مواء طويل مخيف. وعندما توقف الصوت أخذ المقبض النحاسي للباب من الخارج يهتز مصدراً صوتاً قوياً كما لو كان ذلك من مخالب قطة.

قفز سيتل واقفاً وصاح: "أقسم أن هذا حقيقي ثم ذهب نحو الباب وفتحه بقوة، ولكن لم يكن هناك شيء.

عاد وهو يمسح حاجبيه. كانت فيليس شاحبة ترتعد، وعلت وجهَ الليدي كارمايكل صفرةٌ كصفرة الموت. وحده آرثر كان يقعي برضا كأنه طفل ورأسه يستند إلى ركبة زوجة أبيه وهو هادئ لا يعكر صفوه شيء.

وضعت الآنسة باترسون يدها على ذراعي وصعدنا الدرج. صاحت: آه، دكتور كارستيرز! ما هذا؟ ماذا يعني كل هذا؟

- لا نعرف حتى الآن يا عزيزتي. إنني أعتزم كشف الأمر، ولكن يجب ألاّ تخافي. أنا مقتنع بعدم وجود خطر عليك شخصياً.

نظرتْ إليّ بارتياب وقالت: أتظن ذلك؟

أجبتها بقوة: أنا واثق من هذا.

تذكرت كيف كانت القطة الرمادية تمشي بمحبة بين قدميها ولم يكن عندي أي شكوك؛ فالخطر لم يكن عليها.

غلبني النعاس لبعض الوقت ونمت نوماً مضطرباً في النهاية ثم استيقظت مع إحساس بالصدمة. سمعت صوتاً قوياً أشبه بخمش المخالب كما لو كان شيء يتمزق بقوة، فقفزت من سريري واندفعت خارج الغرفة إلى الممر. وفي نفس اللحظة كان سيتل قد اندفع خارج غرفته في الجهة المقابلة.

جاء الصوت من الناحية اليسرى فصاح: هل سمعت ذلك يا كارستيرز؟ هل سمعته؟

مشينا بسرعة إلى باب غرفة الليدي كارمايكل. لم يمر من أمامنا شيء، ولكن الصوت توقف. كانت الشموع التي بأيدينا تنير اللوح اللامع لباب غرفة الليدي كارمايكل، وحدّق كل منا إلى الآخر، ثم همس سيتل بصوت خافت: أتعرف ماذا كان؟

أومأت برأسي وقلت: مخالب قطة تمزق وتقطع شيئاً.

ثم ارتعدتُ قليلاً، وفجأة هتفتُ وأنا أخفض الشمعة التي أحملها: انظر هنا يا سيتل.

كان هناك كرسي مستند إلى الحائط، وكان مقعده ممزقاً على شكل خطوط طولية! وتفحصناه عن قرب. نظر إلي وأومأت له برأسي. قال وهو يسحب نفسه بصعوبة: مخالب قطة دون شك.

نقل بصره من الكرسي إلى الباب المقفل: هذه هي التي يتهددها الخطر، الليدي كارمايكل!

* * *

لم أنم في تلك الليلة بعدها. كان يجب عمل شيء بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، وحسب معرفتي كان شخص واحد بيده مفتاح الأمر هذا. كنت أشك في أن الليدي كارمايكل كانت تعرف أكثر ممّا قالته لنا.

عندما نزلَتْ من غرفتها في الصباح التالي كانت شاحبة كثيراً، وكانت تعبث بالطعام في طبقها دون أن تأكله. كنت متأكداً من أن الإرادة الحديدية وحدها هي التي حفظتها من الانهيار. وبعد الإفطار طلبتُ محادثتها لبعض الوقت، ودخلت في الموضوع مباشرة. قلت: ليدي كارمايكل، عندي سبب يدعوني إلى الاعتقاد بأنك في خطر كبير.

قالت متحدية وبهدوء رائع: أحقاً؟

- إن في هذا البيت شيئاً... أو روحاً... ومن الواضح أنه عدو لك.

تمتمت بازدراء: كلام فارغ. أنا لا أؤمن بمثل هذه الأشياء التافهة.

قلت بجفاء: الكرسي خارج باب غرفتك تمزق مزقاً الليلة الماضية.

- أحقاً؟

رفعت حاجبيها متظاهرة بالدهشة، ولكني أدركت أنني لم أقل لها شيئاً جديداً لا تعرفه. وأضافت: أحسبها مزحة ثقيلة غبية.

أجبتها منفعلاً: "لم يكن الأمر كذلك، وأريدك أن تخبريني... من أجل مصلحتك أنت"، ثم سكت.

- أخبرك بماذا؟

قلت بهدوء: بأي شيء يمكن أن يلقي الضوء على الأمر.

ضحكتْ وقالت: لا أعرف شيئاً، لا شيء أبداً.

ما كان لإنذارات الخطر أن تغريها بالبوح بما تعرف، ومع ذلك كنت مقتنعاً بأنها كانت تعرف أكثر بكثير مما يعرفه أي شخص منّا، وتخفي عنّا مفتاحاً لحل المسألة التي نجهلها جهلاً كاملاً. ولكني رأيت أن من المستحيل دفعها إلى الكلام.

ومع ذلك عزمت على اتخاذ جميع التدابير الاحترازية التي أستطيعها مقتنعاً أن خطراً حقيقياً ووشيكاً يتهددها، وقبل أن تذهب إلى غرفتها في الليلة التالية درست مع سيتل الأمر دراسة متعمقة، واتفقنا على أن نتناوب على مراقبة الممر.

توليتُ أنا نوبة الحراسة الأولى التي مرّت دون وقوع حادث، وفي الساعة الثالثة صباحاً حلّ سيتل مكاني. كنت متعباً بعد الليلة

الماضية التي لم أذق فيها طعم النوم وغلبني النعاس على الفور، وقد حلمت حلماً غريباً جداً. رأيت أن تلك القطة الرمادية كانت تجلس عند طرف سريري وعيناها مركزتان على عينيّ بنظرات استغاثة غريبة، وبتلقائية الأحلام عرفت أن تلك المخلوقة تريدني أن أتبعها. فعلت ذلك وقادتني إلى درج كبير ثم إلى الجناح المقابل مباشرة في البيت إلى غرفة كان واضحاً أنها مكتبة. ثم وقفَتْ عند أحد جوانب الغرفة ورفعت مخلبها الأمامي إلى أن وضعته على أحد رفوف الكتب السفلية، بينما كانت تحدق إليّ مرة أخرى بنفس نظرة الاستغاثة تلك. ثم... اختفت القطة والمكتبة واستيقظت لأجد الصباح قد حل.

مرت نوبة سيتل في المراقبة من دون حدوث شيء، لكنه كان مهتماً اهتماماً شديداً بسماع حلمي. وقد أخذني إلى المكتبة بناء على طلبي، وكانت تشبه الغرفة التي حلمت بها بكل تفصيلاتها، حتى إنني تمكنت من الإشارة إلى المكان الذي وضعت القطة مخلبها عليه بالضبط وهي تنظر إليّ تلك النظرة الحزينة الأخيرة.

وقفنا هناك حائرين صامتين، وفجأة خطرت ببالي فكرة وانحنيت لأقرأ عنوان الكتاب في ذلك المكان بالضبط، وقد لاحظت وجود فراغ في صف الكتب.

قلت لسيتل: لقد أُخذ من هذا المكان كتاب.

انحنى هو الآخر على رف الكتب ثم هتف: آه! إن في الخلف هنا ظفراً هو الذي مزق قصاصة من الكتاب المفقود.

أخرج قصاصة الورق الممزقة بحذر، ولم يكن حجمها يتجاوز

بوصة واحدة مربعة، ولكن كان مطبوعاً عليها كلمة لها مدلولها: "القطة"!

قال سيتل: هذا الشيء يخيفني جداً. إنه غريب مخيف.

قلت: كم أود معرفة الكتاب المفقود من هنا. هل توجد طريقة لمعرفة ذلك؟

- ربما كان يوجد فهرس للكتب في مكان ما. ربما الليدي كارمايكل...

هززت رأسي وقلت: لن تخبرك الليدي كارمايكل بأي شيء.

- أتظن ذلك؟

- بل أنا واثق منه؛ ففي الوقت الذي نتحسس طريقنا في الظلام ونضرب أخماساً في أسداس فإن الليدي كارمايكل تعرف. إن لديها من الأسباب ما يمنعها من قول أي شيء، وهي تفضل التعرض لأفظع المجازفات على البوح بما تعرفه.

* * *

مرّ اليوم دون أحداث تذكر ممّا ذكرني بالهدوء الذي يسبق العاصفة، وقد أحسست إحساساً غريباً بأن المشكلة على وشك الحل. كنت أتخبط في ظلام الجهل لكني سأعرف قريباً. كانت الحقائق كلها هناك، جاهزة تنتظر ومضة نور صغيرة من شأنها أن تربط تلك الحقائق بعضها ببعض وتظهر أهميتها.

وقد جاءت تلك الومضة بالفعل... وجاءت بأغرب الطرق!

كان ذلك عندما كنا جميعاً نجلس معاً في غرفة الجلوس الخضراء بعد العشاء كالعادة. كنّا في صمت مطبق، وكانت الغرفة هادئة جداً، ثم عبَرَ الغرفةَ فأرٌ صغير. وقد حدث الشيء بلحظة واحدة.

فقد وثب آرثر كارمايكل عن كرسيه وثبة طويلة واحدة. كان جسده المنتفض يجري بسرعة السهم في أعقاب الفأر، واختفى الفأر وراء الجدار الخشبي للغرفة، وهناك جثا آرثر على ركبتيه يراقب، فيما بقي جسده يرتعد لهفة.

كان ذلك مرعباً! لم أشهد في حياتي لحظة تتجمد فيها ردود الأفعال كهذه اللحظة، ولم يعد يحيرني ذلك الشيء الذي ذكّرني به آرثر كارمايكل بمشيته المختلسة ونظراته المراقِبة. وبومضة إدراك اجتاحني تفسير قاسٍ، مُستهجَن، لا يُصدَّق! وقد رفضتُه في نفسي باعتباره مستحيلاً ولا يمكن تصوره! ولكني لم أستطع طرده من عقلي.

لا أكاد أذكر ما حدث بعد ذلك، فالحدث كله بدا غير واضح وغير حقيقي. أعرف أننا صعدنا الدرج بطريقة ما، ثم ودّع كل منا صاحبه باقتضاب ونحن نكاد نخشى أن تلتقي عيوننا خشية أن يجد أحدنا في عيني صاحبه ما يؤكد مخاوفه.

وقف سيتل خارج باب غرفة الليدي كارمايكل حتى يؤدي نوبة الحراسة الأولى حيث اتفقنا على أن يستدعيني في الساعة الثالثة صباحاً. ولم تكن عندي مخاوف خاصة على الليدي كارمايكل؛ فقد كنت مستغرقاً تماماً في نظريتي الغريبة المستحيلة. قلت لنفسي

إن هذا مستحيل، ولكن عقلي عاد إليها مسحوراً.

ثم اضطرب سكون الليل فجأة. ارتفع صوت سيتل على شكل صرخة وهو يناديني، فخرجت إلى الممر مندفعاً.

كان يطرق ويضرب باب غرفة الليدي كارمايكل بكل قوته. صاح: تباً لهذه المرأة... لقد أقفلته!

- ولكن...

- إنه في الداخل يا رجل؛ في الداخل معها! ألا تسمع؟

ومن وراء الباب المقفل تعالى بعنف صوتُ زمجرة قطة، ثم تبعته صرخة مخيفة، ثم صرخة أخرى... وميزتُ فيهما صوت الليدي كارمايكل.

صحت: الباب! يجب أن نكسره؛ فبعد دقيقة سيكون كل شيء قد انتهى.

وجهنا كتفينا إلى الباب واندفعنا إليه بكل قوتنا. فُتح الباب بخبطة قوية، وكدنا نسقط على أرض الغرفة. وكانت الليدي كارمايكل ممددة على السرير تسبح في دمائها. لم أرَ منظراً رهيباً كهذا من قبل. كان قلبها ما يزال يخفق، لكن جروحها كانت رهيبة، فقد تمزق وانكشط جلد حنجرتها، وهمست وأنا أرتعد: "المخالب... واجتاحني رعب خرافي غريب.

ضمدت الجروح بعناية واقترحت على سيتل أن من الأفضل الإبقاء على طبيعة هذه الجروح سراً، وخصوصاً عن الآنسة

باترسون، وكتبت برقية أطلب فيها ممرضة، على أن تُرسل حالما يفتح مكتب البريد.

بدأ ضوء الفجر يتسلل الآن من خلال النافذة، ونظرت خارج الشبّاك إلى المرجة أسفل منّي. قلت لسيتل بسرعة: البس ملابسك وهيا نخرج. ستكون الليدي كارمايكل على ما يرام الآن.

كان جاهزاً في الحال وخرجنا إلى الحديقة معاً حيث سألني: ما الذي ستفعله؟

قلت مختصراً الحديث: أريد أن أنبش مكان دفن القطة. يجب أن أتأكد...

وجدت مجرفة في سقيفة الأدوات وبدأنا الحفر تحت شجرة الزان الكبيرة، وفي النهاية أثمرت جهودنا عن شيء. لم يكن الأمر ساراً، فقد كانت القطة ميتة منذ أسبوع، لكنني رأيت ما أردت رؤيته.

قلت: هذه هي القطة؛ القطة ذاتها التي رأيتها في اليوم الأول لوصولي إلى هنا!

استنشق سيتل الهواء. كانت رائحة لوز مرّ ما تزال عالقة في الهواء، وقال: حامض البروسيك.

أومأت برأسي موافقاً، فسألني بفضول: ما الذي تراه؟

- ما تراه أنت أيضاً!

لم يكن حدسي شيئاً جديداً بالنسبة له، وقد أدركت أن أفكاري

خطرت بذهنه هو الآخر. همس قائلاً: هذا مستحيل، مستحيل! إنه منافٍ للعلم... ولقوانين الطبيعة!

تلاشى صوته وارتجف قائلاً: ذلك الفأر في الليلة الماضية. ولكن... أووه! هذا غير ممكن!

قلت: إن الليدي كارمايكل امرأة غريبة جداً. ربما كانت لديها قوى خفية؛ قوى تنويم مغنطيسي. أيمكننا أن نعرف كيف استطاعت الاستفادة من هذه القوى على شخص ضعيف وديع مثل آرثر كارمايكل؟ وتذكّر يا سيتل، إذا بقي آرثر كارمايكل معتوهاً بائساً محبّاً لها فإن جميع أملاكه ستؤول من الناحية العملية إليها وإلى ابنها، ابنها الذي أخبرتَني أنها تحبه حبّاً شديداً. وكان آرثر على وشك الزواج!

- ولكن ما الذي سنفعله يا كارستيرز؟

- لا شيء يمكن عمله. ومع ذلك سنبذل قصارى جهدنا لكي نقف بين الليدي كارمايكل وبين الانتقام.

تحسنت حالة الليدي كارمايكل تدريجياً، فقد شفيت جروحها على أحسن ما يكون، وربما ستبقى آثار الجروح الناتجة عن ذلك الهجوم الرهيب تلازمها حتى نهاية حياتها.

لقد بلغ بي اليأس حده؛ فالقوة التي هزمتنا ما زالت حرة طليقة لم تُهزَم، ورغم أنها كانت خامدة في الوقت الحالي فإننا نرى أن ذلك لا يعدو أن يكون انتظاراً للفرصة الملائمة. لقد عزمتُ على شيء واحد؛ فحالما تتعافى الليدي كارمايكل من جراحها تماماً يجب أن

تؤخَذ بعيداً عن منزل وولدن، فقد كانت الفرصة كامنة بألاّ يستطيع هذا الشبح الرهيب اللحاق بها.

* * *

وهكذا مرت الأيام. حدّدت يوم الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) موعداً لترحيل الليدي كارمايكل، إلاّ أنه في صباح الرابع عشر من أيلول نشأت أزمة غير متوقعة.

كنت في المكتبة أناقش تفصيلات حالة الليدي كارمايكل مع سيتل عندما اقتحمت علينا الغرفةَ خادمةٌ مهتاجة وصاحت: آه، سيدي، بسرعة! السيد آرثر... لقد سقط في البركة. لقد وضع قدمه في القارب فانزاح في البركة مما أفقده توازنه فسقط في البركة... لقد رأيت المشهد من النافذة.

لم أنتظر منها المزيد، فقد أسرعت خارج الغرفة مباشرة وتبعني سيتل. كانت فيليس قد خرجت لتوها وسمعت رواية الخادمة فركضت معنا وهي تنادي: ولكن لا حاجة بكم للخوف؛ إن آرثر سبّاح رائع.

ومع ذلك أحسست بنذير شر ولذلك أسرعت في خطواتي. لم يكن سطح البركة مضطرباً، وكان القارب فارغاً طافياً على البركة ويتمايل ببطء... ولكن لم يكن لآرثر أي أثر.

خلع سيتل معطفه وحذاءه وقال: سأغطس في الماء. خذ خطّاف القارب وحركه في الماء باستخدام القارب الآخر. الماء ليس عميقاً كثيراً.

بدا الوقت طويلاً جداً ونحن نبحث في الماء عبثاً، دقيقة تلو دقيقة. وبعد ذلك، وعندما تمكن اليأس من نفوسنا، وجدناه.

حملنا آرثر كارمايكل الذي لم تبدُ فيه حياة وأخذناه إلى الشاطئ، ومهما حييت فلن أنسى أبداً ذلك الكرب واليأس الباديين على وجه فيليس وهي تصيح: "إنه ليس... ليس..."، ولكن شفتيها رفضتا النطق بالكلمة الفظيعة.

صحت: لا، لا يا عزيزتي. سوف نعيده إلى وعيه؛ لا تخافي.

ولكني أحسست بالأمل ضئيلاً في قرارة نفسي؛ فقد بقي تحت الماء مدة نصف ساعة.

أرسلت سيتل إلى البيت ليحضر بطانيات وبعض اللوازم الأخرى، وبدأت أسعفه بالتنفس الاصطناعي. وعملنا على هذا الحال لأكثر من ساعة متواصلة ولكن لم تظهر عليه أي علامة على الحياة.

أشرت إلى سيتل بأن يتولى عملي مرة أخرى واقتربت من فيليس قائلاً بلطف: أخشى أنه ما من فائدة؛ فلم يعد بمقدورنا مساعدة آرثر.

بقيتْ ساكنةً تماماً لبعض الوقت ثم ألقت بنفسها فجأة على الجسد الهامد وصاحت يائسة: آرثر! آرثر! عد إليّ. آرثر، عُدْ إليّ... عُدْ!

تردد صدى صوتها من بعيد في جو الصمت، وفجأة أمسكتُ

بذراع سيتل وقلت: انظر!

تغير لون وجه الرجل الغريق، فتحسستُ قلبه وصحت: استمر في التنفس الاصطناعي. إنه يستعيد وعيه!

بدت اللحظات وكأنها تطير الآن، فخلال وقت قصير جداً فتح عينيه. ثم -فجأة- أدركت وجود اختلاف؛ فقد كانت هذه عيوناً ذكية، عيوناً بشرية...

تركزت عيناه على فيليس، ثم قال بصوت ضعيف: مرحباً يا فيل. أهذه أنت؟ ظننت أنك لن تأتي حتى الغد.

لم يكن بإمكانها أن تتكلم لكنها ابتسمت له، فنظر حوله في حيرة متزايدة وقال: ولكن، أين أنا؟ آه، كم أحس بالإرهاق! ماذا جرى؟ مرحباً يا دكتور سيتل!

أجابه سيتل عابساً: لقد كنت على وشك الغرق... هذا ما جرى.

قطب آرثر جبينه وقال: ولكن كيف حدث ذلك؟ هل كنت أمشي في نومي؟

هز سيتل رأسه بأسف، وقلت وأنا أتقدم نحوه: يجب أن نأخذه إلى البيت.

حدّق إليّ، وقدمتني فيليس له قائلة: إنه الدكتور كارستيرز الذي يقيم هنا معنا.

ساعدناه على السير إلى البيت، ورفع بصره فجأة وكأن فكرة خطرت له وقال: هل سيستمر بي الحال هكذا حتى الثاني عشر من الشهر يا دكتور؟

قلت ببطء: الثاني عشر؟ أتقصد الثاني عشر من آب (أغسطس)؟

- نعم؛ الجمعة القادمة.

قالت سيتل بسرعة: اليوم هو الرابع عشر من أيلول (سبتمبر).

بدت الحيرة واضحة عليه وقال: ولكن... ولكني كنت أعتقد أن اليوم هو الثامن من آب؟ إذن لا بد أنني كنت مريضاً؟

تدخلت فيليس بسرعة بصوتها الناعم قائلة: نعم؛ كنت مريضاً.

عبس وقال: لا يمكنني فهم ذلك. كنت في أتم صحة عندما ذهبتُ إلى النوم في الليلة الماضية... باستثناء أنها لم تكن الليلة الماضية حقاً فيما يبدو. ومع ذلك كانت تراودني أحلام. أتذكّر، أحلام...

قطب حاجبيه أكثر وهو يحاول أن يتذكر: شيء... ماذا كان ذلك؟ شيء مخيف، فعله أحدهم لي. وكنت غاضباً... يائساً... ثم حلمت أنني قطة! نعم، قطة! أليس هذا مضحكاً؟ ولكنه لم يكن حلماً مضحكاً. كان أكثر من ذلك... كان مرعباً! لكني لا أستطيع أن أتذكّر. إن الذاكرة تفلت مني عندما أفكر فيه.

وضعتُ يدي على كتفه وقلت بهدوء: لا تحاول التفكير

يا آرثر؛ كن راضياً بالنسيان.

نظر إليّ متحيراً وأومأ برأسه، وسمعت فيليس تتنهد بارتياح. كنّا قد وصلنا إلى البيت حين سأل آرثر فجأة: على فكرة، أين الأم؟

قالت فيليس بعد سكوت لحظة: لقد كانت مريضة.

- آه، يا للعجوز المسكينة!

كان صوته يدل على اهتمام حقيقي بها.

- أين هي؟ أهي في غرفتها؟

قلت: نعم، ولكن من الأفضل ألاّ تقلق...

تجمدت الكلمات على شفتي؛ فقد فُتح باب غرفة الاستقبال وخرجت الليدي كارمايكل منه إلى الصالة وهي ترتدي لباس النوم. تركزت عيناها على آرثر، ولم أرَ أبداً نظرة رعب كنظرتها له. لم يكن وجهُها وجهَ إنسان طبيعي وقد تجمد عليه الرعب، ورفعت يدها وتحسست حنجرتها.

تقدم آرثر نحوها بحنان طفولي وقال: مرحباً يا أماه! إذن فقد كنتِ مريضة أنت أيضاً؟ أنا آسف لسماع ذلك.

تراجعت من أمامه بسرعة وعيناها واسعتان من الذهول، ثم أطلقت صرخة صادرة عن روح هالكة، ووقعت على ظهرها فجأة عند الباب المفتوح.

أسرعت وانحنيت فوقها ثم أشرت إلى سيتل قائلاً: صه!

خذه إلى الطابق العلوي بهدوء ثم عُد إليّ ثانية. لقد ماتت الليدي كارمايكل!

عاد بعد دقائق وسأل: ماذا كان؟ ما سبب الوفاة؟

قلت متجهماً: الصدمة... الصدمة من رؤية آرثر كارمايكل وقد عاد إلى الحياة! أو يمكنك أن تسميها -كما يحلو لي أن أسميها- بأنها قضاء الله!

تردد وهو يقول: تقصد...

نظرت إليه نظرات فهمها، وقلت بوضوح: حياة مقابل حياة!

- ولكن...

- إن حادثاً غريباً وغير متوقَّع قد سمح لروح آرثر كارمايكل بالعودة إلى جسده. ولكن مع ذلك، فقد قُتل آرثر كارمايكل من قبل!

نظر إليّ بشيء من الخوف وسألني بصوت خافت: بحامض البروسيك؟

أجبته: نعم؛ بحامض البروسيك.

* * *

لم نصرح أنا وسيتل باعتقادنا هذا؛ فلم يكن من المرجح تصديقه. فمن وجهة النظر التقليدية كان آرثر كارمايكل يعاني من مجرد فقدان الذاكرة، أما الليدي كارمايكل فقد جرحت حنجرتها في

نوبة مؤقتة من الجنون، وكان ظهور القطة الرمادية مجرد تخيل.

ولكن تبقى عندي حقيقتان أكيدتان؛ إحداهما الكرسي الممزق في الممر، والأخرى ذات دلالة أكبر. فقد عُثر على فهرس كتب المكتبة، وبعد بحث واستقصاء ثبت أن الكتاب المفقود كان كتاباً قديماً وغريباً حول إمكانيات مسخ البشر إلى حيوانات!

وهناك شيء آخر. أنا سعيد لأن آرثر لا يعلم شيئاً عما جرى؛ فقد احتفظتْ فيليس بسرّ هذه الأسابيع في قلبها، وأنا واثق من أنها لن تبوح بها لزوجها الذي تحبه كثيراً، والذي عاد إلى الحياة بفضل ندائها!



نداء الاستغاثة

تنهد السيد دينزميد مبدياً ارتياحه، ثم تراجع إلى الوراء قليلاً ونظر إلى الطاولة المستديرة نظرة استحسان. كان ضوء نار الموقد يلتمع على غطاء الطاولة الأبيض الخشن وعلى السكاكين والشوكات وعلى تجهيزات الطاولة الأخرى.

سألته السيدة دينزميد مترددة: هل... هل كل شيء جاهز؟

كانت امرأة قصيرة نحيلة ذات وجه شاحب وشعر خفيف شدته عن جبهتها إلى الوراء، وكانت دائمة العصبية.

قال زوجها بلطف شديد: كل شيء جاهز.

كان رجلاً ضخماً مقوس الكتفين ذا وجه أحمر عريض، وكانت له عينان صغيرتان تلتمعان تحت حاجبين كثيفين وخدان كبيران خاليان من الشعر.

اقترحت السيدة دينزميد بصوت هامس تقريباً: شراب الليمون؟

هز زوجها رأسه بالنفي وقال: بل الشاي؛ إنه أفضل من أي شراب. انظري إلى الجو، إنه عاصف. إن فنجاناً رائعاً من الشاي الحار هو ما نحتاج إليه على العشاء في ليلة كهذه.

غمزها بعينه مازحاً ثم عاد ليجيل بصره في الطاولة من جديد قائلاً: طبق جيد من البيض ولحم بقر مملح بارد وخبز وجبنة. هذا هو نظامي على العشاء. هيّا اذهبي وجهزيه يا امرأة. إن تشارلوت في المطبخ تنتظر لتساعدك.

نهضت السيدة دينزميد وهي تلفّ كرة الصوف التي كانت تغزل منها وتمتمت: لقد كبرتْ وأصبحت فتاة جميلة جداً.

قال دينزميد: آه، إنها صورة طبق الأصل عن أمها! هيّا اذهبي ولا تضيعي أي وقت.

بدأ يمشي في الغرفة وهو يدندن في نفسه لبعض الوقت، ثم اقترب من النافذة وأطل منها وهو يتمتم لنفسه: "طقس سيء؛ من غير المرجح مجيء زوار هذه الليلة" ثم ترك الغرفة هو الآخر.

بعد ذلك بعشر دقائق دخلت السيدة دينزميد وهي تحمل طبقاً من البيض المقلي، وتبعتها ابنتاها وهما تحملان بقية الطعام، ودخل السيد دينزميد وابنه جوني وراءهن.

جلس الأب عند رأس الطاولة وقال ساخراً: والآن إلى ما سنأكله. بارك الله ذلك الرجل الذي ابتكر الطعام المعلب، فماذا كنّا سنفعل لو لم تكن عندنا اللحوم المعلبة نلجأ إليها عند الحاجة، ونحن على بعد أميال من أي معلم للحياة، خاصة عندما ينسى الجزار زيارته الأسبوعية؟

ثم شرع في تقطيع اللحم المملح بطريقة بارعة، فقالت ابنته ماجدالين متذمرة: أتساءل مَن الذي فكّر في بناء بيت كهذا يبعد أميالاً

عن أقرب منطقة مأهولة؟ إننا لا نرى مخلوقاً أبداً.

قال والدها: نعم؛ لا نرى مخلوقاً واحداً.

قالت تشارلوت: لا أعرف ما الذي جعلك تشتريه يا أبي.

أجابها أبوها: "ألا تعرفين يا ابنتي؟ كانت لديّ أسبابي... كانت لديّ أسبابي ثم بحثت عيناه عن زوجته خلسة، ولكنها كانت عابسة.

قالت تشارلوت: وهو مسكون أيضاً! ما كنتُ لأنام هنا وحدي مهما كلف الأمر.

قال والدها: هذا هراء! هل شاهدتِ أي شيء؟ لا تبالغي.

- ربما لم أرَ شيئاً، ولكن...

- ولكن ماذا؟

لم ترد عليه تشارلوت، ولكنها ارتعدت قليلاً. سقطت زخة مطر كثيفة وارتطمت بزجاج النافذة وأسقطت السيدة دينزميد ملعقة على الصينية محدثة رنيناً.

قال السيد دينزميد: هل أعصابك متوترة؟ إنها ليلة عاصفة، هذا كل ما في الأمر. ولكن لا تقلقي؛ فنحن في أمان هنا قرب موقدنا وليس من المحتمل أن يزعجنا أي شخص من الخارجِ. ستكون معجزة لو جاء شخص إلينا، والمعجزات لا تحدث كثيراً.

ثم أضاف وكأنه يخاطب نفسه وبرضا غريب: نعم؛ المعجزات لا تحدث كثيراً.

وعندما كان ينطق بهذه الكلمات جاءت طرقات مفاجئة على الباب. جمد السيد دينزميد مكانه وكأنه قد تحجر، ثم تمتم فاغراً فمه: ما هذا؟

صاحت السيدة دينزميد صيحة صغيرة ولفت الشال حول رقبتها، وتورد وجه ماجدالين ومالت إلى الأمام لتكلم أباها قائلة: لقد حدثت المعجزة! من الأفضل أن تذهب وتدخل الطارق، كائناً مَن كان.

* * *

قبل ذلك بعشرين دقيقة كان مورتيمر كليفلاند قد وقف في الضباب تحت المطر المنهمر ينظر إلى سيارته. لقد كان حظه سيئاً جداً؛ فقد انثقب إطاران من سيارته خلال عشر دقائق، وها هو ذا يقف وحيداً بعيداً عن أقرب منطقة سكنية مسافة أميال وسط منطقة منخفضة من مناطق ويلتشاير، ومع قدوم الليل من دون وجود أي ملجأ يلجأ إليه. هذا جزاؤه إذ حاول اتباع طريق مختصر. ليته بقي يسير على الطريق العام! وها قد ضاع الآن على طريق من طرق عربات الخيول ولا يعرف إن كانت هناك أية قرية قريبة منه.

نظر حوله متحيراً فلمح وميضاً على سفح التل فوقه، وبعد ثانية أخفى الضباب ذلك الوميض مرة أخرى، ولكنه انتظر صابراً فلمحه على الفور من جديد. وبعد لحظة تفكير ترك السيارة وصعد على جانب التل.

وسرعان ما خرج من الضباب وعرف أن ذلك الوميض كان

ضوءاً يشع من نافذة بيت صغير. ها قد وجد ملجأ على أية حال! أسرع مورتيمر كليفلاند في خطواته وهو يخفض رأسه ليحمي نفسه من لسعات الريح القوية الباردة والمطر الذي بدا وكأنه يريد دفعه إلى الوراء من حيث جاء.

كان كليفلاند يحظى ببعض الشهرة بطريقته الخاصة، رغم أن غالبية الناس كانت تجهل اسمه ومنجزاته تماماً. كان يُعَدّ مرجعاً في علم النفس وقد ألّف كتابين منهجيين ممتازين عن العقل الباطن، كما كان عضواً في جمعية الأبحاث النفسية، وباحثاً في مجالات الغيبيات التي تؤثر على استنتاجاته ومجال أبحاثه.

كان بطبيعته غريباً في تأثره الشديد بالجو المحيط به، وقد طور موهبته الطبيعية عن طريق التدريب المتعمد. وعندما وصل إلى البيت في نهاية الأمر ودق على الباب أحس بشيء من الإثارة، بتسارع لاهتمامه، وكأن كل ملكاته استيقظت فجأة وبحدة.

كان يسمع تمتمات الأصوات في الداخل بوضوح؛ فعندما طرق الباب ساد الصمت فجأة، ثم سمع صوت كرسيّ يُدفَع إلى الوراء، وبعد دقيقة فتح البابَ صبيٌّ في الخامسة عشرة من عمره.

نظر كليفلاند من فوق كتف الصبي إلى داخل البيت، وذكّره المنظر بصورة منزلية لأحد الرسامين الهولنديين العظام: طاولة مستديرة معدّة للطعام، وأفراد العائلة يجلسون حولها، وشمعة أو شمعتان تضيئان، وضوء الموقد يطغى على الجميع. وقد جلس الأب الضخم على أحد جوانب الطاولة، وجلست مقابله امرأة ضئيلة الجسم ذات شعر رمادي ووجه مرعوب. وفي مواجهة الباب كانت

فتاة تنظر إلى كليفلاند مباشرة، وقد حدقت عيناها الجافلتين إلى عينيه مباشرة وتسمرت يدها بكوب الشاي في منتصف المسافة إلى شفتيها.

أدرك كليفلاند -في الحال- أنها فتاة جميلة جمالاً خاصاً غير شائع؛ فقد ارتفع شعرها الذهبي المحمرّ حول وجهها، وكانت عيناها المتباعدتان كثيراً إحداهما عن الأخرى ذواتَي لون رمادي صرف.

خيّم الصمت المطبق للحظات، ثم دخل كليفلاند البيت وشرح محنته، وقد أنهى قصته ليسود الجوَّ صمتٌ آخر يصعب فهمه. وفي النهاية نهض الأب وكأنه يبذل جهداً في ذلك وقال: تفضل يا سيد... أقلت إنك السيد كليفلاند؟

قال مورتيمر وهو يبتسم: نعم؛ هذا صحيح.

- آه، نعم. تفضل يا سيد كليفلاند. إنه جو رديء في الخارج، أليس كذلك؟ وحتى لو جاءني كلب فما كنت لأردّه في ليلة كهذه! تعال قرب النار. أغلق الباب يا جوني؛ لا تبقَ واقفاً هناك.

دخل كليفلاند فجلس على كرسي خشبي قرب النار، وأغلق الصبي جوني الباب.

قال الرجل: اسمي دينزميد.

كان يتحدث بلطف شديد، وأضاف قائلاً: هذه زوجتي وهاتان ابنتاي تشارلوت وماجدالين.

لأول مرة رأى كليفلاند وجه الفتاة التي كانت تجلس وتدير له

ظهرها عندما كان واقفاً عند مدخل الباب، ورأى أنها لا تقل جمالاً عن أختها ولكن بصورة مختلفة تماماً. كانت شديدة السمرة وذات وجه رخامي شاحب وأنف رقيق معقوف وفم يوحي بالجدية. كان نوعاً من الجمال الجامد، الجمال المجرد القاسي الذي يكاد يصد المرء عنه. ردّت على تقديم والدها لها بانحناءة من رأسها، ونظرت إلى الضيفُ نظرة فاحصة باحثة. كانت كمن يريد تكوين رأي عنه ووزنه وفقاً لرأيها اليافع.

- هل لك في شرب شيء يا سيد كليفلاند؟

قال مورتيمر: شكراً لك. إن فنجاناً من الشاي يفي بالغرض.

تردد السيد دينزميد دقيقة، ثم رفع الفناجين الخمسة واحداً تلو الآخر عن الطاولة وفرغها في إناء كبير وقال باقتضاب: هذا الشاي بارد. هل تحضرين لنا شاياً غيره أيتها الأم؟

نهضت السيدة دينزميد بسرعة وهي تحمل إبريق الشاي، وأحس مورتيمر بأنها كانت مسرورة لخروجها من الغرفة.

جاء الشاي الجديد بسرعة وانهالت أصناف الطعام على الضيف غير المتوقع، وراح السيد دينزميد يتحدث ويتحدث. كان مُسهباً وودوداً وثرثاراً، وقد أخبر الرجل الغريب بكل شيء عن نفسه. فقد ترك مؤخراً تجارة البناء بعد أن جنى منها ربحاً مجزياً، وقد فكر هو وزوجته برغبتهما بنقاء الهواء في الريف؛ إذ لم يسبق لهما العيش فيه. وكان وقتاً غير موفق هذا الذي اختاراه بالطبع، في تشرين الأول (أكتوبر)، ولكنهما لم يريدا الانتظار؛ فما من شيء يقيني في هذه

الحياة. ولذلك فقد اشتريا هذا البيت. إنه يبعد ثمانية أميال عن أي مكان مأهول، وتسعة عشر ميلاً عن أية بلدة بالمعنى الحقيقي للكلمة. وهما لم يتذمّرا، ولكن الفتاتين وجدتاه مملاً قليلاً، وقد استمتع هو وزوجته بالهدوء.

وهكذا تحدّث تاركاً مورتيمر وكأنه نائم مغنطيسياً من انسياب الحديث. لا يوجد هنا شيء -بالتأكيد- باستثناء الحياة العائلية العادية، ومع ذلك فقد شخّصَ عند النظرة الأولى للبيت وجود شيء آخر؛ بعض التوتر، بعض القلق، ينبعث من واحد من هؤلاء الخمسة. لم يعرف أيهم بالتحديد. أيكون ذلك مجرد حماقة سببها انحراف مزاجه! كل ما في الأمر أنهم جفلوا جميعاً من ظهوره المفاجئ.

قدم طلباً للمبيت عندهم تلك الليلة فاستجابوا له على الفور مرحبين: بالطبع عليك أن تقيم معنا الليلة يا سيد كليفلاند؛ فحولنا أميال لا تجد فيها شيئاً. يمكننا تخصيص غرفة نوم لك، ورغم أن منامتي قد تكون واسعة قليلاً عليك إلاّ أنها أفضل من لا شيء، وستكون ملابسك قد جفت بحلول الصباح.

- هذا لطف كبير منك.

قال الآخر بلطف: أبداً؛ فكما قلت قبل قليل، لا يستطيع المرء التنكر لكلب في ليلة كهذه. ماجدالين، تشارلوت، اصعدا ورتبا الغرفة.

غادرت الفتاتان الغرفة، وسرعان ما سمعهما مورتيمر تتحركان فوقه في الطابق العلوي.

قال كليفلاند: إنني أتفهم تماماً أن تشعر شابتان جميلتان كابنتيك بأن هذا البيت ممل.

قال دينزميد مفتخراً بابنتيه: إنهما جميلتان، أليس كذلك؟ إنهما لا تشبهان كثيراً أمهما أو تشبهانني، فنحن زوجان لا نتميز بالجمال، ولكننا شديدا التعلق كل بالآخر. يمكنك المراهنة على ذلك يا سيد كليفلاند. إيه، أليس هذا صحيحاً يا ماغي؟

ابتسمت السيدة دينزميد ابتسامة متكلفة. كانت قد بدأت تغزل الصوف بصنارتها من جديد، وكانت الصنارتان تعملان بدأب. لقد كانت سريعة في حبك الصوف.

وسرعان ما أعلنت الفتاتان أن الغرفة جاهزة وأعرب مورتيمر عن نيته في الذهاب إلى غرفته بعد أن شكر أهل البيت.

سألت السيدة دينزميد في اهتمام مفاجئ بسمعة بيتها: هل وضعتما زجاجة ماء حار في السرير؟

قالت إحداهما: نعم يا أمي، اثنتين.

قال دينزميد: حسناً، اصعدا معه وتأكدا من عدم حاجته لأي شيء آخر.

ذهبت ماجدالين إلى النافذة وتأكدت من أنها مقفلة بإحكام، وألقت تشارلوت نظرة أخيرة على تجهيزات المغسلة، ثم اتجهتا إلى الباب وقالت ماجدالين: تصبح على خير يا سيد كليفلاند. هل أنت متأكد من توفر كل شيء؟

- نعم، أشكرك يا آنسة ماجدالين. أنا محرج لأنني تسببت لكما بكل هذه المتاعب. طابت ليلتكما.

- طابت ليلتك.

خرجتا وأغلقتا الباب وراءهما، وبقي مورتيمر كليفلاند وحده. خلع ملابسه ببطء وهو يتأمل، وعندما لبس منامة السيد دينزميد الزهرية اللون جمع ملابسه المبتلة ووضعها خارج الباب بناء على طلب مضيفه. وكان يمكنه سماع صوت السيد دينزميد في الطابق الأرضي.

يا له من رجل ثرثار! إنه شخصية غريبة إجمالاً. ولكن كان هناك -في الحقيقة- شيء غريب يتعلق بالأسرة كلها، أم كان ذلك من نسج خياله فقط؟

عاد إلى غرفته ببطء وأغلق الباب ووقف بجانب السرير غارقاً في التفكير، ثم ما لبث أن جفل؛ فقد كانت طاولة الماهوغاني الأحمر بجانب السرير مغطاة بالغبار، وقد كُتبت على الغبار كلمة «النجدة».

حدق مورتيمر إليها وكأنه لا يكاد يصدق ما تراه عيناه. لقد كانت تأكيداً لكل ظنونه وهواجسه الغامضة! إذن فقد كان محقاً؛ كان في هذا البيت شيء غير طبيعي.

«النجدة»... هتاف استغاثة! ولكن أية إصبع هي التي كتبتها على الغبار؟ إصبع ماجدالين أم تشارلوت؟ كلتاهما وقفتا هناك لبعض الوقت قبل أن تخرجا من الغرفة. يد مَن التي وقعت على الطاولة

خفية وكتبت هذه الكلمة؟

تخيل وجه الفتاتين أمامه. وجه ماجدالين الأسمر اللامبالي ووجه تشارلوت كما رآه أول مرة، عيون واسعة مرعوبة وفي نظرتها شيء غير مفهوم...

ذهب باتجاه الباب ثانية وفتحه. لم يعد يسمع هدير السيد دينزميد، بل كان البيت صامتاً. وفكر في نفسه: لا يمكنني عمل شيء الليلة. أما غداً، فسوف نرى!

* * *

استيقظ كليفلاند مبكراً، فنزل وعبَرَ غرفة المعيشة إلى الحديقة. كان الصباح منعشاً وجميلاً بعد المطر، وكان هناك شخص استيقظ مبكراً هو الآخر؛ ففي طرف الحديقة كانت تشارلوت تتكئ على السياج وتنظر إلى المنطقة أسفل منها. وقد زاد نبض قلبه قليلاً عندما ذهب للانضمام إليها؛ فقد كان مقتنعاً منذ البداية بأن تشارلوت هي التي كتبت تلك الرسالة، وعندما وصل إليها التفتت وحيّته. كانت عيناها مباشرتين وطفوليتين وليس فيهما أي أثر لتفاهم سري.

قال مورتيمر وهو يبتسم: صباح رائع. إن الجو هذا الصباح عكس ما كان عليه الليلة الماضية.

- إنه حقاً كذلك.

قطع مورتيمر غصناً صغيراً من شجرة بجانبه، وبدأ يخط به ببطء على الرمل الناعم تحت قدمه كلمة « النجدة » وهو يراقب في

كل ذلك رد فعل الفتاة، ولكنه لم يلمح أي مؤشر على استيعابها للأمر. قال بسرعة: لقد كتب أحدهم هذه الكلمة على الطاولة بجانب سريري الليلة الماضية، وقد ظننت أنك أنت التي كتبتِها.

نظرت إليه مشدوهة وقالت: أنا؟ آه، لا!

إذن فقد أخطأ. وأحس بخيبة أمل كبيرة؛ فلقد كان واثقاً... بل واثقاً جداً، ولم يكن حدسه يضلّله كثيراً.

ألح عليها قائلاً: أأنت متأكدة تماماً؟

- آه، نعم.

انتقلا من مكانهما وذهبا معاً ببطء باتجاه البيت. بدا أن تشارلوت تفكر في شيء، وكانت تجيب على ملاحظاته بإجابات تدل على عدم انتباهها، وفجأة انفجرت في الحديث بصوت خافت وسريع: إنه... إنه لمن الغريب أن تسألني عن كلمة «النجدة» هذه. أنا لم أكتبها بالطبع، ولكن، قد أكون فعلت ذلك بسهولة تامة.

وقف ونظر إليها فيما أكملت هي بسرعة: أعرف أن هذا يبدو سخيفاً، ولكني كنت خائفة، خائفة جداً. وعندما جئتَ الليلة الماضية بدا دخولك علينا وكأنه... وكأنه استجابة لشيء ما.

سألها بسرعة: ممَّ تخافين؟

- لا أعرف.

- لا تعرفين؟

- أظنه البيت؛ فمنذ أن جئنا إلى هنا وخوفي ينمو وينمو. كل واحد يبدو مختلفاً بطريقة ما. أبي، وأمي، وماجدالين؛ كلهم يبدون مختلفين.

لم يتكلم مورتيمر على الفور، وقبل أن يتكلم واصلت تشارلوت حديثها: أتعرف أن هذا البيت يُفترَض أن يكون مسكوناً بالأشباح؟

- ماذا؟

استيقظ اهتمامه كله.

- نعم؛ لقد قتل رجلٌ زوجَتَه في هذا البيت. آه! كان ذلك قبل بضع سنوات. لقد اكتشفنا ذلك بعد أن جئنا إلى هنا فقط. أبي يقول إن الأشباح خرافات سخيفة، ولكني... لا أعرف!

راح مورتيمر يفكر بسرعة، ثم قال بطريقة رسمية: أخبريني، هل ارتُكبت جريمة القتل هذه في الغرفة التي نمتُ فيها الليلة الماضية؟

- لا أعرف أي شيء عن ذلك.

قال مورتيمر وكأنه يخاطب نفسه: إنّي لأتعجب الآن. نعم، قد تكون هي نفس الغرفة.

ناداها صوت من داخل البيت فذهبت تاركة مورتيمر يذرع ممر الحديقة جيئة وذهاباً. أحس بأنه ما زال يمتلك ذلك الإحساس الغريب بأن حضوره المفاجئ قد أحدث شيئاً أشبه بالرعب، وفكر في نفسه: يجب ألاّ يجرفني التفسير النفسي، قد يفسر هذا خوف

تشارلوت، ولكنه لا يفسر خوف الآخرين. لقد ضايقهم مجيئي بشكل رهيب، كلهم ما عدا جوني. وكائناً ما كان ذلك الأمر، فإن جوني خارجه.

كان متأكداً تماماً من هذا، وكان غريباً أن يكون متأكداً من ذلك إلى هذه الدرجة، ولكن هذا ما كان.

في تلك اللحظة خرج جوني نفسه من البيت واقترب من الضيف قائلاً بارتباك: الإفطار جاهز، أرجو أن تدخل.

لاحظ مورتيمر أن أصابع الغلام كانت ملطخة كثيراً، وأحس جوني بنظراته فضحك ضحكة كئيبة ثم قال: إنني أعبث دائماً بالمواد الكيماوية، وهذا ما يُغضب والدي كثيراً. إنه يريدني أن أعمل في تجارة المباني ولكني أحب الكيمياء والأبحاث.

ظهر السيد دينزميد على النافذة أمامهما، وكان يبتسم ابتسامة لطيفة وعريضة، وحين رآه مورتيمر استيقظت في نفسه الشكوك والنفور. كانت السيدة دينزميد تجلس على الطاولة، وقد حيّته بتحية الصباح بصوتها غير الواضح. ومرة أخرى تولد لديه انطباع بأنها خائفة منه لسبب أو لآخر.

دخلت ماجدالين أخيراً وأومأت له برأسها وجلست على الكرسي مقابله، ثم سألته فجأة: هل نمت جيداً؟ أكان سريرك مريحاً؟

نظرت إليه بكل جدية، وعندما أجابها بالإيجاب بكل أدب

لاحظ علامة أشبه بخيبة الأمل تعبر وجهها. ترى ما الذي كانت تتوقع منه أن يقوله؟

التفت إلى مضيفه وقال مرحاً: يبدو أن ابنك هذا مهتم بالكيمياء؟

سُمع صوت ارتطام، فقد أسقطت السيدة دينزميد فنجان الشاي الذي كانت تحمله، فقال زوجها: انتبهي يا ماجي، انتبهي!

بدا لمورتيمر أن في صوت مضيفه نبرة لوم وتحذير. ثم التفت المضيف إلى ضيفه وتكلم بطلاقة عن منافع تجارة المباني وعن عدم ترك الأولاد الصغار يسرفون في ثقتهم بخياراتهم.

بعد الإفطار خرج مورتيمر إلى الحديقة وحده. كان واضحاً أن وقت مغادرته البيت قد حان. إن المبيت ليلة واحدة كملجأ يعتبر سبباً للبقاء، ولكن إطالة البقاء كانت أمراً صعباً من دون وجود سبب، وما هو العذر الذي يمكن أن يقدمه؟ ومع ذلك كان كارهاً للمغادرة.

وبعد أن قلّب هذا الأمر في ذهنه مرات عديدة سار في طريق يؤدي إلى الجانب الآخر من البيت. كان نعل حذائه من المطاط الذي لا يُصدر صوتاً، وإذا أصدر فصوته خفيف جداً. وعندما مر من جانب نافذة المطبخ سمع كلمات دينزميد من الداخل، وقد لفتت هذه الكلمات انتباهه على الفور: إنه مبلغ ضخم بالفعل.

أجاب صوت السيدة دينزميد، ولكن كان صوتها أضعف من

أن يسمعه مورتيمر. ولكن دينزميد أجابها: قال المحامي إنه يقارب الستين ألف جنيه إسترليني.

لم يكن مورتيمر ينوي استراق السمع، ولكنه عاد أدراجه متأملاً. بدا أن ذكر المال قد بلور الموقف؛ ففي نقطة ما يوجد أمر يتعلق بستين ألف جنيه، وهو ما يجعل الأمر أكثر وضوحاً... وأكثر بشاعة.

خرجت ماجدالين من البيت، لكن صوت والدها ناداها على الفور تقريباً فدخلت ثانية، وسرعان ما انضم دينزميد نفسه إلى ضيفه وقال بلطف: إنه صباح رائع نادر الحدوث. أرجو ألاّ تكون سيارتك في وضع سيء.

فكر مورتيمر قائلاً لنفسه: "إنه يريد أن يعرف متى سأرحل وبصوت عال شكر السيد دينزميد مرة أخرى على كرم ضيافته الذي جاء في الوقت المناسب.

قال الآخر: العفو، العفو.

خرجت ماجدالين وتشارلوت من البيت معاً وسارتا جنباً إلى جنب نحو مقعد صدئ على مبعدة منهما. كان الشعر الأسود والشعر الذهبي يمثلان تضاداً جميلاً معاً، وقال مورتيمر من وحي اللحظة: ابنتاك لا تتشابهان أبداً يا سيد دينزميد.

اهتزت يد دينزميد وهو يشعل غليونه فأسقط عود الثقاب على الأرض، ثم سأله: أتظن هذا؟ نعم، أحسب أنهما كذلك.

ومض في ذهن مورتيمر حدس سريع، فقال بهدوء: ولكن ليست كلا الاثنتين ابنتك بالطبع.

رأى دينزميد ينظر إليه ويتردد لحظة، ثم أجمع أمره وقال: هذه لمحة ذكية جداً منك يا سيد. نعم، إن واحدة منهما لقيطة، وقد أخذناها عندما كانت طفلة رضيعة وربيناها كابنتنا. هي نفسها لا تعرف شيئاً عن الحقيقة، ولكنها ستضطر لمعرفة ذلك قريباً.

ثم تنهد، فقال مورتيمر بهدوء: أهي مسألة ميراث؟

نظر الآخر إليه نظرة ارتياب، ثم بدا أنه قرر أن الصراحة أفضل، فأصبح أسلوبه في الحديث صريحاً جداً. قال: أمر غريب أن تقول هذا، ولكنه صحيح؛ فقبل بضعة أشهر لاحظت إعلاناً في الصحف، وبدا لي أن الطفلة المذكورة في الإعلان لا بد أنها ماجدالين. وذهبت فقابلت المحامين وحدث بيننا الكثير من الكلام. كانوا مرتابين... وهو أمر طبيعي، ولكن تمت تسوية كل شيء الآن. سآخذ الفتاة نفسها إلى لندن في الأسبوع القادم. إنها لا تعرف أي شيء عن هذا الأمر حتى الآن، إذ يبدو أن والدها كان رجلاً واسع الثراء ولم يعلم بوجود الطفلة إلاّ قبل وفاته ببضعة أشهر، وقد كلف وكلاء عنه بالبحث عنها والعثور عليها، وترك جميع ثروته لها عندما يتم العثور عليها.

أصغى مورتيمر باهتمام شديد. لم يكن لديه ما يدعوه إلى الشك في رواية السيد دينزميد، ولعل هذا يفسر سلوك ماجدالين المحايد النائي بنفسه. ومع ذلك، ورغم أن القصة بذاتها قد تكون صحيحة إلاّ أن شيئاً وراءها غير معروف.

لكن مورتيمر لم يكن ينوي إثارة شكوك السيد دينزميد، بل كان عليه أن يبذل كل ما في وسعه لطمأنة تلك الشكوك. قال: إنها قصة مثيرة جداً يا سيد دينزميد. أهنئ الآنسة ماجدالين؛ فقد اجتمع لها الإرث والجمال، وأمامها وقت رائع تقضيه.

وافقه والدها بحرارة وقد ظهرت في نبرة حديثه كل دلائل الدفء والأبوة: إنها كذلك، كما أنها فتاة طيبة نادرة يا سيد كليفلاند.

قال مورتيمر: حسناً. أظن أنني يجب أن أذهب الآن. لا بد أن أشكرك ثانية سيد دينزميد على كرم ضيافتك الذي لا مثيل له.

دخل إلى البيت بصحبة مضيفه لكي يودع السيدة دينزميد. كانت تقف قرب النافذة وظهرها إليهما ولم تسمع صوت دخولهما، وعندما قال زوجها: "ها قد جاء السيد كليفلاند لوداعك" جفلت والتفتت بعصبية فأسقطت شيئاً كانت تحمله بيدها. التقطه مورتيمر عن الأرض وأعطاه إليها، وكان ذلك رسماً مصغراً لتشارلوت رُسم بأسلوب يعود إلى ربع قرن مضى. كرر مورتيمر شكره لها بنفس الطريقة التي فعلها مع زوجها، ولاحظ ثانية ملامح الخوف البادية عليها والنظرات المختلسة التي وجهتها إليه من تحت رموشها.

لم تكن الفتاتان موجودتين، ولكن لم يكن من سياسة مورتيمر أن يبدي لهفة على رؤيتهما، كما كان له رأيه الخاص الذي ثبتت صحته بعد وقت قصير.

* * *

عندما ابتعد مسافة نصف ميل تقريباً عن البيت في طريقه إلى حيث ترك سيارته في الليلة الماضية رأى بعض الأغصان تُزاح جانباً على طرف الطريق ثم خرجت ماجدالين منها إلى الطريق أمامه. قالت: كان يجب عليّ أن أراك.

- لقد توقعتك. كنتِ أنت التي كتبت استغاثة «النجدة» على الطاولة في غرفتي الليلة الماضية، أليس كذلك؟

أومأت ماجدالين برأسها بالإيجاب، فسألها مورتيمر بلطف: لماذا؟

انتقلت الفتاة جانباً وبدأت بقطع بعض الأوراق عن إحدى الشجيرات وقالت: لا أعرف... صدقاً لا أعرف.

- أخبريني.

سحبت ماجدالين نفساً عميقاً وقالت: أنا فتاة واقعية ولستُ من النوع الذي يتخيل أو يتوهم أشياء. أعتقد أنك تؤمن بالأشباح، أما أنا فلا أؤمن بها، وعندما أقول لك إن في ذلك البيت شيئاً غير طبيعي (وأشارت بيدها إلى سفح التلة) فإنني أعني أنه يوجد فيه شيء محسوس غير طبيعي، وليس مجرد صدى من الماضي. إنه يحدث منذ أن جئنا إلى هنا، وفي كل يوم يزداد الأمر سوءاً؛ فأبي مختلف وأمي مختلفة وتشارلوت مختلفة.

قاطعها مورتيمر قائلاً: وهل جوني مختلف؟

نظرت ماجدالين إليه وقد انتابها شيء من الإعجاب وقالت:

لا لقد بدأت أفكر بهذا الآن، جوني ليس مختلفاً؛ إنه الشخص الوحيد الذي... الذي لم يتأثر بهذا كله. لم يكن متأثراً الليلة الماضية عندما كنا نتناول الشاي.

- وأنت؟

- كنت خائفة... خائفة جداً، مثل طفل صغير، من غير أن أعرف سبباً لخوفي. وكان أبي غريب الأطوار! لا يوجد وصف آخر ينطبق عليه سوى أنه كان غريب الأطوار. وقد تحدّث عن المعجزات، وعندها دعوت الله... دعوته فعلاً ليبعث معجزة، فجئت أنت وطرقتَ الباب.

سكتت فجأة وهي تحدق إليه ثم قالت بشيء من التحدي: أظنني أبدو مجنونة بالنسبة لك.

- لا؛ على العكس من ذلك، تبدين عاقلة جداً. جميع العقلاء يحسون بنذر الخطر إذا اقترب منهم.

- أنت لا تفهمني؛ أنا لم أكن خائفة على نفسي.

- على مَن إذن؟

لكن ماجدالين هزت رأسها ثانية بشيء من الحيرة وقالت: "لا أعرف" ثم أكملت: كتبت كلمة «النجدة» هكذا، من وحي اللحظة. خطرت لي فكرة سخيفة من دون شك... وهي أنهم لن يدعوني أتحدث إليك. أقصد كلهم جميعاً. لا أعرف ما الذي أردتُ أن أطلبه منك، ولا أعرفه الآن.

- لا عليك، فسوف أفعله.

- ما الذي يمكنك فعله؟

ابتسم مورتيمر قليلاً وقال: يمكنني التفكير.

نظرت إليه بارتياب فقال: نعم، يمكن عمل الكثير بهذه الطريقة... أكثر ممّا تتصورين. أخبريني، هل وردت أي كلمة أو عبارة عابرة لفتت انتباهك قبل تناول العشاء الليلة الماضية؟

عبست ماجدالين وقالت: لا أعتقد ذلك، إنما سمعت والدي يقول شيئاً لوالدتي عن أن تشارلوت صورة طبق الأصل عنها، ثم ضحك بطريقة غريبة جداً، ولكن... ليس في هذا شيء غريب، أليس كذلك؟

قال مورتيمر ببطء: بلى، باستثناء أن تشارلوت لا تشبه أمك.

بقي غارقاً في التفكير لبعض الوقت ثم رفع بصره ليرى ماجدالين تراقبه بحيرة فقال: اذهبي إلى البيت يا فتاتي ولا تقلقي، اتركي هذا الأمر لي.

عادت إلى البيت طائعة. ومشى مورتيمر مسافة أبعد بقليل، ثم ألقى بنفسه على المرج الأخضر وأغلق عينيه وحرر نفسه من التفكير الواعي وترك سلسلة من الصور تمر في ذهنه دون قيد.

جوني! إنه يعود إلى جوني دائماً. جوني البريء تماماً، البعيد كلياً عن دائرة الشك والمكائد، ولكنه -مع ذلك- المحور الذي يدور حوله كل شيء. تذكّر ارتطام فنجان السيدة دينزميد على صحنها

عند الإفطار ذلك الصباح. ما الذي أثار اهتياجها؟ أكان بسبب إشارته العابرة إلى ولع الفتى بالمواد الكيماوية؟ في تلك اللحظة لم يكن منتبهاً للسيد دينزميد، ولكنه تذكره الآن بوضوح وهو جالس وقد تجمدت يده التي كانت تحمل فنجان الشاي في منتصف الطريق إلى شفتيه.

أعاده ذلك إلى تشارلوت وقد رآها حينما فُتح له الباب في الليلة الماضية. كانت تجلس وتحدّق إليه من فوق حافة فنجان الشاي الذي كانت تحمله. وتبعتها بسرعة ذكرى أخرى: ذكرى السيد دينزميد وهو يفرغ فناجين الشاي الواحد تلو الآخر قائلاً: "هذا الشاي بارد"

تذكّر البخار الذي تصاعد من الفناجين. لم يكن الشاي بارداً بالتأكيد! بدأ شيء يتحرك في عقله. ذكرى شيء قرأه قبل وقت غير طويل، قبل نحو شهر تقريباً. تقرير صحفي عن عائلة تسممت بأكملها نتيجة إهمال صبي، فقد انسكبت علبة من الزرنيخ كانت محفوظة في خزانة الأطعمة على الخبز الذي كان أسفل منها. قرأ عن ذلك في الصحيفة، ولعل السيد دينزميد قرأها أيضاً.

بدأت الأمور تتضح... وبعد نصف ساعة نهض مورتيمر كليفلاند على قدميه بسرعة.

* * *

مرة أخرى كان الوقت مساء في البيت. كان البيض هذه الليلة مسلوقاً وكانت هناك علبة من اللحم أيضاً، وسرعان ما جاءت السيدة دينزميد من المطبخ وهي تحمل إبريق الشاي الكبير. وجلس أفراد العائلة على مقاعدهم حول الطاولة.

قالت السيدة دينزميد وهي تنظر إلى النافذة: الجو اليوم على عكس ليلة البارحة.

أجابها السيد دينزميد: نعم؛ الجو هادئ جداً الليلة بحيث يمكنك سماع صوت الإبرة عند سقوطها على الأرض. من فضلك صبّي لنا الشاي يا عزيزتي.

ملأت السيدة دينزميد الفناجين وسلمت كل واحد منهم فنجانه، وعندما وضعت إبريق الشاي على الطاولة أطلقت صرخة خافتة مفاجئة وضغطت بيدها على قلبها. أدار السيد دينزميد كرسيه إلى الاتجاه الذي كانت تنظر إليه بعينيها الخائفتين. كان مورتيمر كليفلاند يقف عند مدخل الباب.

تقدّمَ إلى الأمام، وكان سمته مرحاً ومعتذراً. قال: أخشى أنني أجفلتكم. كان عليّ أن أعود لأخذ شيء ما.

صاح السيد دينزميد: "لأخذ شيء ما؟!" ثم احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه وتابع قائلاً: لأخذ ماذا؟ هذا ما أود معرفته.

قال مورتيمر: بعض الشاي.

وبحركة سريعة أخرج من جيبه شيئاً ورفع أحد فناجين الشاي عن الطاولة وفرغ بعض محتوياته في أنبوب اختبار صغير كان يحمله بيده اليسرى.

قال السيد دينزميد لاهثاً: ما الذي... ما الذي تفعله؟

كان قد شحب لون وجهه وذهب اللون الأحمر وكأنه السحر، وصاحت السيدة دينزميد صيحة حادة خائفة.

- أظن أنك تقرأ الصحف يا سيد دينزميد؟ أنا متأكد من أنك تقرؤها. أحياناً يقرأ المرء قصصاً عن عائلة بأكملها قد تسممت، بعضهم يتعافى وبعضهم لا يتعافى. **أما في حالتنا هذه فشخصٌ واحد لن يتعافى.** سيكون التفسير الأول هو هذا اللحم المعلب الذي كنتم تأكلونه، ولكن ماذا لو كان الطبيب رجلاً شكّاكاً وليس من السهل خداعه بنظرية الطعام المعلب؟ توجد علبة زرنيخ في خزانة الأطعمة عندكم، وعلى الرف الواقع أسفل منها علبة من الشاي. وهناك فتحة مناسبة تحت الزرنيخ في الرف العلوي، وكم سيكون طبيعياً أن يفترض المرء وصول الزرنيخ إلى الشاي دون قصد؟ ربما توجه اللوم إلى ابنك جوني على إهماله، ولا شيء أكثر من ذلك.

قال دينزميد لاهثا: إنني... إنني لا أعرف ما تقصده.

- بل أظنك تعرف.

رفع مورتيمر فنجاناً آخر من الشاي وملأ أنبوب اختبار ثانياً، ثم ألصق ملصقاً أحمر على أحد الأنبوبين وملصقاً أزرق على الآخر وقال: ذو الملصق الأزرق يحتوي على شاي من فنجان ابنتك تشارلوت، والآخر من فنجان ابنتك ماجدالين. وأنا مستعد لأن أحلف بأنني سأجد في الأنبوب الأول كمية من الزرنيخ أكثر مما في الأنبوب الآخر بأربع مرات أو خمس.

قال دينزميد: أنت مجنون.

- آه! لا يا عزيزي، لست مجنوناً أبداً. لقد أوهمتني اليوم أن ماجدالين هي ابنتك بالتبني، ولكن الحقيقة أن تشارلوت هي الطفلة

التي تبنيتَها، الطفلة التي تشبه أمها إلى درجة جعلتني أخطئ فيها اليوم عندما حملتُ صورة حسبتُها لتشارلوت بينما هي لأمها الأصلية. وقد أردتَ أن ترث ابنتك الحقيقية الثروة، وحيث أنه قد يكون من المستحيل الإبقاء على ابنتك المفترضة تشارلوت بعيداً عن النظر، إذ يمكن لأحد ممن يعرفون الأم أن يدرك حقيقة هذا التشابه، فقد جمعت أمرك وقررت... مقدار ضئيل من الزرنيخ الأبيض في قاع فنجان الشاي سيفي بالغرض!

أطلقت السيدة دينزميد فجأة ضحكة أقرب للقعقعة، وأخذت تجوب الغرفة جيئة وذهاباً في حالة قوية من الهستيريا، ثم زعقت قائلة: الشاي، هذا ما قاله، الشاي وليس عصير الليمون.

زأر زوجها حانقاً: هل لك أن تمسكي لسانك؟

رأى مورتيمر تشارلوت تنظر إليه بعينين واسعتين متسائلتين عبر الطاولة، ثم أحس بيد على ذراعه وسحبته ماجدالين بعيداً.

أشارت إلى الأنبوبتين وقالت: ما هذه يا أبي؟ لا أحسبك...

وضع مورتيمر يده على كتفها وقال: يا طفلتي! إنك لا تؤمنين بالماضي، أمّا أنا فأؤمن. إنني أؤمن بالجو المحيط بهذا البيت، ولو لم يأتِ إليه أبوك فربما، وأقول: ربما، ما كان ليفكر في الخطة التي وضعها. سأبقي أنبوبي الاختبار هذين لحماية تشارلوت الآن وفي المستقبل، وباستثناء ذلك فإنني لن أفعل شيئاً؛ عرفاناً بجميل تلك اليد التي كتبت على الطاولة: «النجدة»!

* * *

المحتويات